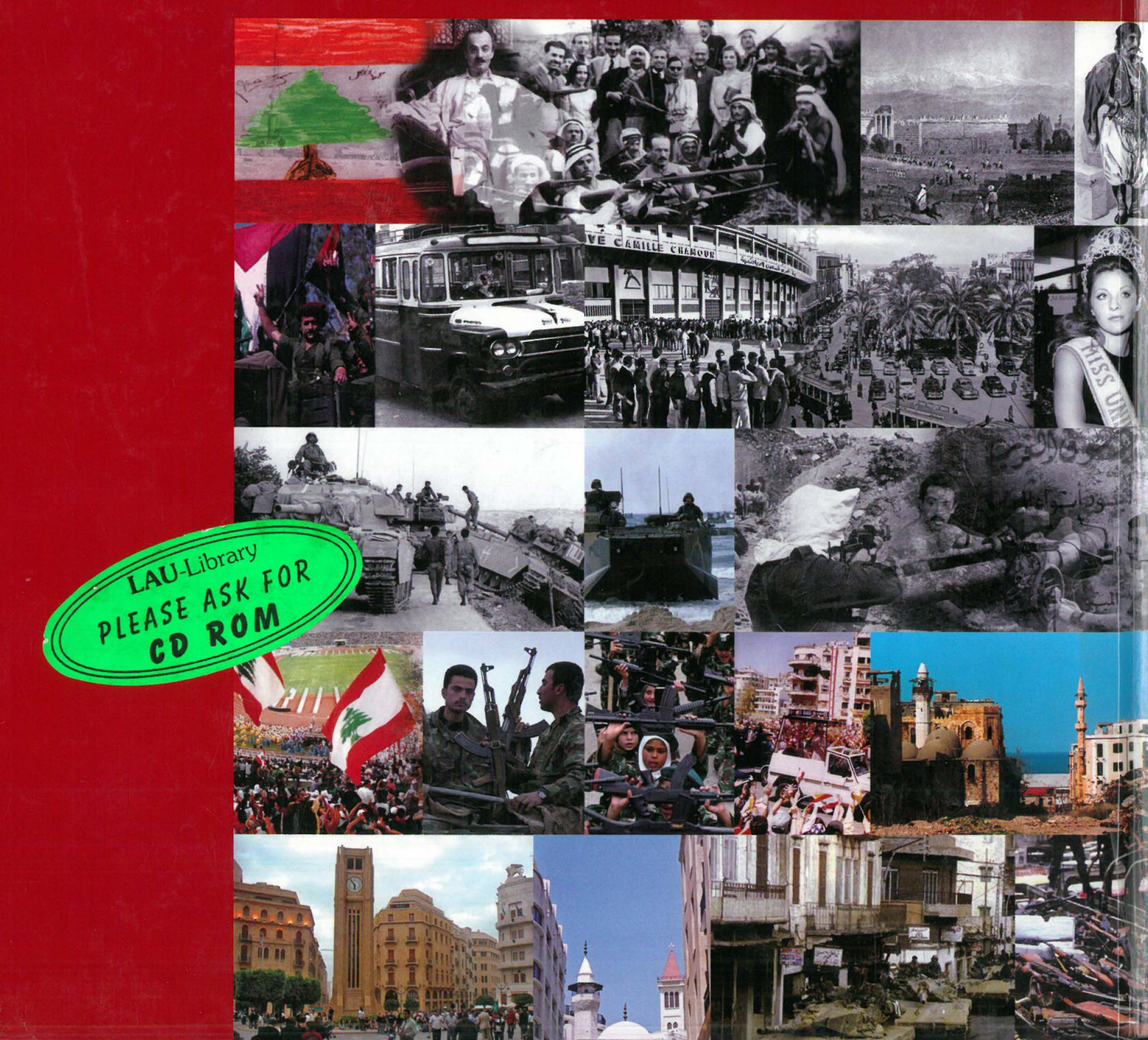
موسوعة الحرب اللبنانية

ذاكرة وطن وشعب



مسعود الخوند

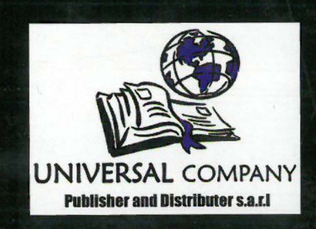
موسوعة الحرب اللبنانية

ذاكرة وطن وشعب

وطن قدره مواجهة التحديات والأخطار، من أي نوع كانت، ومن أي صوب أتت...
وطن كتبت عليه المقاومة في سبيل الحفاظ على كيانه وتفرده في هذه المنطقة من العالم.
منذ أن كان لبنان، كانت الحرية مصيره، وهذه الموسوعة تروي بالوقائع والصّور تاريخ بلد صغير بجغرافيته، كبير بحضارته.

عشرة أجزاء تتألف منها موسوعة الحرب اللبنانية المصوّرة: "ذاكرة وطن وشعب" لمؤلفها الباحث مسعود الخوند، تسرد بالنص والصورة تاريخ لبنان منذ الحقبة الفينيقية وصولاً إلى مطلع الألفية الثالثة، في استعادة لأحداث ومواقف وأزمات ومعارك، رسمت حدود الوطن مرات ومرات، وحدود الطوائف داخل الوطن الواحد، لتجمع الذاكرة وتكتب آلام شعب لا بدّ له من قراءة تاريخه لبناء مستقبل صلب لوطن يستحق كل التضحيات التي قدمت وستقدم.





مسعود الخوند

موسوعة الحرب اللبنانية

ذاكرة وطن وشعب

الجزء الأول



UNIVERSAL COMPANY

بطاقة مكتبية

موسوعة الحرب اللبنانية

ذاكرة وطن وشعب

المؤلف: مسعود الخوند

تقديم: جوزف أبي ضاهر

مراجعة: ندى عيد

أرشيف: قسم الدراسات في دار كنعان

عدد الصفحات: 160 صفحة

قياس: 28 X 21

إخراج: سليم المقدّم

الطبعة الأولى: 2006



UNIVERSAL COMPANY
Publisher and Distributer s.a.r.l

تلفون : 00961 - 1 - 291693

00961 - 1 - 288686

خليوي : 00961 - 3 - 374371

فاكس : 00961 - 1 - 512951

ص.ب. 50137 بيروت - لبنان

E-mail: Fadymou@inco.com.lb
www.universal-publisher.com

موسوعة... للمستقبل

جوزف أبي ضاهر

يَجلس التاريخ في المكتبات، بين الوثائق والمخطوطات، وصفحات الكتب القديمة. يغلّف نفسه بالغبار مرّات، وبالصمت مرّات أخرى. على وجهه بصمات أصابع. وفوق جسده ثياب رثّة. لحيته صفراء. ويقال انها كانت بيضاء قبل أن يبتعد عن الضوء.

هكذا تصف العامّة التاريخ وتهابه. وإذا تجرّأ أحدهم. قال: إنّه متناقض. لا يستقرّ على كلام. وإذا صَدَق. فبعض صدقه تشوبه علامة استفهام...

هذه المَهابة من التاريخ. بل هذا الخوف. وضعه في دائرةٍ. كثيرون مرّوا بها. وأشاحوا النظر. وقلّة حدّقت. وقرّرت العبث بأوراقه. وتعريضها للضوء "نكاية" بالأسرار التي ظنّ الجميع أنها ملكًا له. والحقيقة. انّه مؤتمن عليها. فقط.

***

منذ بدأ علم التاريخ. والباحث فيه يلهث وراء معلومة. وراء حادثة. وراء شاهد. ولا مرّة استطاع. أن يضع نقطة نهائية في آخر حكم قاطع. حتى ولو بعد مئات السنوات. وربما آلاف... قد تأتي فاصلة صغيرة. كانت سقطت سهوًا. أو أسقطت عمدًا. من نصّ. فتبدّل أحداثًا بكاملها. وتُعيد خلط الأوراق. المجموعة تحت عنوان واحد. لتطلع منها عناوين كثيرة.

حتى التفاصيل الصغيرة لها مدلولاتها. وربما تكون في الأساس. وفي الجوهر. فتغيّر وتبدّل. وليس من السهل الإلمام بها. كلها. فالأحداث الكبيرة. هي دائمًا. تخطف البريق. وتبعد ببريقها. أو بنارها. كل معلومة تأتي على أطراف الشفتين مسنونة تبغي التغيير.

هنا. يبرز الباحث التوّاق الى مقاربة الحقيقة في كل وجوهها. حتى الحقيقة لها أكثر من وجه. وكل وجه يزيدها إغناء. ولا يُخسرها شيئًا من عافية. أو من حضور كامل.

الباحث الثقة، يخلع أفكاره المسبقة خارجًا حين يجلس أمام المعلومات منقّبًا، متحرّيًا ما وراءها، ليصل الى برهان فيه من الصحّة الشيء الكثير، وليس فيه من النهائيّة الا القليل.

إن انفتاح الباحث على كل التيّارات والأفكار والأهواء يجعله أكثر حياديّة، فلا التزام بموقف، ولا انحياز الى فكرة يؤكدان الجدّية في العمل.

هو متجذّر في البحث، يقرأ، يختصر، في حِرفَةٍ مُتقنة، ينهل من كل زمان، ومن كل مكان مهما اتّسع هذا المكان وتشعّب.

***

يستنير الباحث في التاريخ بثقافته، وبلغته، وبلغات، كلما زاد معرفة بها، كلما اتّسعت آفاقه، فلا غربة بين تاريخ وطن، وتاريخ أوطان مجاورة، وحتى بعيدة. العولمة بدأت مع كتابة التاريخ لإغناء التاريخ، وليس لإفراغه من خصائص الشعوب وعاداتها وتقاليدها، وخصوصياتها التي هي العلامات المميزة في هويتها، والقادرة على إنعاش وجودها في الحياة.

إن الحال العامة في منطقة بكاملها، قد تؤثّر، بتفاوت، بين بلد وآخر، بين وطن وآخر، بين قَطر وآخر، ومرّات كثيرة تتداخل مصالح الدول، وغايات الحكام وشهواتهم، وعصبيات الشعوب في تقرير مصائر أزمان نُعتت بالتنوّر، أو بالظلمة والظلم، إذ أن حقوق الإنسان ليست مُصانة "دائمًا"، و"الشمولية" كلمة فارغة من معناها، ولا يمكن إلصاقها، لا بالديمقراطية ولا بالتوتاليتارية، ولا بالبيروقراطية، ولا بالحرّية، ولا بالاشتراكيّة... انها جزء مجزّأ وناقص، ولا "تشمل" حتى ذاتها.

***

علم التاريخ ليس توثيق معلومات، ووضعها حسب ترتيبها الزمني، انه انشداد الى تقرير مصير المستقبل، انطلاقًا من الماضي البعيد والحاضر القريب.

ولعلم التاريخ منهجه واختصاصه، يفرض الدقّة واختراق الحواجز، والبحث يتطلب الكثير من الصبر وطول البال، فكلما كَثُرت المراجع والمصادر والوثائق، كلما زاد التعب في استخلاص نتيجة، ترضي العقل أولاً، وفي رضى العقل رضى الحقيقة... ومع ذلك تظل ناقصة!!!

الحقيقة شائقة وصعبة... وحتى موجعة، لذا، على الباحث أن يتسلّح

بالوعي الإنساني، والوعي المعرفي الشمولي. ولتظل السياسة خارجًا، والعقائد خارجًا، والعصبيات والتزمّت خارجًا.

واما الاقتصاد والنموّ السكاني فموضوعان أساسيّان كما الآثار والمكتشفات، لا بل هما أعمق وجودًا في كل زمان ومكان ويؤثران تأثيرًا مباشرًا على بنية الدولة، وحال الشعب. وإن طغيان موضوع على آخر يقلب المقاييس رأسًا على عقب، ويبدّل ما كان يجب ألا يبدّل.

***

في كتابة التاريخ شيء من الإبداع، وليس فقط تسجيل معلومة، فالسلاسة والوضوح مسألتان توصلان الى الهدف المرجو، بينما يقتل السرد الجاف "الزعروري العقد" اللغة، وخارج اللغة موت.

تبقى الروح الحضارية، وأقول "الروح" فالحضارة هي من أسمى علامات التأنسن، وترتبط مباشرة بالمعرفة والعقل والثقافة، وتسعى الى الحق والجمال والغنى الداخلي الذي يزيد من فهمنا للدين، للأرض، للإنسان ـ الوطن، وندرك أهميّة الحياة بجوهرها، لا بقشورها.

***

أصل الى هذه الموسوعة، وهي تخصّنا كلبنانيين، وقد اختصر بها الصديق الموسوعي مسعود الخوند عمل مؤسسات، ومراكز بحوث، مستفيدًا من خبرته الواسعة في هذا المجال الذي سجل فيه علامات فارقة، في أعمال سابقة، شهدت على مدى صبره وعلمه وقدرته على العطاء، وعلى إدراكه أن "الذاكرة الالكترونية"، ولو صارت اليوم في متناول الجميع، الا أنها لا تستطيع أن تخطف من الكتاب رائحته التي تدخل العمق، فتحرك شيئًا لا يوصف بالحنين فقط، أو بالخصوصية فقط، فالعين واليد والأحاسيس كلها تلتقي أمام صفحات الكتاب، أو الصور المطبوعة، وهل هناك أعظم من الحياة؟

"لبنان: ذاكرة شعب ومعاناة وطن" موسوعة لكل لبناني يتطلع الى مستقبل يكون وسع الطموح والأحلام، وليس فيه من غبار الزمن الأسود ذرّة.

مدخل

بطاقة تعريف

الإسم: عُرفت سلسلة الجبال الغربية باسم "لبنان" منذ العهد الروماني. بينما كان يُطلق على السلسة الشرقية اسم "أنتيليبانوس" Antilibanos أي "لبنان المقابل" (عن المؤرخ سترابو) . وهاتان السلسلتان كانتا في ما مضى من العصور الجيولوجية سلسلة جبال واحدة. وإسم لبنان مشتق من لفظ سامي مشترك "لبن" ومعناه البياض. بياض اللبن. وذلك لأن الثلج يغطي قممه العالية حوالى ستة أشهر في السنة. وليس لأن الصخور الكلسية البيضاء تغطي أعاليه. وفي الواقع إن بقعاً من الثلج تبقى في أعالي القمم على مدار السنة (فيليب حتي. تاريخ لبنان. ص 15ــ 16).

الموقع وأهميته

يقع لبنان في النصف الشمالي للكرة الأرضية بين خطي الطول 35 و 36 شرقي خط غرينتش. وخطي العرض 33 و 34 شمالاً. في آسيا الغربية. ويتوسط الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. ما يجعله على مقربة من القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأوروبا. وفي موقع مركزي ووسيط بين مركز الإنتاج الصناعي الأوروبي والأسواق الآسيوية والأفريقية. لذلك. اعتبر لبنان بوابة عبور إلى المشرق العربي. ونقطة التقاء لأنماط النقل المتعددة: البحرية والبرية والجوية. وجعل هذا الموقع من العاصمة بيروت عقدة مواصلات مهمة ذات دور خدماتي مميز اقتصادياً ومالياً وسياسياً. فاذدهرت فيها تجارة المرور والوساطة -المالية والتجارية وغيرها من الخدمات.

استمرّ نمو لبنان الاقتصادي. مرتبطاً بدور مدينة بيروت خصوصاً. بعد نكبة فلسطين (1948) وتوقف نشاط المرافىء الفلسطينية التي كانت تخدم مدن الضفة والأردن وشبه الجزيرة العربية حيث انتقلت نشاطات التبادل إلى لبنان. وبذلك توسّع نطاق الخدمات اللبنانية ليشمل دول المشرق العربي وشبه الجزيرة العربية.

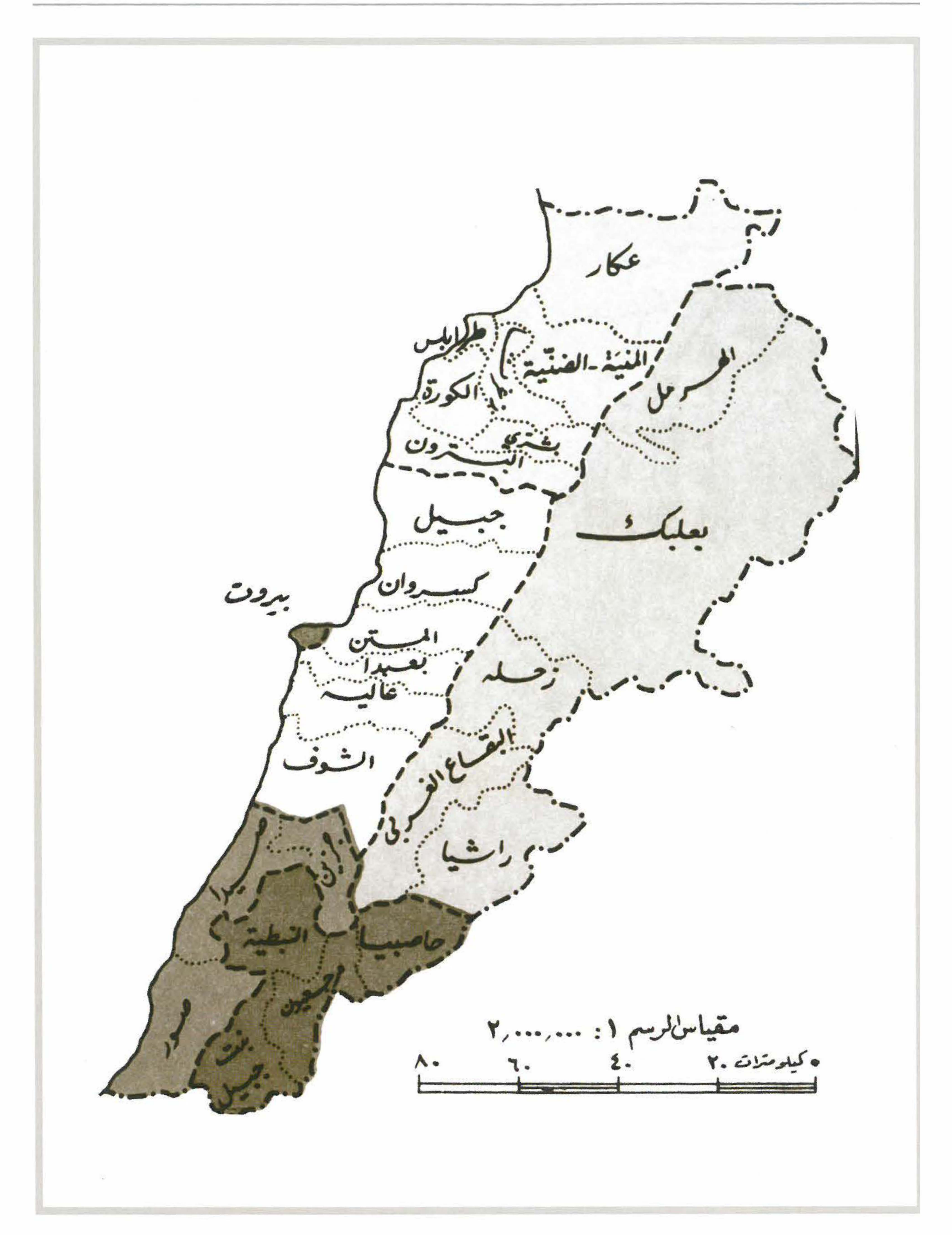
وبعد سنة 1967. أقفلت قناة السويس في وجه الملاحة بسبب الحرب العربية – الاسرائيلية. فتحوّل جزء من التجارة الخارجية للمنطقة نحو لبنان. وأصبح دور لبنان أساسياً في الاقتصاد الإقليمي.

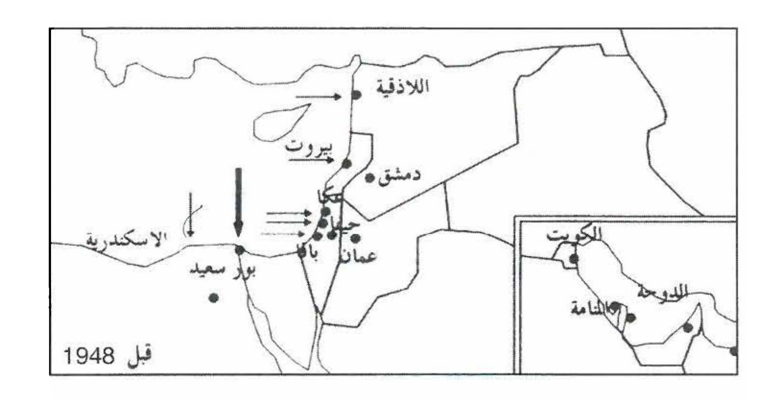
واستمرت حالة النمو المتزايدة حتى أواسط السبعينات. ثم توقفت لأسباب داخلية تتعلق بحالة الحرب في لبنان. حيث كانت بيروت مسرحها الأساس.

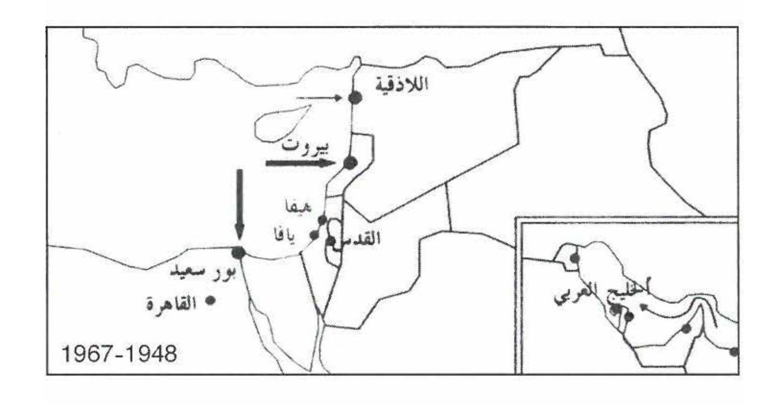
وبين سنتي 1975و1990. فتحت قناة السويس للملاحة من جديد. وأكملت الدول النفطية في

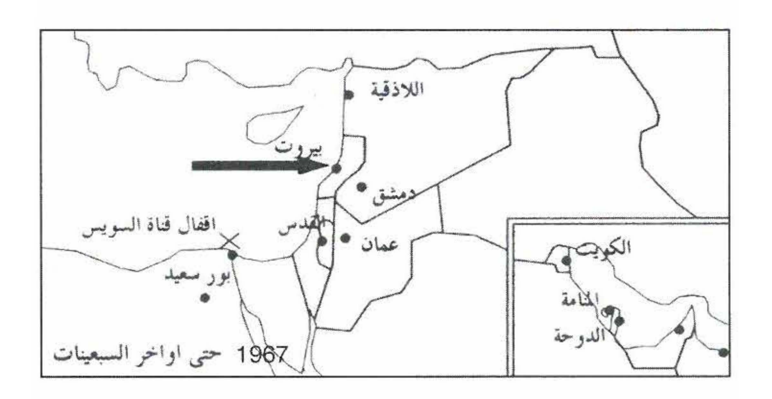
بيروت من الطائرة

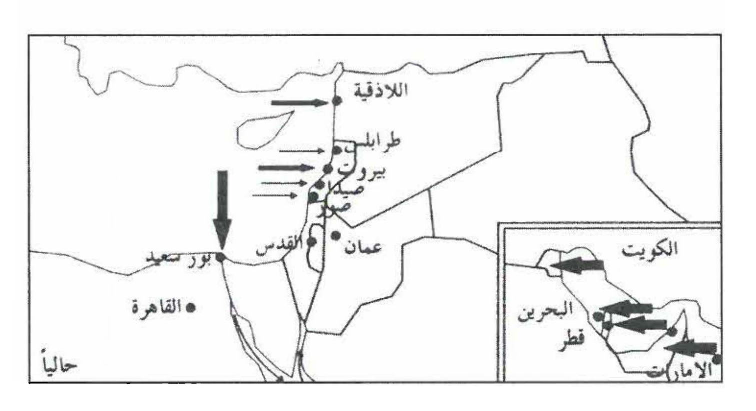
بيروت القديمة


عكار
طرابلس
المنية-الضنية
الهرمل
الكورة
بشري
البترون
جبيل
بعلبك
كسروان
بيروت
المتن
بعبدا
عاليه
زحلة
الشوف
البقاع الغربي
راشيا
صيدا
جزين
النبطية
حاصبيا
مرجعيون
صور
بنت جبيل
مقياس الرسم ١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠
٠ كيلومترات ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠









تطوّر أهمية بيروت كمنفذ بحري، وباقي مدن منافذ المشرق العربي (ومدن بلدان الخليج العربي، في الإطار) من "قبل 1948" إلى "حالياً"، تشير إليه أحجام السهم. حيث من الواضح أن العصر الذهبي لبيروت واقع في الخريطة الثالثة "1967 حتى أواخر السبعينات".

المصدر: الكتاب المدرسي، "الجغرافيا العلمية"، السنة الثانية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، ص 14.



العاصمة بيروت

الخليج البنية التحتية في مرافئها. وأصبح مرفأ العقبة واللاذقية منافسين مهمين لمرفأ بيروت (راجع خريطة المنافذ البحرية والبرية للمشرق العربي وشبه الجزيرة العربية).

العاصمة بيروت

أهم المدن: طرابلس، زحلة، بعلبك، صيدا، صور، النبطية، جونية، جبيل، البترون، جزين...

اللغات

العربية (سمية). الفرنسية الثانية في الأهمية (لبنان بلد فرنكوفوني). ولكن الانكليزية آخذة في أن تحل محلها تدريجاً. وأكثر المتعلمين والمثقفين اللبنانيين يتقنون هاتين اللغتين الأجنبيتين معاً. كما أن أكثر المدارس والمعاهد والجامعات اللبنانية تعلّمهما معاً وإن بدرجة متفاوتة في الأهمية، الفرنسية ثم الانكليزية، أو الانكليزية ثم الفرنسية، وكلاهما بعد العربية طبعاً.

"بحسب الاستقصاء الذي أجريناه مع معهد "إيبسوس"، تبين أن نسبة 55 ٪ من الشعب اللبناني تجهل الفرنسية تماماً، و45٪ من الناس هم فرنكوفونيون كلياً أو جزئياً. بالنسبة إلى الأشخاص الذين يفوق عمرهم الخمسة أعوام تصل نسبة الفرنكوفونيين إلى 48٪ والجدير بالذكر هو أن معدل معرفة الفرنسية يصل إلى مستواه الأعلى لدى الأشخاص الذين تراوح أعمارهم بين الخامسة والرابعة


خليج بيروت

والثلاثين. أي في أوساط الطلاب أو الأشخاص الذين أنهوا لتوّهم دراساتهم الجامعية. وينخفض عدد الأشخاص الذين يتكلمون الفرنسية مع التقدم في السن. أم الأنغلوفونيون "الحقيقيون أو الجزئيون" فيمثلون من جهتهم نحو 30٪ من الشعب. يبدو من الواضح إذاً أن الفرنسية، نتيجة تجذّرها التاريخي وشبكة التعليم المدرسية والجامعية الفرنكوفونية اللبنانية الواسعة النطاق، متقدمة على الانكليزية" (باسكال مونان، أستاذ في السوربون، مترجمة، "النهار"، **5** شباط **2001**).

الحدود

لمزيد من فهم مسألة الحدود، وفي جزئها الجنوبي تحديداً (الحدود مع إسرائيل، وفي جزء مع سورية - هضبة الجولان)، ننقل حرفية فقرات في مقال دراسي لعبد اللطيف فاخوري في "الحياة"، 24 آب 2000:

"لم يعرف تحديد الحدود وخرائط المساحة في المنطقة العربية إلا أثناء حملة نابوليون: فوضع الفرنسيون خرائط للقاهرة عام 1798 كما وضع مهندسو البحرية الانكليزية ثلاث خرائط لبيروت وضواحيها عام 1841 و 1842 أثناء حملة إخراج ابراهيم باشا منها.

(كان من الأصوب لو أضاف عبد اللطيف تحديداً زمنياً لهذا الجهل الحدودي والخرائطي بقوله "في التاريخ الحديث" مثلاً، أو "إبان المرحلة العثمانية". ذلك أن دراسات كثيرة تثبت أن الامبراطوريات القديمة في المنطقة وصولاً إلى الامبراطورية العربية الإسلامية عرفت تحديداً دقيقاً للحدود).


ميناء مدينة طرابلس القديم

"نصّ بروتوكول عام 1861 الخاص بلبنان على إجراء إحصاء للنفوس ومسح الأراضي المزروعة. وجرى المسح العام في 1864 ولكنه دون اعتماد أصول فنية طوبوغرافية. وجاءت قرارات التحديد والتحرير الصادرة زمن الانتداب الفرنسي عام 1926 لتنظيم عمليات مسح الأراضي وقيد الحقوق العينية ولإيجاد سوق اقتصادية مالية وتسهيل إنشاء البنك العقاري. وشابت هذه العمليات بعض الأخطاء فجاءت الأسباب الموجبة للقرارات 44و45و46 عام 1932 تشير إلى ذلك (...) وإذا كان (خطأ) التساهل بقدر يسير فلا قيمة له. أما في ما يتعلق بالموقع والحدود. فيعتبر التقريب كافياً دوماً.

"اتفق الحلفاء في ما عرف باتفاق سايكس - بيكو عام 1916 على إسقاط الدولة العثمانية وتقاسم أراضيها. ووضعت من أجل ذلك خرائط وحدود فاصلة على الورق اختلفت عما هي على الطبيعة. دون أن تتضح جغرافية الخط الفاصل بين فلسطين حيث السيطرة الانكليزية. ولبنان وسورية حيث السيطرة الفرنسية.

في 1920. تألفت لجنة فرنسية - انكليزية لترسيم الحدود أنجزت تقريرها في بيروت في شباط 1923 وصدّق عليه في 7 آذار 1923 واصبح يُعرف باتفاق نيوكومب - بوليه. وقد روعيت فيه أماكن المستوطنات الصهيونية ولم تكف الحركة الصهيونية عن محاولات تعديل الحدود باستمرار. رغم مصادقة عصبة الأمم عام 1934 على اتفاق الحدود بين فرنسا وانكلترا (نقلاً عن عصام خليفة. "لبنان المياه الحدود". ص **63**و**67**و**81**).



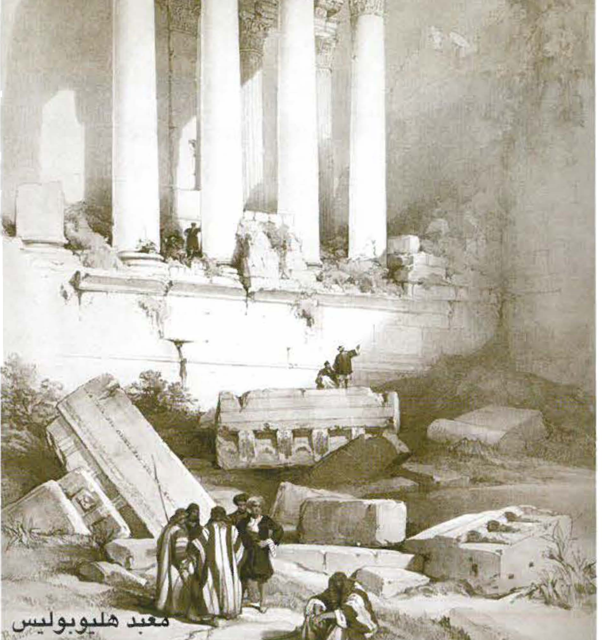
"تمّ، وفقاً لاتفاق نيوكومب - بوليه وضع 39 علامة مرقّمة ميدانياً للحدود اللبنانية الفلسطينية. وتمّ الترسيم باللون الأحمر على الخرائط المرفقة بالاتفاق والموقّعة من أعضاء اللجنة. ثم جرى عام 1949 مسح الحدود الإسرائيلية اللبنانية من جانب لجنة الهدنة بحيث أقيمت علامات جديدة واستكملت العلامات القديمة (يراجع نص الاتفاقية بالانكليزية والفرنسية في: عصام خليفة، "لبنان في مواجهة مفاوضات التسوية").

"لقد رسمت الأمم المتحدة أخيراً (آب 2000، أي بعد عمل استمرّ نحو ثلاثة أشهر وبدأ بعيد إخراج إسرائيل من الجنوب) خطاً سُمّي الخط الأزرق وهو خط الانسحاب الاسرائيلي دون الأخذ بالاعتبار الحدود الدولية التي هي بالنسبة إلى لبنان خطاً أحمر لوّنه لبنان بدماء أبنائه...".

المساحة

يقول د. مسعود ضاهر في كتابه "تاريخ لبنان الاجتماعي"، (ص 51) إن مساحة لبنان بلغت، وفق قرار الجنرال غورو بإعلان دولة لبنان الكبير (في الأول من أيلول 12/1920 ألف كلم^2 تقريباً قبل خسارة منطقة الحولة التي قلّصت مساحة لبنان إلى 10400 كلم^2. وحتى هذه المساحة الأخيرة يتحفّظ عليها د. ضاهر "لغياب الإحصاءات الدقيقة عن المساحات التي

بعلبك القديمة

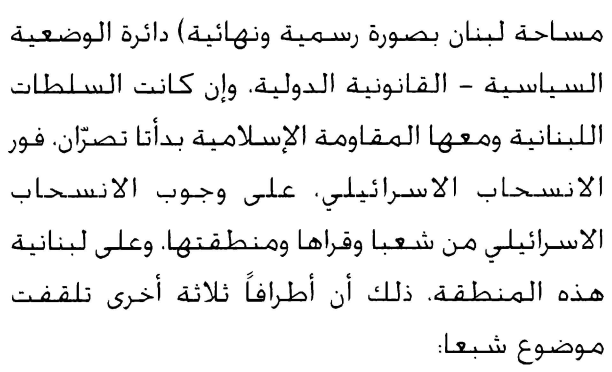


معبد هليوبوليس

اغتصبها الصهاينة من سهل الحولة بموجب الاتفاق الفرنسي - الإنكليزي على توسيع حدود فلسطين شمالاً". وتمّ ترسيم الحدود في العام 1923 وفق هذا الاتفاق.

وعكفت الكتب المدرسية، منذ الاستقلال، ومعها وسائل الإعلام، على ذكر هذه المساحة (10400كلم^2). ومنذ 1982، زاد عليها المرشح الرئاسي بشير الجميّل 52 كلم^2 متخذاً من مساحة الـ 10452 كلم^2 شعاراً أساسياً في معركته الرئاسية. ومع زوال الاحتلال الاسرائيلي في الجنوب (أيار 2000)، وبقاء احتلاله لمنطقة شبعا، دخلت مسألة تحديد الحدود الجنوبية (ومعها تعيين

شاطىء مدينة صور القديم



مساحة لبنان بصورة رسمية ونهائية) دائرة الوضعية السياسية - القانونية الدولية. وإن كانت السلطات اللبنانية ومعها المقاومة الإسلامية بدأتا تصرّان، فور الانسحاب الاسرائيلي، على وجوب الانسحاب الاسرائيلي من شعبا وقراها ومنطقتها. وعلى لبنانية هذه المنطقة. ذلك أن أطرافاً ثلاثة أخرى تلقفت موضوع شبعا:

سورية بدعم سياسي لمطلب السلطة اللبنانية والمقاومة الإسلامية، اسرائيل باعتبار شبعا تابعة لهضبة الجولان. والأمم المتحدة بالبحث عن قانونية المسألة.

يبلغ طول حدود لبنان البرية حوالى 350 كلم. منها 280 كلم مع سورية و70 كلم مع فلسطين. أما الواجهة البحرية فيبلغ طولها حوالى 210 كلم مستقيمة، وحوالى 256 كلم متعرجة.



قوس النصر - مدينة صور

شاطىء مدينة صيدا القديمة

مدينة صيدا القديمة

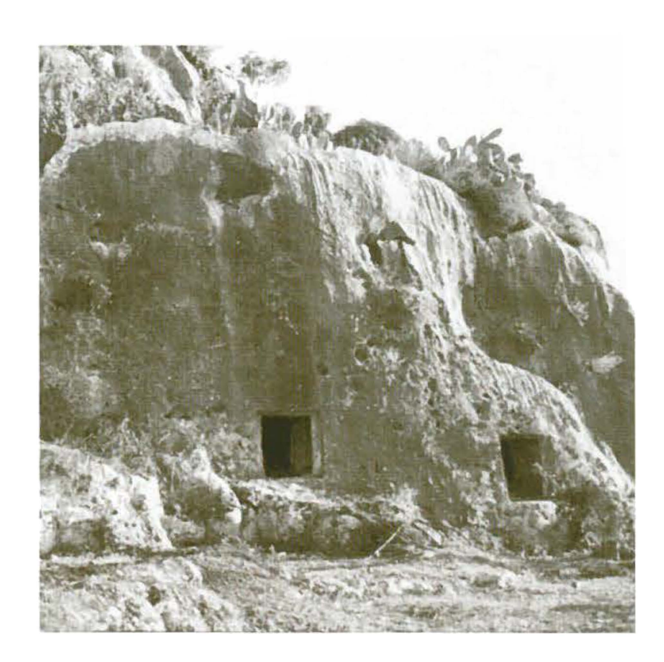
لبنان القديم

تاريخ لبنان القديم والوسيط والحديث، نذكره لماماً وكعناوين لأهم أحداثه، التي يرد بعضها أيضاً في الباب الأخير "مدن ومعالم". وليكون بمثابة مقدمة تؤمن تواصلاً تاريخياً للجزء الأهم من هذا العمل الذي يندرج تحت عنوان "لبنان المعاصر، مشهد تاريخي وسياسي عام"، المتضمن مختلف الأبواب والفصول من الانتداب حتى سير الزعماء والشخصيات السياسية مروراً بالأحزاب والتجمّعات والجنوب... أي فترة تمتد ثمانين سنة، من إعلان دولة لبنان الكبير حتى العام 2001.

لبنان القديم

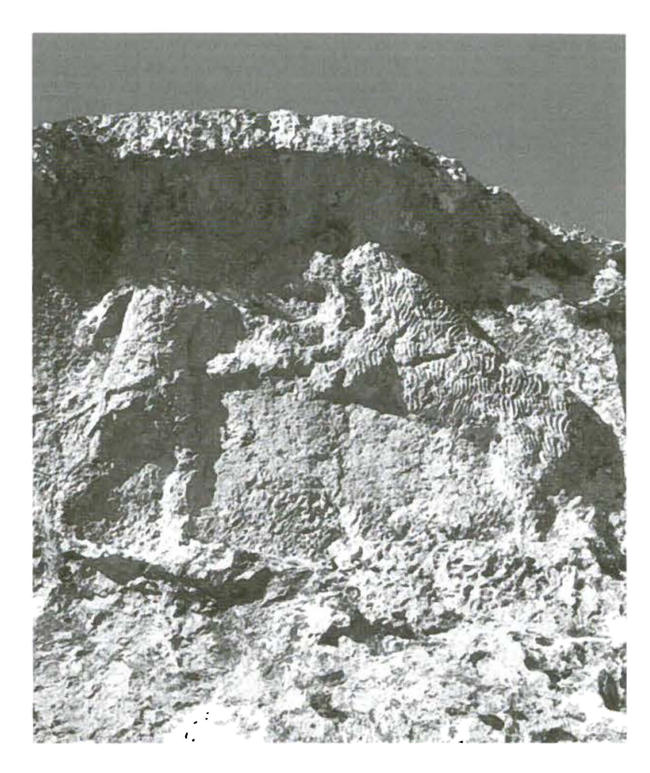
مرحلة ما قبل الكنعانيين "الفينيقيين"

تشير الآثار الأركيولوجية (أدوات حجرية) في هذه المنطقة، التي تلتقي عندها القارات الثلاث والتي دعاها بعض علماء الأركيولوجيا "معهد الإنسان العاقل"، إلى أنها كانت منطقة مأهولة باستمرار منذ أن وجد الإنسان ليتوطن الأرض. ويرجع عهد هذه الأدوات الحجرية الصوانية إلى نحو 200 ألف سنة. وأول من عثر عليها عالم الحفريات زوموفن Zumoffen في مستهل القرن العشرين في مغاور عدلون (في منتصف الطريق بين صيدا وصور) وفي مغاور أنطلياس ونهر الكلب ونهر ابراهيم.



مغارة عدلون

ومن أهم البقايا الأركيولوجية هيكل عظمي بشري لطفل عمره 8 سنوات وُجد في قلب صخر في كهف "كسار عقيل" في انطلياس واكتُشف العام 1938، وعاش منذ 25-30 ألف سنة. وقد وُجد أيضاً في مغاور انطلياس عظام حيوانات، مثل الغزال والضبع والثعلب والبقرة والماعز. وهناك أدلة تشير إلى أن وادي انطلياس، حيث ينساب نهر انطلياس، ظل وادياً مأهولاً منذ ذلك الزمن البعيد حتى يومنا هذا. أما أقدم هيكل عظمي اكتُشف على الأرض اللبنانية (حتى اليوم) فقد



ادونيس والخنزير البري على صخور بلدة الغينة
(فتوح - كسروان)

اكتُشف في وادي نهر ابراهيم ويعود تاريخه إلى نحو 84 ألف سنة.

وفي آخر مراحل التطور في العصور الحجرية الثلاث (القديم والوسيط والحديث)، أي في أواخر العصر الحجري الحديث، كانت الزراعة وكان البيت، فكانت القرية. والاعتقاد الغالب أن أقدم قرية في لبنان هي جبيل، وفي فلسطين أريحا.

في البيت، وفي القرية كان الهدوء، ونما التفكّر وتطورت التصورات الدينية حول فكرتين: "فكرة وجود آلهة تقرن بالأرض أو بالقبيلة، وفكرة مبهمة عن حياة ثانية بعد الموت" (فيليب حتي، ص64). فعبادة إلهة الخصب - الأرض - الأم أكثر العبادات التي نشأ حولها من أساطير، بلغت الذروة في عبادة أدونيس وعشتروت مع الفينيقيين.

ومع التصوّر نما الفن ونمت الصناعة. والخزف أولى



عشتروت تشهد صراع ادونيس مع الخنزير البري

المصنوعات المكتشفة في جبيل وصيدا، وبناءً على نماذجها، التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، يتضح أنها مقتبسة من صناعة خزفية أقدم منها في فلسطين وسورية.

الفترة الواقعة بين 4000 -3000 ق.م. تُعرف بالعصر النحاسي. وآثاره كثيرة في أوغاريت وجبيل وأماكن في فلسطين. وثمة اكتشاف لهيكل عظمي بشري يعود إلى عصر الانتقال من الحجري إلى النحاسي وقد وُجد في جرة خزفية في جبيل ويعود تاريخه إلى 3500ق.م.

وتلا النحاس استخدام البرونز. وكثيرة هي معروضات الدبابيس البرونزية ذات الثقوب في الوسط في متاحف

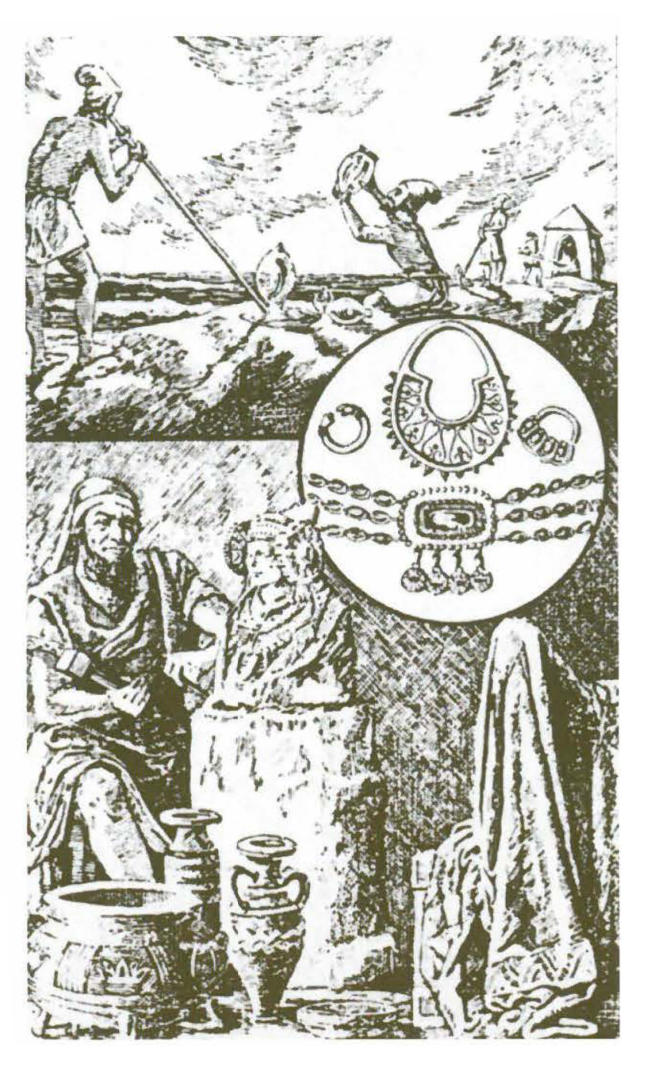

غابة الارز القديمة

ومعارض لبنان وسورية، وتعود إلى 3000 -2500ق.م. واستمر عصر البرونز إلى حوالى 1200ق. عندما أخذ الحديد يحتل محله في الصناعة. واستمر عهد الحديد والمعادن إلى مطلع التاريخ المعاصر، أي إلى زمن اكتشاف الكهرباء ثم الطاقة الذرية.

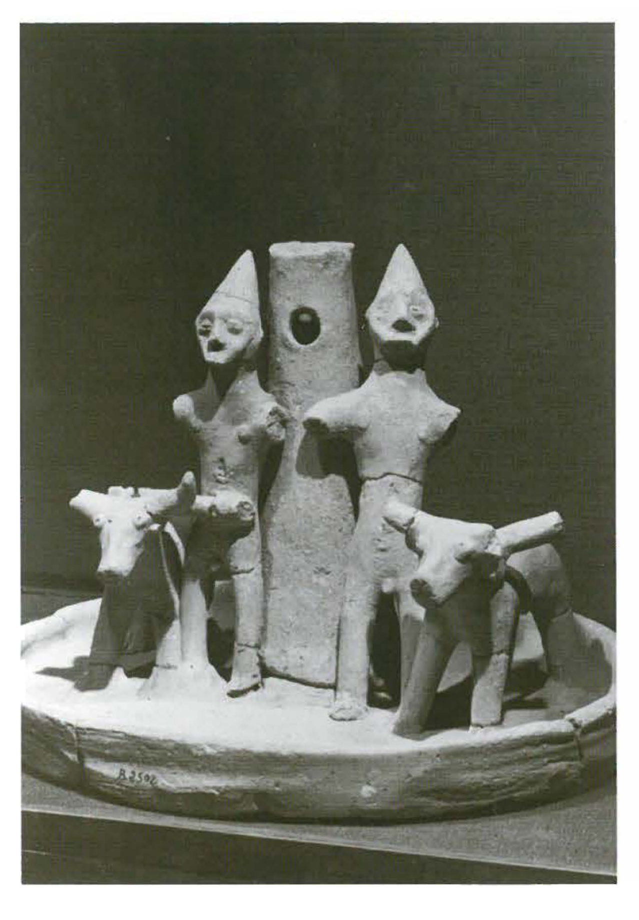
ما هو مؤكد، اعتماداً على الدراسات ، أن المرحلة السابقة على الكنعانيين - الفينيقيين، أي المرحلة السابقة على حوالى العام 3000 ق.م. والبادئة بالتاريخ المدوّن، أي البادئة بصناعة الخزف والنحاس... هذه المرحلة، قبل الفينيقية والمدوّنة، في لبنان كانت جبيل مركزها وعصب حياتها (الاعتقاد الغالب أنها قامت حوالى العام 5000ق.م.) ولا أحد، حتى الآن، يعرف التعبير الذي كان يستعمله سكان لبنان الأصليون، السابقون على الفينيقيين، في عصر أوائل التاريخ المدوّن لتعريف بلدهم. "فهناك نصوص مصرية قديمة تشير إلى أن سكان وادي النيل، الحامي العرق واللغة، كانوا يدعون منطقة جبيل اللبنانية (بيبلوس في ما بعد) باسم "نيغا" وجبيل ذاتها باسم "كيبين"

مرفأ جبيل

صور



الصناعة عند الفينيقيين



ادوات خزفية فينيقية

أو "كبين" كما أن لغة لبنانيي ذلك العصر مجهولة منا أيضاً. لكن من المحتمل جداً أن تكون السامية قد انتشرت في البلاد بشكل واسع حوالى هذا الزمن (...) ويستدل من الحفريات أنه، منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ، كانت هناك علاقات اقتصادية ودينية تجمع ما بين جبيل ومصر. ومن جبيل التي أمراؤها يستغلون غابات لبنان ويصدرون الخشب، كانت مصر المفتقرة إلى أخشاب التجارة وأخشاب سقوف البيوت وسواري المراكب وغيرها، تستورد ما تحتاجه منها. وكان المصريون يستوردون المعادن أيضاً من جبيل، التي كانت بدورها تستوردها من البلدان الآسيوية المجاورة ذات المراكز المنجمية. وهكذا أصبحت جبيل، منذ الألف الرابع، مركزاً نشيطاً للتبادل التجاري والثقافي ما بين مصر وقبرص وبلاد ما بين النهرين وبلدان الشرق الأدنى الأخرى. ومنذ الأسرة المصرية الأولى (3315-3100ق.م.)، وجبيل تصدّر آنية الفخار التي ربما كانت تحتوي على الزيت. وكانت أخشاب جبالها والصموغ والقطران تأخذ طريقها إلى وداي النيل (...) وآلهة جبيل كانت مكرمة عند أتقياء المصريين..." (جواد بولس، "لبنان والبلدان المجاورة"، بيروت، ط2، ص 42-43).

كنعانيو لبنان أو الفينيقيون

رأي المؤرخين والأركيولوجيين الغالب أن هؤلاء

الكنعانيين كانوا يخرجون من البادية السورية - العربية في موجات هجرة، أعظمها شأناً حصل حوالى 3000 - 2900 ق.م. حتى أنها طغت، عدداً وقوة، على السكان الأصليين ودمغت البلاد بها إسماً وحضارة.

فالغزاة الجدد هؤلاء باتوا يدعون كنعانيين في فلسطين (حتى جاءت غزوة الفلسطو من بحر إيجه فاتخذت البلاد إسم فلسطين)، وكنعانيين - فينيقيين في لبنان، وآموريين في سورية، وآكاديين في بلاد ما بين النهرين. وكانوا جميعاً شعوباً سامية حملتها موجة مد سامي واحدة. فكنعانيو لبنان أصبحوا تجّاراً وبحّارة، في حين أن كنعانيي فلسطين وكنعانيي سورية (الأموريين) وكنعانيي بلاد الرافدين (الأكاديين، البابليين في ما بعد) راحوا يتعاطون بصورة خاصة الزراعة والتجارة البرية. ومن حيث اللغة واللهجات، فنجد أن بلدان "الهلال الخصيب" أخذ يسودها العنصر السامي، واللهجات من فينيقية وأمورية وعبرية وآشورية وبابلية... فقد خلفتها في الألف الأول ق.م. اللغة السامية الآرامية التي اضمحلت في الألف الأول بعد الميلاد أمام اللغة العربية السامية.

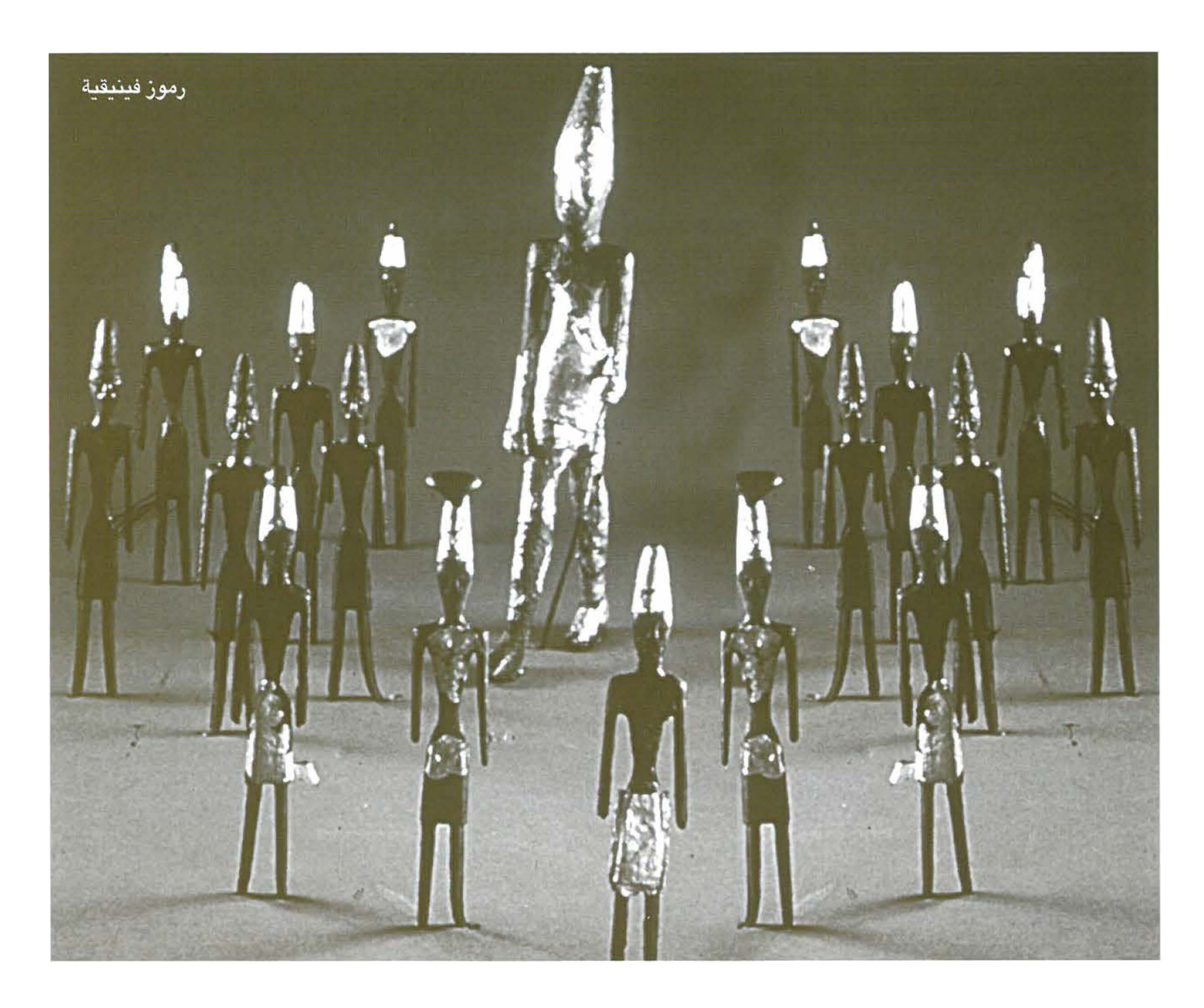
أما إسم "فينيقيا Nike Phoi" على البلاد، و"فينيقيون" Phoinikes على السكان، فالمجمع عليه أنه من صنيعة اليونانيين بدءاً من القرن العاشر ق.م. وكان ثمة شبه إجماع أن الإسم هذا اشتقّ من كلمة Phoinix اليونانية، وتعني "أرجواني" مما يذكّر بتجارة الفينيقيين بصبغة الأرجوان المعروفة والمستخرجة من صفد بحري اكتشفه الفينيقيون على شواطئ مدنهم. ولكن هذا الاعتبار بدأ، منذ فترة وجيزة، يفقد الإجماع عليه. فيشير علي الشوك (باحث عراقي مقيم في لندن) إلى أن "هذه العلاقة بين إسم فينيقيا وهذا الجذر اليوناني فقدت قوتها بعد أن فك العالم البريطاني فنتريس رموز أقدم كتابة مقطعية يونانية وأشار إلى أن مادة Ke-ni-po (هكذا كانت تلفظ في نصوص هذه الكتابة) "قد تكون مستعارة" أي ليست يونانية. فكان من شأن هذه الشهادة أن توجه الأنظار إلى لغة أو لغات أخرى غير اليونانية، وعلى وجه الخصوص الفينيقية نفسها. ومن بين من قام بمثل هذه المحاولة الباحث اللغوي مايكل أستور الذي توصّل إلى أن هذه التسمية ترجع إلى مادة "فوّة" السامية، وهي في المعاجم العربية: نبتة صبغية، كانت معروفة في سورية وفلسطين ومصر. وكانت أحد أهم مصادر الصبغة الحمراء والقرمزية في الماضي، وهي باللغة الأوغاريتية الكنعانية "ف.و.ت." وتعني نسيج مصبوغ بمادة الفوّة" (**"الحياة"، 11 كانون الثاني 1996، ص 21**).

حضارة الفينيقيين

سياسياً

حتى القرن الثاني عشر ق.م. تقاسمت قوتان فينيقيا من ضمن تقاسمهما شرقي المتوسط بكامله: المصريون في الجنوب وشعوب بلاد ما بين النهرين في الشرق والشمال: من وثائق هذه المرحلة معركة مجدو (1479 ق.م.)، ورسائل ملك جبيل "رب عدي" إلى فراعنة مصر والمعروفة برسائل "تل العمارنة"، وحملات رعمسيس الثاني لمحاربة الحثيين ووصوله إلى قادش والنقش التذكاري لحملته على صخور نهر الكلب.

ونعم الفينيقيون بالاستقلال نحو 300 سنة، أي بين 1200 - 900 ق.م. مستغلين تراجع النفوذ المصري من الجنوب بسبب غزوة قبائل الفلسطو وانتشارهم على الساحل الفلسطيني، وضعف الحثيين أمام نهوض الأشوريين من الشمال والشرق. فوّطد الفينيقيون استقلالهم، وبلغت حضارتهم، في هذه


رموز فينيقية

الفترة، ذروة التقدم: ازدهار اقتصادي وتوسّع خارجي وتأسيس المستعمرات والقيام بالرحلات البحرية.

لكن، ابتداءً من القرن التاسع ق.م. عادت المدن الفينيقية لتواجه الأطماع الخارجية: الآشوريون ثم الكلدانيون من بلاد ما بين النهرين. فكان تمرّد أبناء صيدا في وجه أسرحدون، وكانت حركة صور ضد أشور بانيبال، كما قامت صور وتزعمت، بدعم من مصر، الثورة ضد الكلدانيين. فحاصرها نبوخذنصّر الثاني مدة 13 سنة وامتنعت عليه. كما سيطر الفرس، في أواخر القرن السادس ق.م. على شواطئ المتوسط واحتلوا المدن الفينيقية. وكان الفينيقيون عوناً لهم ضد اليونان. وازدهرت تجارتهم، إلى أن جنح ملوك الفرس إلى الاستبداد. فثار الفينيقيون، وتزعّمت صيدا ثورتهم، فحاصرها أرتحشتا الثالث. فأحرقت المدينة نفسها حتى لا تقع بيد عدوها. ومع بروز الاسكندر المقدوني وقضائه على دولة الفرس قامت معه مرحلة حضارية جديدة جاءت مزيجاً من الفكرين والنمطين: الشرقي والإغريقي، وعرفت بالعهد الهلليني.

قبل عهد الاستقلال، وخلاله، وبعده تجمّع الفينيقيون، بأكثريتهم، في نحو 25 مدينة، أهمها أربع: أرواد، جبيل، صيدون (صيدا) وصور. وهذه المدن، وبخاصة الأربع الأساسية المذكورة، شكلت "مدن -

الملاحة عند الفينيقيين

دول " أو ممالك، متنافسة أحياناً ومختلفة، ومتحالفة في أحيان أخرى، ومتوحّدة بزعامة المدينة – الدولة الأقوى. ونظام المدينة – الدولة الفينيقية تطوّر من النظام الملكي الوراثي المستمدّ سلطته من اللّه وغير المستبد، إذ يجب أن تقترن قراراته بموافقة مجلس الشيوخ (من الأعيان والأشراف)، وبموازاته كان مجلس الشعب الذي يمثّل العامة، إلى النظام الجمهوري الذي عرفته المدن الفينيقية في مرحلة من تاريخها، والذي لم ينتج عن ثورة أو اغتصاب سلطة بل جاء نتيجة لأوضاع سياسية معينة كانقراض الأسرة المالكة مثلاً. وقد بدأ النظام الجمهوري في صور، وفي قرطاجة منذ تأسيسها. وكانت ركائز هذا النظام تقوم على "الشفاتيم". أي قيام حاكمين على المدينة أحدهما للإدارة والآخر للعدالة، يختارهما



مجلس الشيوخ لمدة سنة أو سنتين ويوافق على اختيارهما مجلس الشعب. والحكمة في نظام


نهر إبراهيم

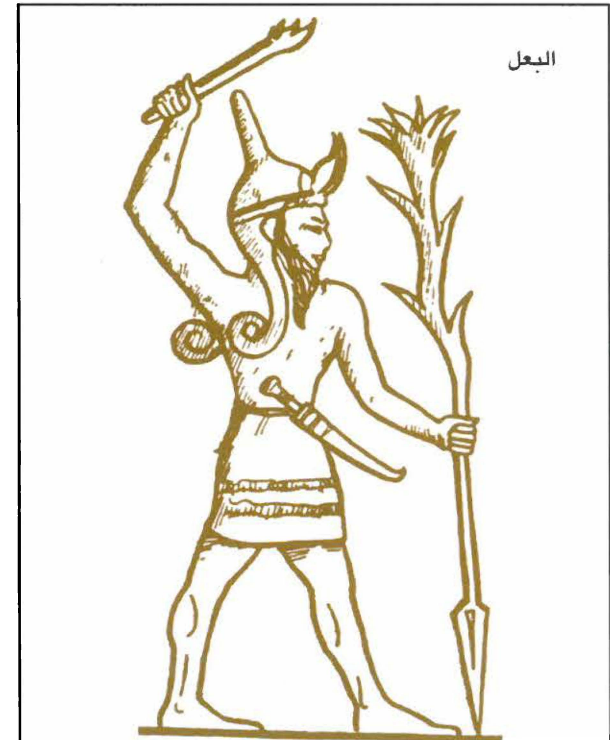
"الشفاتيم" هو الحؤول دون أن يستبدّ شخص واحد بالحكم.

إقتصادياً

في الزراعة، اقتبس الفينيقيون المحراث الخشبي عن بلاد ما بين النهرين، وطوّروه فصنعوا محراثاً يبذر الحبوب بصورة آلية، وصنعوا المعول والمنجل من البرونز والحديد. استخدموا النورج والمذراة لفصل الحبوب عن القش. واستخدموا الجاروشة لطحن الحبوب، وصنعوا الخوابي لحفظ السوائل. كما صنعوا معاصر للزيت والخمر والدبس. واهتموا بالدراسات العلمية لتطوير أساليب الزراعة وألّفوا الكتب في فن الزراعة وأبرزها مؤلفات هملقار وماغون التي تُرجمت إلى اللاتينية وطبّقت في الامبراطورية الرومانية. ومن أهم مزروعاتهم الحبوب وخاصة القمح والشعير، والأشجار المثمرة كالكرمة والزيتون والتفاح واللوز والرمان. كما أنهم استفادوا من الغابات وتاجروا بأخشابها.

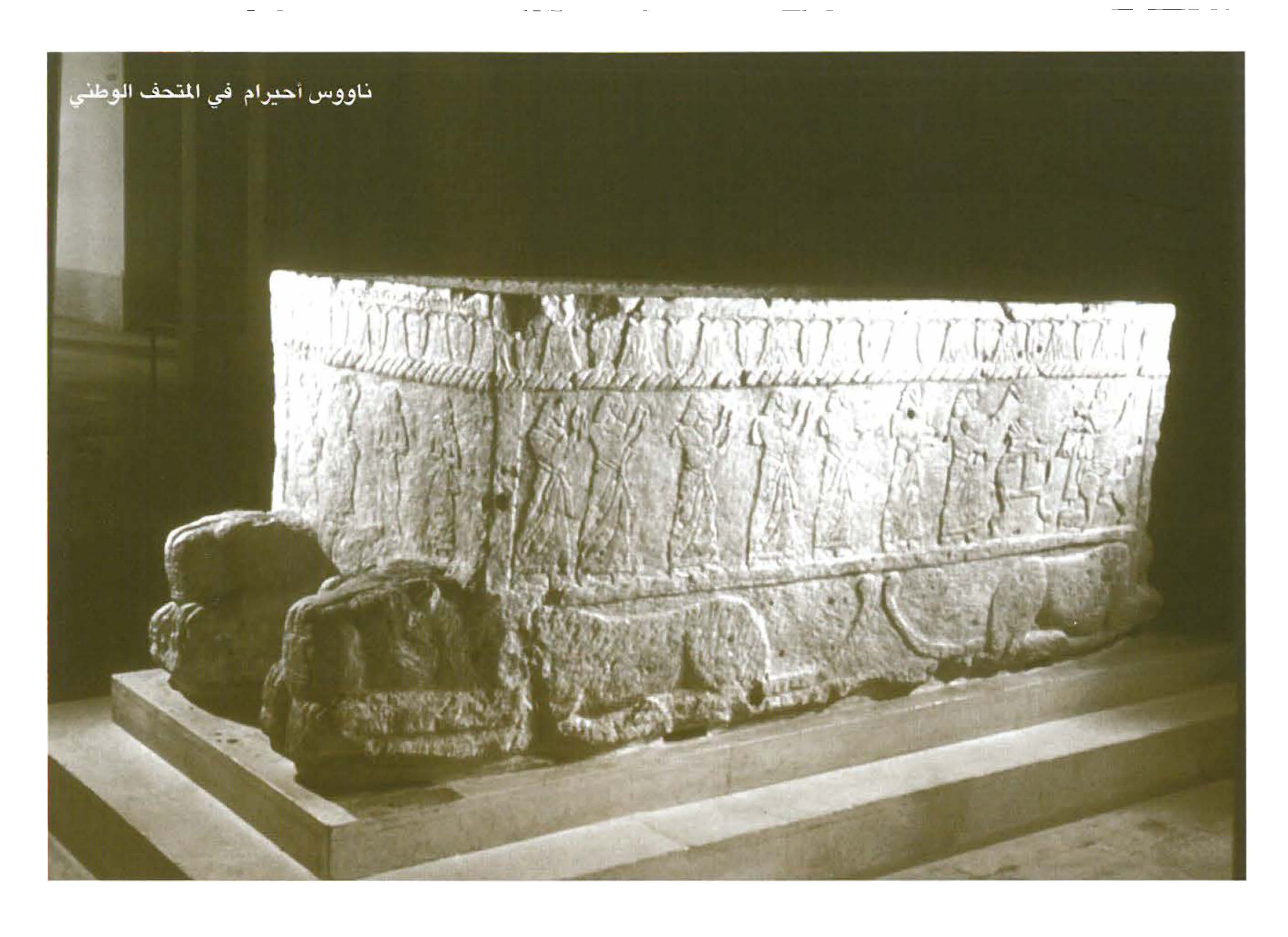
في الصناعة لم يكتف الفينيقيون باقتباس الصناعات عن بعض جيرانهم، إنما حسّنوها وأنتجوا منها بكثرة، ونظموا العمل الصناعي فأنشأوا الأحياء الخاصة بالعمّال ونظموا لكل صنعة نقابة تدافع عن أصحابها. فراجت مصنوعاتهم لدرجة أن المدن اليونانية كانت في حفلاتها تقدم الجوائز من مصنوعات فينيقية. ومن الصناعات الفينيقية الفخار، المعادن (النحاس والبرونز) التي استوردوا منها الذهب والفضة والنحاس، والحديد. واكتشفوا الفولاذ

الأبجدية الفينيقية


البعل

وبرعوا في مزج المعادن، والزجاج الذي اقتبسوا صناعته عن المصريين فحسّنوها وصنعوا الزجاج الشفاف، والنسيج، والأرجوان، والسفن. فأصابوا في صناعة السفن شهرة عالمية، فتعلم منهم اليونان واستعان بهم ملوك مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وفارس.

في التجارة والملاحة، سلكت قوافل الفينيقيين عدة طرق ساحلية وداخلية. فالطرق الساحلية أوصلتهم شمالاً إلى آسيا الصغرى (اليونان) وأرمينيا وسواحل البحر الأسود وجنوباً إلى سيناء ومصر والجزيرة العربية. أما الطرق الداخلية فقد اتجهت شرقاً إلى بلاد ما بين النهرين وإيران والهند، وقد استهوتهم تجارة الهند فذهبوا إليها عن طريق البر كما ذهبوا إليها عن طريق البحر. فطافوا المتوسط الشرقي والبحر الأسود


ناووس أحيرام في المتحف الوطني

والمتوسط الغربي وعبروا مضيق جبل طارق باتجاه الأطلسي ودارت مراكبهم حول القارة الأفريقية وصولاً إلى المحيط الهندي. وقد وجدت في القارة الأميركية كتابات فينيقية أكد صحتها علماء الآثار. كما نقلت الصحف (آب 2000) أن عالم الآثار "فال أوسبورن" اكتشف آثاراً فينيقية على شواطئ كينسلاند الأوسترالية هي عبارة عن مقبرة ومعبد وحائط مرفأ وأحجار منحوتة وأشكال هندسية معدنية. وقال أوسبورن في مقابلة تلفزيونية معه في أوستراليا **(الأسبوع الأول من آب 2000)** إنه تلقى اتصالات من خمسة أشخاص يؤكّدون امتلاكهم لحجارة منحوتة وأشكال هندسية مشابهة، مؤكداً أن هذه الآثار فينيقية وأن التنقيب عنها استمر مدة أربعين عاماً وأنه بعد التدقيق فيها لا يمكن أن تكون مصرية أو يونانية أو هولندية أو فرنسية.

وكانت رحلات الفينيقيين التجارية تستغرق أحياناً سنوات. وكانوا يصدّرون من بلادهم الأخشاب والخمور والصموغ والزيوت والمنسوجات، ويستوردون المعادن كالذهب والفضة والقصدير والنحاس والورق والقطن والعاج. ولم تكن مستورداتهم لاستهلاكهم فقط، إنما لإعادة تصديرها إلى الشعوب كافة التي تاجروا معها، فكانوا بذلك صلة وصل بين شعوب عصرهم.

وقد لُقّب الفينيقيون بـ"شعب البحر". فعظمتهم قامت على البحر. ووصفهم هوميروس بـ"أفضل بحّارة العالم". وكانوا، أنّى توجّهوا، يبنون وينشئون محطات تجارية ومستوطنات تحوّل بعضها الى مدن عظيمة الشأن كقرطاجة التي بناها الفينيقيون الصوريون.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الفينيقيين لم

يعتمدوا، في توسّعهم وانتشارهم، على القوة العسكرية بل على المرونة السياسية وعلى المصالح الاقتصادية. فاحترموا الشعوب التي تعاملوا معهم واحترمتهم في أكثر الأحيان.

دينياً وفكرياً وأدباً وعلماً وفناً

الأساس في الدين الكنعاني كان تأليه قوى الخصب والإنتاج. أضف اقتباسات الفينيقيين عن جيرانهم البابليين والمصريين من جهة، وتأثيرهم هم في ديانات العبرانيين والمصريين واليونان... وعبد الفينيقيون آلهة متعددة ترمز إلى قدرة السماء والأرض وقوى الطبيعة. أشهر آلهتهم: إيل (خالق الكون والداعي إلى الخير والمحبة)، عليّان (إله المطر)، أدون (معناه السيد "أدونيس" ويمثّل الخصب)، أشمون (شفيع الصحة والطب)، ملكارت (إله الشمس والبحر)، رَشَفٌ (إله النار والنور)، وألهات أنثويات أشهرهن عشتروت التي ارتبط اسمها بأكثر آلهتهم شعبية أدون أو أدونيس. واهتمّ الفينيقيون بالأعياد، فكانوا يحجون إلى المعابد البعيدة عن المدن كمعبد أدونيس في أفقا. واعتقدوا بوجوب تقديم القرابين والأضاحي للإله ليشمل الإنسان بعطفه ويبعد عنه الشر والنكبات. ورغم اعتقادهم أن الثواب والعقاب يترجمان على الأرض (بالصحة والثروة والبنين)، إلا أنهم اهتمّوا بتكريم موتاهم، وقد وجدت في بعض قبورهم سُرج وجرار وآنية للأكل والشرب، ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون بأن الميت يتمتع بعد موته بنوع من العيش يشبه عيشه على الأرض. ولم يكن التحنيط شائعاً عندهم غير أن الأثر المصري يبدو واضحاً من خلال تحنيط بعض ملوكهم.

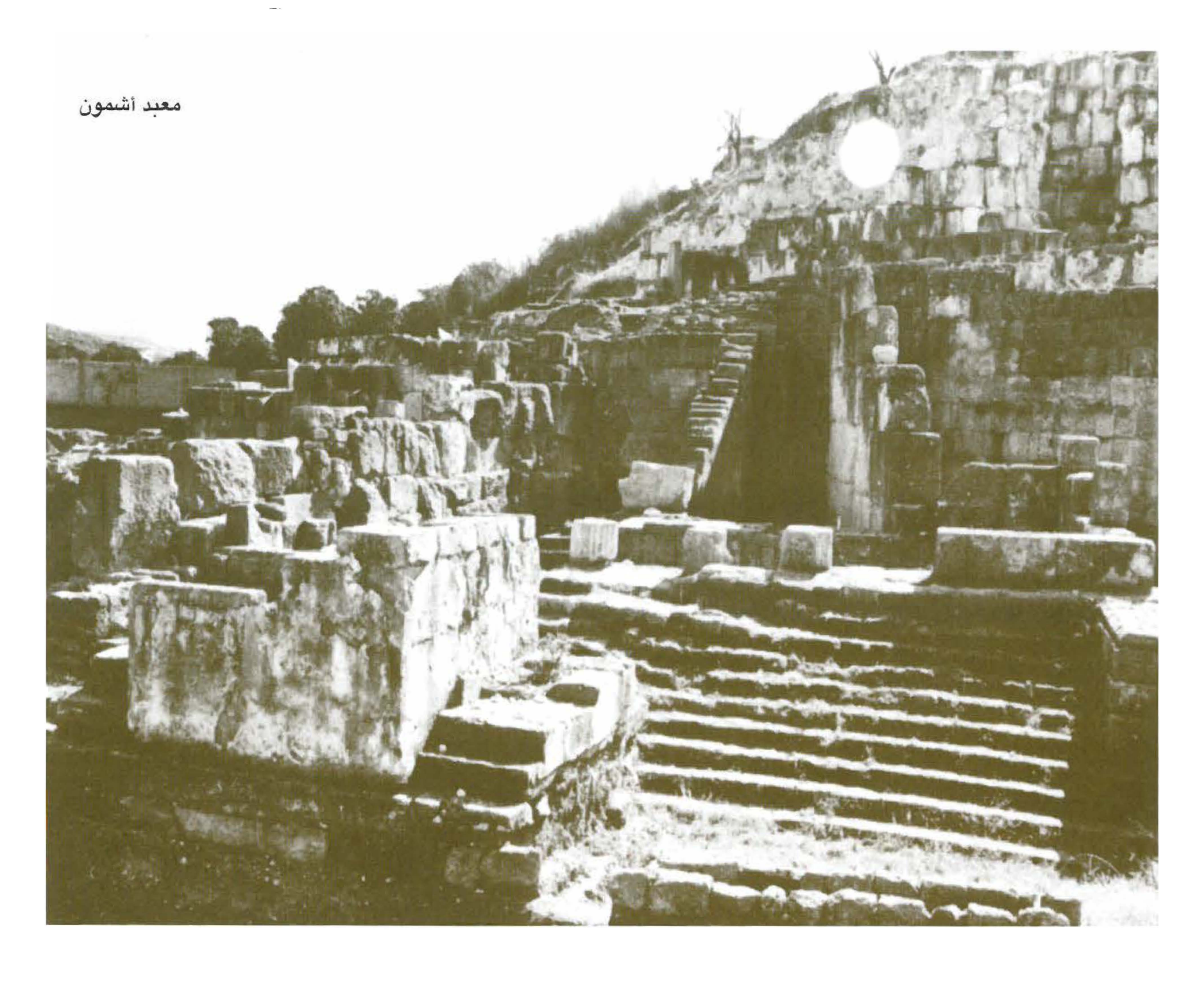
ولا شك أن أعظم مساهمة قدّمها الفينيقيون على الصعيد الفكري والثقافي والحضاري العالمي كانت



ناووس أحيرام - جبيل

اكتشافهم الحرف ونشره في أرجاء العالم القديم فأصبح أساساً لمعظم أبجديات العالم. فنتيجة لحاجتهم إلى تدوين أفكارهم وحفظها من الضياع، سعوا إلى اعتماد طريقة للكتابة، وبفضل تجارتهم اتصلوا بحضارات العالم القديم ووقفوا على طرق الكتابة عند المصريين وعند شعوب بلاد ما بين النهرين. فنقلوا هذه الطرق وكتبوا بها، كما في رسائل تل العمارنة مثلاً التي كتبت بالخط المسماري الأكادي.

ووجد الفينيقيون أن الكتابة الهيروغليفية هي كتابة


معبد أشمون

تصويرية معقدة. فسعوا إلى تبسيط الكتابة واستلزم الأمر جهداً كبيراً دفعهم إلى الاطلاع على المراحل التي مرّت بها الكتابة في تصوير وتجزئة الكلمة إلى مقاطع واختزال الصورة. وتابعوا تحليل اللغة وتجزئة الكلمات حتى اكتشفوا أن اللغة تستعمل 22 نبرة صوتية (مخرجاً صوتياً) فوضعوا لها صوراً مبسطة (رموزاً) وجعلوا منها وسيلة وحيدة للكتابة. وهكذا تمّ اكتشاف الأبجدية.

وظل العالم، حتى القرن التاسع عشر ميلادي، لا يعرف أن اكتشاف الأبجدية يرجع إلى الفينيقيين إلا من أقوال اليونان. فقد ذكر المؤرّخ هيرودتس بأن الفينيقيين اكتشفوا الأبجدية ونقلها قدموس إلى بلاد اليونان. ثم أثبتت الحفريات هذا القول سنة 1923حيث اكتشف ناووس الملك أحيرام في جبيل وعليه نص متكامل للأبجدية. والناووس موجود في المتحف الوطني في بيروت. "والنقوش التي وجدت في أوغاريت عام 1929، وما بعده، والمكتوبة على آجرّات، جميعها خُطت بهذا النوع من الكتابة، ويعود تاريخها إلى أوائل القرن الرابع عشر ق.م. وبعضها يعود إلى أقدم من هذا التاريخ. وقد عُثر عام 1949 في رأس شمرا على آجرة صغيرة كُتبت عليها الالفباء بكامل حروفها الإثنين والعشرين، مرتبة على ترتيب

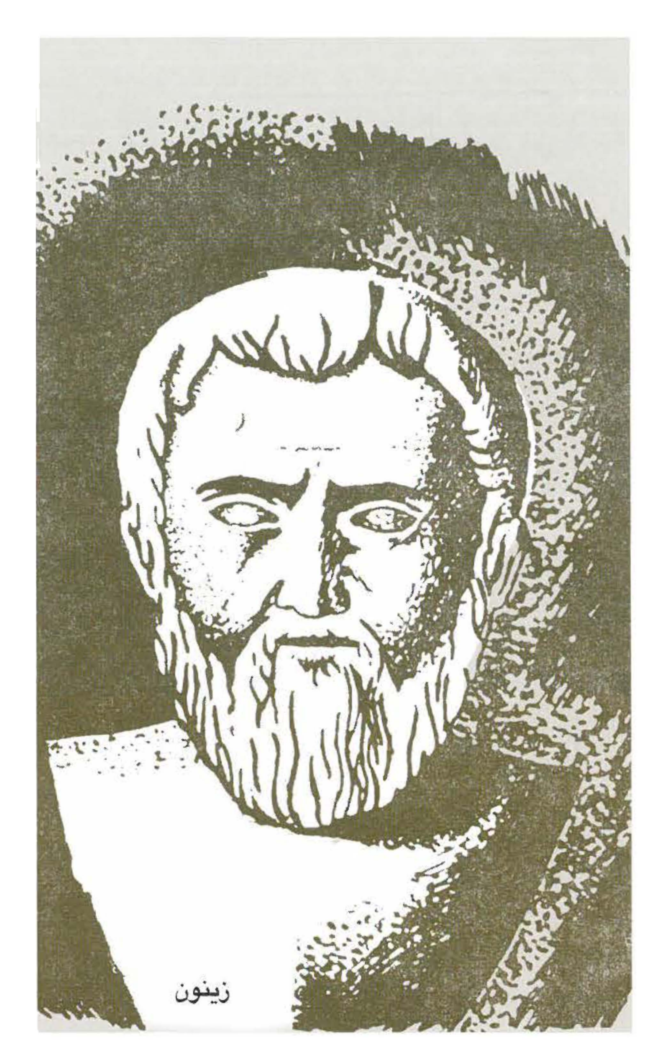

بقايا مهدمة من المعبد "الداخلي- أشمون

حروف الهجاء كما هي عند الآراميين والعبرانيين. أي ترتيب أبجد هوّز حطي... أما ترتيب حروف الهجاء العربية فقد طرأ عليها تعديل يجعله يختلف عن ترتيب حروف الهجاء التي اقتبس عنها. وفضلاً عن هذا، فإن العرب أضافوا الروادف وهي ث خ ذ ض ظ غ" (فيليب حتي، ص 152).

أما الأدب الفينيقي، فوصلنا منه، حتى الآن، القليل: كتابات الكاهن البيروتي، سنكن يتن، عرفناها بواسطة فيلون الجبيلي، وبعض مقاطع التوراة التي تشيد بالشعراء الفينيقيين. ومع اكتشاف رأس شمرا (أوغاريت) 1929، عثر المنقبون على ملاحم تناولت مواضيع مختلفة يدور أكثرها حول الأدب الديني والطقوس والزراعة. من أشهرها ملحمة البعل وعناة وتمثل الصراع بين إله الخصب "عليّان" وإله الموت "موت" وتؤكد انتصار الخير على الشر والنظام على الفوضى والحياة على الموت؛ وأسطورة كارت وأسطورة أقهات بن دانيال، وغيرها...

لم يهمل الفينيقيون الفلسفة، لكن لم يعثر منها لهم، حتى الآن، إلا ما كتبوه باليونانية، ما أوقع المؤرّخين في حيرة جعلت معظمهم يهمل هذه الناحية الفكرية عند الفينيقيين ويضع بعض أسماء فلاسفتهم التي اشتهرت في اليونان في خانة الفلسفة اليونانية؛ ومنهم موخوس الصيدوني، وفيتاغوروس، وطاليس، وديدوروس الصوري، وبخاصة





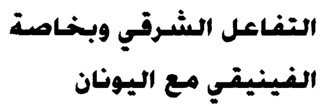
زينون مؤسس المدرسة الرواقية الذي ولد في قبرص ويُعرف عند معاصريه انه كان فينيقياً. وانتقل إلى أثينا وعلّم الفلسفة في بناية تعرف بـ"الرواق" فعرفت فلسفته بالرواقية. وألف عدة كتب أهمها "الجمهورية". وشدّد على الأخلاق والفضائل واعتبر أن الفضيلة الخير الأوحد والشر ضعفاً أو فساداً في الخلق. وأعجب به الأثينيون وكرّموه وقدّموا له في حياته تاجاً مذهباً وأقاموا له بعد مماته تمثالاً من البرونز وحفروا على ضريحه هذه العبارة: "ما كفاك فخراً أن فينيقية موطنك. ألم تنجب فينيقيا قدموس الذي جاء بلاد الإغريق ليعلم الناس الحرف".

في العلوم، برع الفينقيون، بسبب الملاحة، بالجغرافيا والفلك. فاهتدوا إلى النجم القطبي الذي أطلق عليه اليونان "النجم الفينيقي". وتوصّل مارينوس الصوري إلى وضع خطوط الطول والعرض. وفي الطب، شدّدوا على الوقاية الصحية، واكتشفوا بعض الأدوية من الأعشاب. واكتشفت هياكل عظمية تثبت أنهم تعاطوا طب الأسنان وأجروا عمليات جراحية في الجمجمة. وكان لهم إله للصحة هو الإله أشمون. وتفوّقوا في هندسة البناء. فاستعان بهم سليمان الحكيم لبناء هيكل أورشليم. وتفوّقوا أيضاً بحفر الأقنية وبناء الجسور وتصميم المدن وإقامة الساحات العامة وبناء المرافئ العسكرية والتجارية. وكان أهم فن برعوا فيه فن البناء سواء في البيوت أو في القصور

أو في المقابر والهياكل: هيكل ملقارت في صور، وهيكل عمريت في سورية، وهيكل أشمون في صيدا. كما برعوا في فن النحت والنقش على الحجر والرخام والمعدن والعاج. واعتنوا عناية كبيرة بالموسيقى والرقص. وانتشرت ألحانهم وأدواتهم الموسيقية في كل أرجاء المتوسط، فاقتبس عنهم المصريون والإغريق وبخاصة العبرانيون الذين أخذوا عنهم الآلات الموسيقية كالقيثارة والمزمار. وجعلوا من "بعل مرقد" إلهاً للرقص. وقد تأثّر العبرانيون بهذا الفن الفينيقي أيضاً. فالملك داود، عندما رقص أمام تابوت العهد، إنما قام برقصة كان الفينيقيون يرقصونها في طقوسهم الدينية التي تدور حول تأليه الخصب.

(إن أغلب ما جاء تحت عنوان "حضارة الفينيقيين" مقتبس عن المنهج الرسمي اللبناني في تعليم مادة التاريخ العلمي الحديث" التي وضعها د. وهيب أبي فاضل وآخرون وفقاً لهذا المنهج).

العصر الهلليني

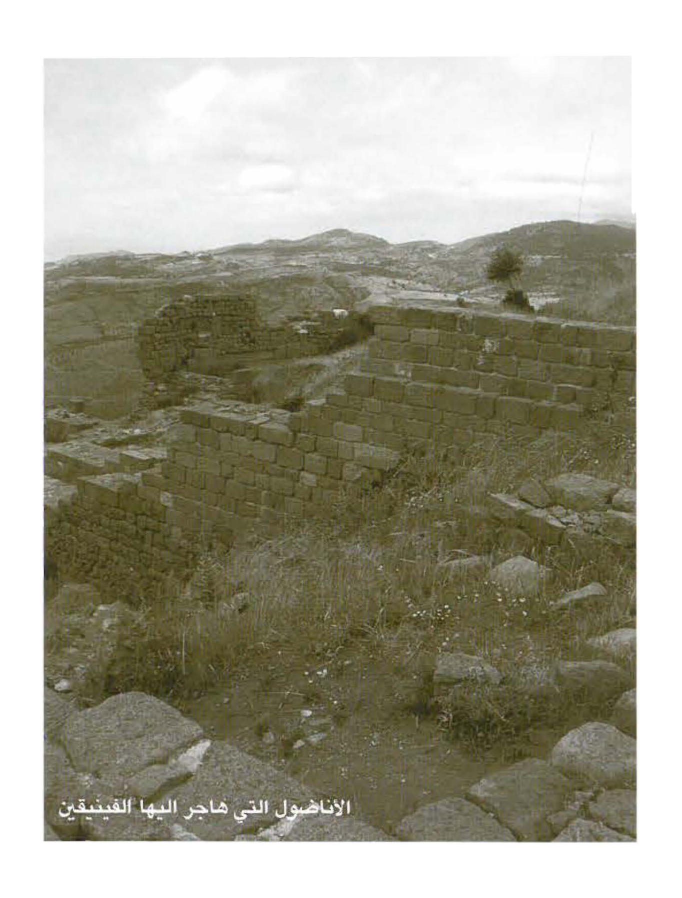


التفاعل الشرقي وبخاصة الفينيقي مع اليونان

يعتبر التاريخ الكلاسيكي، عن غير دقة وصواب، أن فتح الاسكندر للشرق الأدنى (على ساحل المتوسط وقريب من أوروبا الجنوبية والشرقية) كان نقطة انطلاق للهللينية في هذه المنطقة القديمة. لكن الاكتشافات الحديثة أظهرت أن التفاعل المتبادل بين الهللينية وثقافات الشرق بدأ قبل الاسكندر بكثير. فمنذ أوائل الألف الثاني ق.م. كان الاتصال بين الإغريق والشرقيين مؤمناً، وبشكل متواصل تقريباً، بواسطة البحارة الفينيقيين والإيجبين. فبلاد فارس كانت تعج بالعناصر الإغريقية. وكان في مصر عدد من المستعمرات الإغريقية الثرية المهمة. كما كان المرتزقة، مع المهاجرين والفنيين، في خدمة الفرعون والملك الفارسي. وكانت السفن التجارية الإغريقية تصعد إلى الداخل في النيل وتعود إلى البحر.

وكان الفلاسفة والأدباء والعلماء الإغريقيون يفدون إلى المدارس المصرية للتعلم (ليكورغ، صولون، وأفلاطون وغيرهم).

"وجاء التأثير الفينيقي على الإغريق مباشرة بعد التأثير المصري. فتجّار صور وصيدا، الشجعان والحاذقون، قاموا بدور الوسيط لنشر الحضارة، وقد



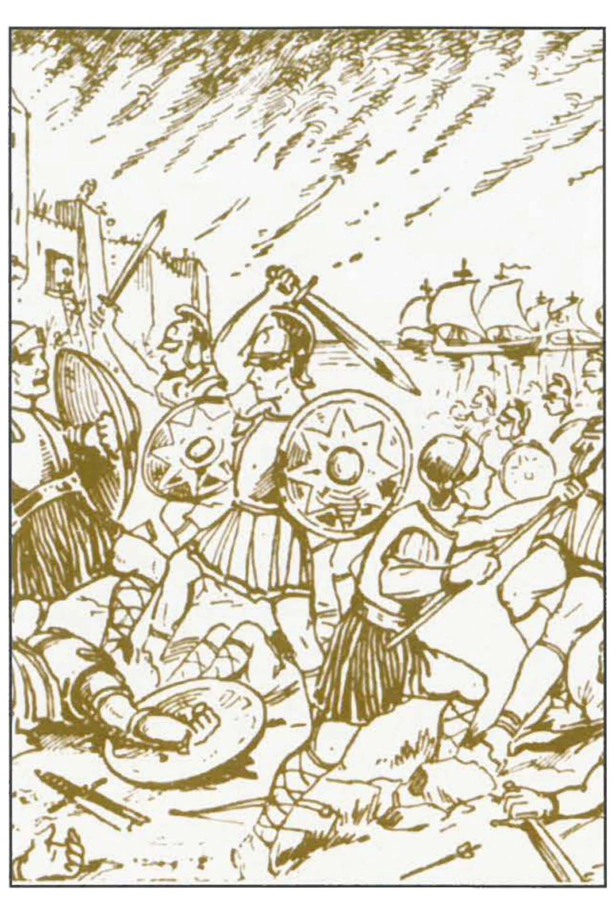
الأناضول التي هاجر اليها الفينيقين

نشروا العلم والتقنية والفن وعبادات مصر والشرق الأدنى، في جميع أنحاء المتوسط" (جواد بولس، "لبنان والبلدان المجاورة"، ص 183، نقلاً عن W. Durant, Hist. de la Civ., Iv, p.96).

وفي المعنى نفسه، "من المعروف أن المدن الفينيقية تعرضت لضغوط كثيرة من ملوك آشور



الاسكندر



الاسكندر خلال إحدى معاركه

منذ القرن التاسع ق.م. واضطرت أن تدفع لهم الجزية إلى أن خضعت تماماً لسيطرتهم خلال حكم تغلات بلاصر الثالث (744 ــ 727 ق.م). ولهذا بدأ الفينيقيون يهاجرون إلى الغرب ويقيمون هناك مستعمرات لهم. وكانت أولى هذه المستعمرات وأهمها قرطاجة (...) وأقاموا مستوطنات لجالياتهم التجارية في مناطق عدة من الأناضول وجزر بحر إيجه بما في ذلك قبرص وكريت ومالطة وبلاد اليونان (...) وكانت هذه المستوطنات، إلى جانب قيامها بتوزيع التجارة الفينيقية والحصول على المواد المعدنية والخام، تتولى إنتاج بعض المصنوعات الفينيقية محلياً(...) وكانت هذه التأثيرات الشرقية هي بداية موجة من الاتصال بين الشرق والغرب، ازدادت تدريجياً وانتهت أخيراً إلى (إنتاج) الثقافة المختلطة للعالم الهلليني...»

(أحمد عثمان، باحث مصري مقيم في لندن، "الحياة"، 27حزيران 1997، ص 21: نقلاً عن فيلوستراتوس في كتابه عن الفيلسوف السفسطائي أبولونيوس، وعن د. بارنت في بحثه عن "العاج القديم لليونان والشرق" المنشور العام 1948 في "مجلة الدراسات الهللينية").

نظرة أوروبية متطرفة، ومؤقتة، أنكرت على الشرق تأثيره على الغرب

كانت الفكرة السائدة حتى القرن الثامن عشر ميلادي تقول إن الحضارة الهللينية اليونانية اعتمدت في أصلها على الحضارات الشرقية القديمة، إلى أن ظهرت مدرسة جديدة في عصر التنوير الأوروبي في القرن التاسع عشر ذهبت إلى وجود حضارة هند -

أوروبية قديمة، كانت مستقلة في نشوئها عن حضارة الشرق الأوسط، وهي أي الحضارة الهند – أوروبية التي أنتجت الحضارة الهللينية. واعتمد المفكرون، للوصول إلى هذا التفسير الجديد، على الدراسات اللغوية التي دلت على وجود شعبة من الكتابات الهند – أوروبية القديمة كانت مستقلة في ظهورها عن الشعبة السامية. واستخدم المفكرون القوميون – خصوصاً الألمان منهم – هذا التفسير لتدعيم رأيهم القائل إن الجنس الشمالي الآري الذي يعتبرونه أكثر تطوراً من الناحية البيولوجية، هو الذي أنشأ الحضارة الهللينية، وأنكروا دور الشرق في هذه الحضارة. كما اتجه مفكّرو التنوير – الذين رفعوا شأن العقل في مواجهة الحدس والإيمان الغيبي – إلى إنكار دور الرجل الشرقي في تكوين الثقافة الهللينية، بسبب ما نسبوه إليه من عدم قدرة على التفكير النقدي والمجرد . وعلى هذا فإن الفكرة التي كانت سائدة منذ ما قبل القرن الماضي (القرن التاسع عشر) تقول بحدوث هجرات أوروبية إلى بلاد اليونان على أثر انهيار الحضارة الميسينية هناك، هي التي أنتجت – بسبب تفوّقها العرقي – الفن والفلسفة والعلوم الهللينية.

إلا أن وجهة النظر هذه بدأت تواجه معارضة قوية في القرن العشرين بعد انتشار البعثات الأثرية التي أخرجت بقايا قديمة سواء من بلاد اليونان أو من البلدان الشرقية (لبنان، فلسطين، سورية، مصر، العراق...)، ولم يعد من الممكن تجاهل حقائق التاريخ والاكتفاء بنظريات المفكرين الافتراضية. يقول ش. ستار في كتابه "أصول الحضارة اليونانية". (لندن، 1962، ص193): "لأن معلوماتنا عن الاتصالات بين الشرق والغرب – خصوصاً من خلال فنون وكتابات فينيقيا – قد تزايدت، ظهر إحياء للفكرة القديمة بأن الحضارة اليونانية كانت أساساً امتداداً للشرق (...) يربط أتباع وجهة النظر هذه (الشاعر) هومر مباشرة بالتراث الملحمي الشرقي ويؤكدون مديونية الميتولوجيا اليونانية لمجموعة من أساطير الشرق الأدنى. ويجعلون الديانة والفكر اليونانيين استمراراً بشكل عام للتأثير الشرقي. وفي حقل الفنون، يميل أصحاب هذا الاعتقاد من الدارسين إلى العثور على نماذج أصلية شرقية عدة للأشكال والموضوعات الفنية اليونانية، في عصر الثورة، حتى ان الفن اليوناني يمكن تسميته فناً شرقياً" (أحمد عثمان، "الحياة"، 27حزيران 1997، ص21).

السيطرة الهللينية

هذا عن التاريخ الثقافي الحضاري والتجاري (تبادل وتفاعل) بين اليونان ومنطقة الشرق الأدنى. وأما عن تاريخ السيطرة الهللينية على المنطقة، فقد بدأ من فتح الاسكندر 332 ق.م. إلى الفتح الروماني 64 ق.م. لكن الهللينية في الشرق، فكما انها لم تبدأ بالفتح العسكري اليوناني، هكذا فإنها لم تنته بالاندحار العسكري اليوناني أمام الرومان، بل بقيت، كثقافة وحضارة وتجارة وتأثير متبادل، تحت الحكم الروماني والبيزنطي، والثقافة الرومانية كانت ثقافة اغريقية.

ارتضت فينيقيا بالحكم اليوناني الجديد (أول حكم أجنبي على المنطقة)، وفي ظل حكم الاسكندر نفسه، كوّنت المدن الفينيقية منطقة بحرية متميزة وذات حكم ذاتي. "حافظت فينيقيا على نظامها الخاص، بفضل وضعها وقدرها، فالدويلات الفينيقية الصغيرة، التي استقبلت الظافر، ظلت خاضعة لحكامها المحليين" (جواد بولس، مرجع مذكور آنفاً ، ص 191، نقلاً عن: .F.M. Abel, Géog. de la Palestine, II, p.126). "أما صور، التي قاومت الاسكندر، فعاقبها هذا بوضعها، مع منطقتها، بإدارة حاكم قلعة اغريقي، بينما مدن صيدا وجبيل وأرواد، الدول التي استقبلت الفاتح، حافظت على ملوكها الوطنيين، تحت رقابة نائب ملك مقدوني

مكلف بجمع الرسوم والضرائب. لكنها لم تعد تشكل قوة بحرية وسياسية. فقد انتقل هذا الدور منذئذ إلى المدينة الإغريقية - المصرية، الاسكندرية، وإلى المدينة الاغريقية - السورية، انطاكيا وسلوقيا على العاصي" (جواد بولس، 191).

بعد وفاة الاسكندر، أصبحت فينيقيا موضوع صراع بين القادة المقدونيين، وبخاصة بين قادة مصر وسورية. وحصل مرة أنه في بضع سنوات فقط انتقلت فينيقيا أكثر من مرة من أيدي بطالسة الاسكندرية إلى أيدي سلوقيي أنطاكيا. لكن فينيقيا ظلت دائماً كما كانت في عهد الاسكندر، خاضعة لملوكها الوطنيين، في ظل السيادة الهللينية.

الحالة الاقتصادية

على الرغم من هذه التقلبات بين جناحي الهللينية، بطالسة مصر وسلوقيي سورية، فقد انتعشت فينيقيا بسرعة فصور نفسها سرعان ما استعادت، منذ 320ق.م. (أي بعد نحو 12سنة من تدميرها على يد الاسكندر) قوتها وشبه استقلالها بفضل صناعاتها (الأرجوان والزجاج) وحركة عبور القوافل. لكنها لم تعد، لا هي ولا أية مدينة فينيقية أخرى، تقوم بدور مهم كقوة بحرية كالدور الذي كانت تقوم به المدن الاغريقية في الشرق، وعلى رأسها الاسكندرية في مصر وسلوقيا في سورية الشمالية.

وقد ازداد النتاج الزراعي والصناعي في فينيقيا ازدياداً ملموساً في العصر الهلليني، وأدخلت نباتات جديدة، ونشطت زراعة الكرمة والزيتون، واستمرت تجارة الأخشاب على المستوى التي كانت عليه. أما في حقل النسيج فقد احتفظت فينيقيا بالسيادة والأولية، إذ كان الطلب شديداً على الأنسجة المصبوغة بالأرجوان، كما إن الإقبال كان شديداً على الزجاج الذي كانت تصنعه كل من صيدا وصور بصورة



أناء ماء مصقول يعود للعصر الهلليني

خاصة. أما الصناعة المعدنية فقد تقدمت تقدماً كبيراً، وكانت ضواحي بيروت غنية بمعدن الحديد. واستغل البطالسة معادن النحاس في لبنان إلى جانب الحديد. وقد ازدهرت صناعة أخرى في هذه الفترة: صناعة أدراج البردي، وأخذ البردي مع الرق (الجلد المدبوغ) يحلّان محل الآجرات للكتابة. وإسم التوراة في الانكليزية Bible يُردّ في أصله إلى الإسم الاغريقي لمدينة جبيل Byblos، من حيث كان الاغريق يستوردون البردي. إذ أدخل البردي بلاد الاغريق عن طريق فينيقيا حيث كان استعماله معروفاً حتى في القرن


ستة مصابيح زيتية من العصر الهلليني

السادس ق.م. (فيليب حتي، ص 212-216).

فالقرون الثلاثة التي عاشها الفينيقيون في ظل حكم الامبراطورية الهللينية "كانت أيام ازدهار. فهم يتاجرون مع مصر ومع العالم الاغريقي ومع ايطاليا. ويسلكون كل الطرق التي فُتحت في ما بعد للتبشير المسيحي" (جواد بولس، ص 196، نقلاً عن دونان Dunand).

الحالة الثقافية

ظهر النفوذ والتأثير الهلليني قوياً في اللغة والدين والفنون، كما استوحت منه الأزياء والعادات. فاللغة اليونانية أصبحت بسرعة اللغة الثانية على الساحل.

والأثر الثقافي الهلليني كان أقوى على الساحل الفينيقي (اللبناني) منه على الساحل السوري بما فيه أنطاكيا نفسها وفي مينائها سلوقية واللاذقية وأفاميا على العاصي. وذلك رغم أن عدد الجاليات الاغريقية في سورية كان أكبر مما هو في فينيقيا.

بعد سنة 300 ق.م. اختار الفينيقيون أسماء إغريقية، أو أنها تحوّلت إلى إغريقية، لمدنهم ولأنهارهم ولآلهتهم. فصور أصبحت تير، وصيدا صيدون، وبيروت لاوديسية (لاذقية) لبنان، والبترون بوتريس، وأرواد أرادوس، وبعلبك هليوبوليس، وجبيل بيبلوس... والإله ملكارت أصبح هيراكليس، وأيشمون أدونيس، وبلاد كنعان



بيبلوس (جبيل) أول مدينة تاريخية


قلعة بيبلوس

أصبحت فينيقيا، وبلاد آرام سورية... ومن الطبيعي أن تنظر الشعوب المغلوبة إلى لغة الغالب وحضارته نظرة احترام وتكبير فيقبلون على تعلم اللغة وعلى اقتباس تلك الحضارة. فكلمة "إغريقي" التي كانت تطلق على الأشخاص، كانت تعني، في أغلب الأحيان، الحضارة وليس الدم أو الأهل. والمثقف الفينيقي في العهد الهلليني لم يكن يشعر أنه غريب في المدينة الإغريقية، كما لم يختلف شعور الإغريقي وهو في ميناء من موانئ فينيقيا عن شعور الفينيقي وهو في بلاد الاغريقي.

وحتى الفتوحات العربية (640)، بقيت الثقافة الوطنية الفينيقية، وكذلك السورية والفلسطينية والمصرية، محتجبة خلف الثقافة الهللينية والهللينية – الرومانية التي تقدمت إلى الصف الأول. لكن هذا لا يعني أن فينيقيي لبنان وآراميي سورية فقدوا طابعهم السامي. فاللهجة الآرامية ظلت لغة العامة في سورية، كما ان اللهجة الكنعانية ظلت لغة العامة في لبنان لا سيّما في الأرياف. حتى أنه في المدن – باستثناء الأحياء الإغريقية الصرفة – كان المثقف من سكان المدينة الساميين مزدوج اللغة، أي أنه كان يتكلم لهجة سامية في بيته وفي مختلف شؤونه، وكان يتكلم الإغريقية في الأوساط الفكرية والعلمية.

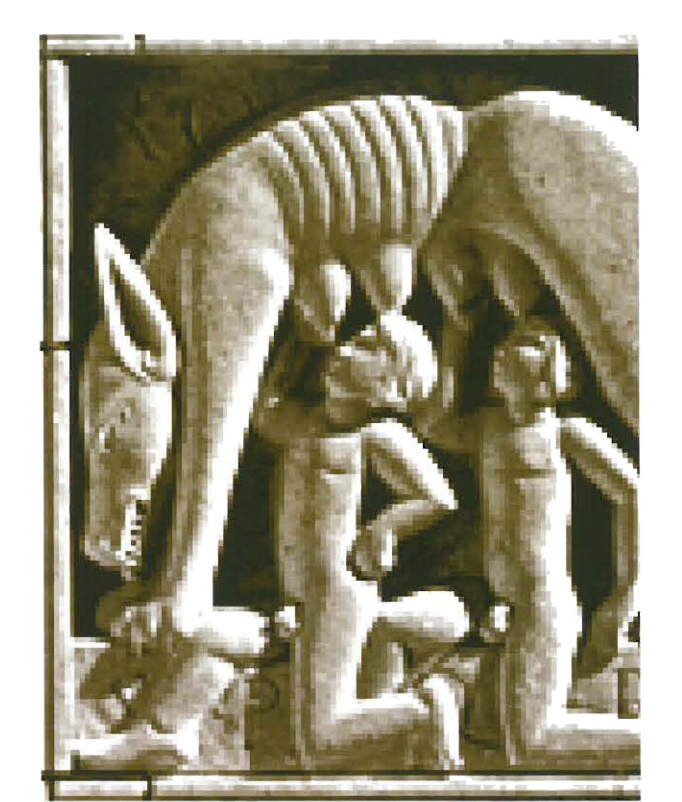
ومثيل هذا الوضع (اللغوي – الثقافي – الحضاري) لا نزال نقف عليه مجذراً في التربة اللبنانية حتى أيامنا الحالية. فمَن من اللبنانيين، وسواهم، اليوم، لا

يلمس لمس اليد هذه النزعة عند اللبنانيين جميعهم، وهي عند المسلمين ليس بأقل منها عند المسيحيين. نزعة تعلّم لغة أجنبية أو أكثر. وكم هو واضح ميل العائلات اللبنانية المسلمة، حتى منها المتحمسة إلى درجة التطرف في مناهضة كل ما هو أجنبي، لتسجيل أبنائها في مدارس مسيحية، حتى انها لا تتردد من أن تتوسل وساطات من أجل تأمين مقاعد دراسية لهؤلاء الأبناء. وذلك لخصائص تاريخية تميزت بها هذه المدارس على رأسها تعليمها للغة أجنبية، أو أكثر، وبشكل متقن. وكم يخبرك رهبان وراهبات، يديرون مدارس مسيحية في بيروت والجنوب والبقاع، عن زيارات قام بها لهم رجال دين مسلمون وقادة إسلاميون، في أحرج الأوقات الطائفية والأمنية، يطمئنونهم ويطلبون منهم الاستمرار في رسالتهم التعليمية والتربوية وفق المناهج المعمول بها دون تغيير. وقد تأمنت لهذه المدارس فعلاً الظروف المؤاتية لعملها، كما لو كانت مراكزها في المتن أو في كسروان، وربّما أكثر في بعض الأحيان، خاصة في أيام سيطرة الميليشيات. فاللبناني، المتعلم والمثقف، الذي أتقن الاغريقية واللاتينية، بالإضافة إلى لغته الوطنية الآرامية – السريانية قبل الفتح الإسلامي، هو نفسه اللبناني اليوم الذي يتقن الفرنسية، أو الانكليزية، أو لكليهما معاً بالإضافة إلى لغته الوطنية والقومية العربية. وهذه خاصية يتميز بها اللبنانيون، بطوائفهم كافة، على شعوب المنطقة، لا بل على سائر شعوب العالم.

العصر الروماني

انحلال الامبراطورية الهللينية وبداية العصر الروماني

بعد موت ملك سلوقيا الهللينية أنطيوخوس الرابع (164 ق.م.) بدأت المملكة تنحل في سورية وبلاد الرافدين: نزاعات داخلية. استقلال اليهودية تحت قيادة شمعون المكابي. فوضى في فينيقيا ومتسلطون طغاة في مدنها. احتلال الفرس بلاد الرافدين. مآسي وحروب داخلية. تكاثر النزوح السامي العربي من البادية (وكان قد بدأ قبل أربعة أو خمسة قرون) باتجاه الأطراف الغربية من بلاد الشام حيث الخضرة والمياه. حتى بلغت السواحل. ونجاح بعض قبائله. مثل قبيلة أنباط بترا من إنشاء مملكة عبر الأردن حتى أن رئيسها. الحارث الثالث. استولى على دمشق (85 ق.م.). وبعد أربع سنوات استولت قبيلة عربية أخرى على مدينة حمص ومنطقتها وحكمتها أكثر من قرن. وتمكنت قبائل عربية أخرى من إقامة مملكة عربية شبيهة بالمملكة النبطية في البتراء حول عنجر وكانت تضم البقاع وبعض حصون لبنان. كما كانت تسطو على مدن الساحل. فما جاء العام 125ق.م. حتى لم يتبق للهللينيين السلوقيين سوى أنطاكيا. وجاءت الضربة



القاضية، في سنة 83 ق.م. عندما استولى ملك أرمينيا دكران الثاني على سورية وضمها إليه. ولكن لنحو عشرين سنة فقط. إذ تمكن القائد والوالي الروماني بومبي. في 64 ق.م. من احتلال سورية وفينيقيا. ثم أورشليم وفلسطين. وفي سنة 59 ق.م.



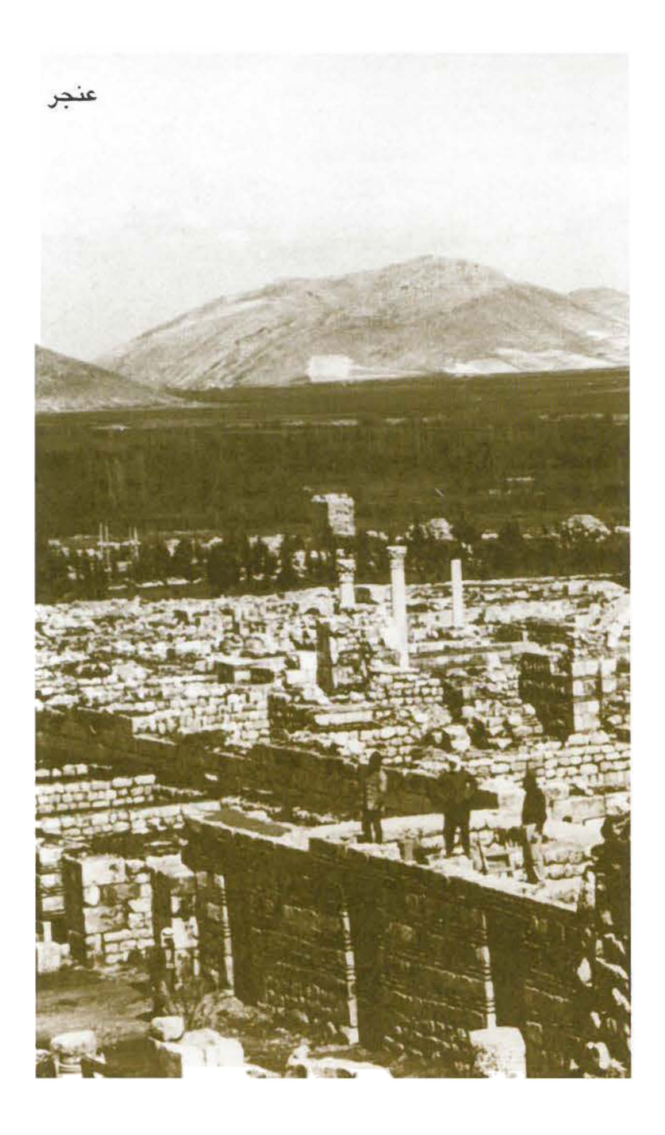
أثار تعود للعصر الروماني في بيروت

اعترف بطليموس الثاني عشر، الملك الهلليني على مصر، بالسيادة الرومانية. وسنة 30 ق.م. قضى أوكتافيوس، الذي عُرف باسم القيصر أو غسطس في ما بعد، على سلالة البطالسة الهللينية وضم مصر للامبراطورية الرومانية. وبدأ العصر الروماني في الشرق المتوسطي.

فينيقيا سياسياً وإدارياً

كانت أنطاكيا والاسكندرية عاصمتي المملكتين الهللينيتين. لكن الأمر اختلف مع الامبراطورية الرومانية، إذ أصبحت العاصمة خارج المنطقة، أي روما نفسها، في حين غدت الاسكندرية وأنطاكيا مراكز إقامة لممثل الامبراطور الروماني. ونفح الرومان جميع بلدان البحر المتوسط بتنظيم سياسي جديد وضعوا فيه ما لديهم من إسهام في الحقوق والحكم والتربية والنظم التي كان دأبها التقريب بين الأعراق القومية واللغات والمدنيات في إطار ما عُرف بـ "السلام الروماني" Pax Romana. وما إن ضمّ بومبي سورية إلى الامبراطورية الرومانية حتى جعلها إقليماً عرف في ما بعد بـ "الإقليم السوري"، وجعل لبنان (فينيقيا) وفلسطين جزءاً من هذا الإقليم. وبهذا لم يعد لفينيقيا كيان مستقل. وشكلت سورية أهمية استراتيجية كبرى للرومان، من حيث أنها كانت تفصل بين ممتلكات روما وبين منافستها في الشرق، إيران. فكانوا ينصبون على سورية حاكماً رومانياً كبير الشأن من رتبة قنصل وذا صلاحيات واسعة.

أبقى الرومان على الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن اللبنانية الرئيسة (صور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وأرواد وغيرها)، خاصة لجهة احتفاظها بالحكم الذاتي بواسطة حكام إداريين وقضاة كما كانت تصك نقوداً خاصة بها. وفاز بعضها بلقب



عنجر

"مستعمرة"، وبذلك أصبح سكان هذه المستعمرات "مواطنين رومانيين".

لكن هذه المدن، لم يتح لأي منها أن تقوم بدور سياسي مهم إلى أن جاء الصليبيون.

العرب

منذ العصر الهلليني والنزوح العربي باتجاه الخضرة والمياه (سواء إلى اليمن أو العراق أو البلاد الشامية وصولاً إلى الساحل الفينيقي) استمرّ متكاثفاً. "ويرجح البعض أن هذا الخروج العربي من البادية ابتدأ على نطاق واسع في غضون القرن الميلادي الأول، أي بعد



جزء من قلعة رومانية

أن تمّت السيطرة للرومان على بلاد المشرق. وما إن جاء القرن الميلادي الرابع أو الخامس حتى كان العنصر العربي قد طغى على أجزاء كبيرة من البلاد الشامية، ومنها أجزاء من المنطقة اللبنانية. وذلك في الوقت ذاته الذي تمّ فيه تعريب مناطق واسعة من العراق، والجزء الأكبر من حواضر "الجزيرة العربية". والواقع أن تعريب بلاد الشام لم يأت نتيجة لخروج بعض العرب من الجزيرة العربية واستقرارهم في المناطق الشامية في زمن الفتح الإسلامي... بل قبل الإسلام بزمن طويل. وبسبب هذا النزوح العربي الكثيف، خلال القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد... بدأت اللهجات العربية تنتشر آنذاك بشكل لم يسبق له نظير، وأخذت تطغى على سائر اللهجات السامية التي كان ينطق بها سكان هذه الأطراف من قبل... وكانت اللهجات العربية قد


خزان مياه روماني

بدأت تمتزج باللهجات الآرامية، وربّما بما سبقها من اللهجات السامية(...) لا نعرف الخبر الأكيد عن بداية أمر العرب في الأطراف الغربية من بلاد الشام.

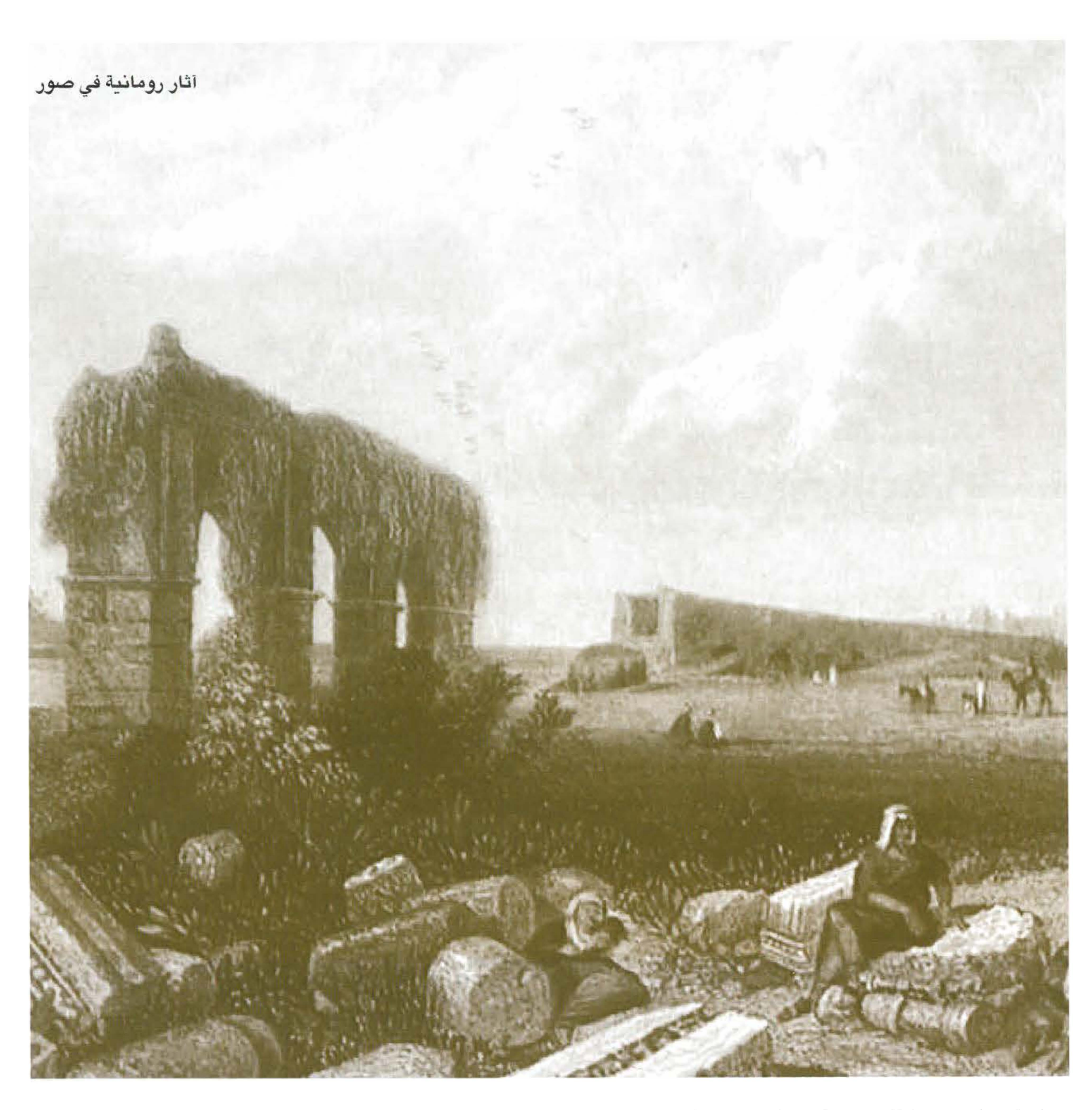
وجلّ ما يمكننا أن نستعين به للوقوف على شيء من هذا الأمر هو أسماء بعض المناطق من هذه الأطراف كما كانت معروفة منذ العصور الإسلامية الأولى. ومن أوضح هذه الأسماء "جبل عاملة" في الجليل الأعلى، و"جبل بهراء" (جبل العلويين اليوم)، و"وادي تيم اللّه بن ثعلبة" (أي وادي التيم)، والمعروف أنها أسماء لقبائل عربية(...) ويبدو أن الجليل الأعلى، ووادي التيم، والبقاع، وربّما كذلك الأجزاء الجنوبية من جبل لبنان، كانت جميعها مناطق تابعة في زمن الحكم الروماني لملوك "نبط" البتراء، ثم لملوك "غسان"، مما يشير إلى أن معظم سكان هذه


قانا في جنوب لبنان

المناطق كانوا في ذلك الحين إما من النبط، وإما مزيجاً من النبط وأقحاح العرب" (كمال سليمان الصليبي، "منطلق تاريخ لبنان"، بيروت، ط1، 1979، ص30-34).

إنتشار المسيحية

ورد في الأناجيل أن جماعات من صيدا وصور أمّوا الجليل ليسمعوا عظات السيد المسيح. وقد زار المسيح نفسه شاطئ لبنان الجنوبي، وكانت أول أعجوبة له، ومعه أمّه السيدة العذراء، في قانا الجليل على بعد نحو 12 كلم جنوب شرقي صور. وخوف زعماء اليهود وأحبارهم من السيد المسيح ورسالته الجديدة جعلهم في صراع مستمر معه إذ كانت القضية معهم مسألة حياة أو موت. فجاء من قال ليسوع: "أخرج واذهب من هنا فإن هيرودوس يريد أن يقتلك".


آثار رومانية في صور

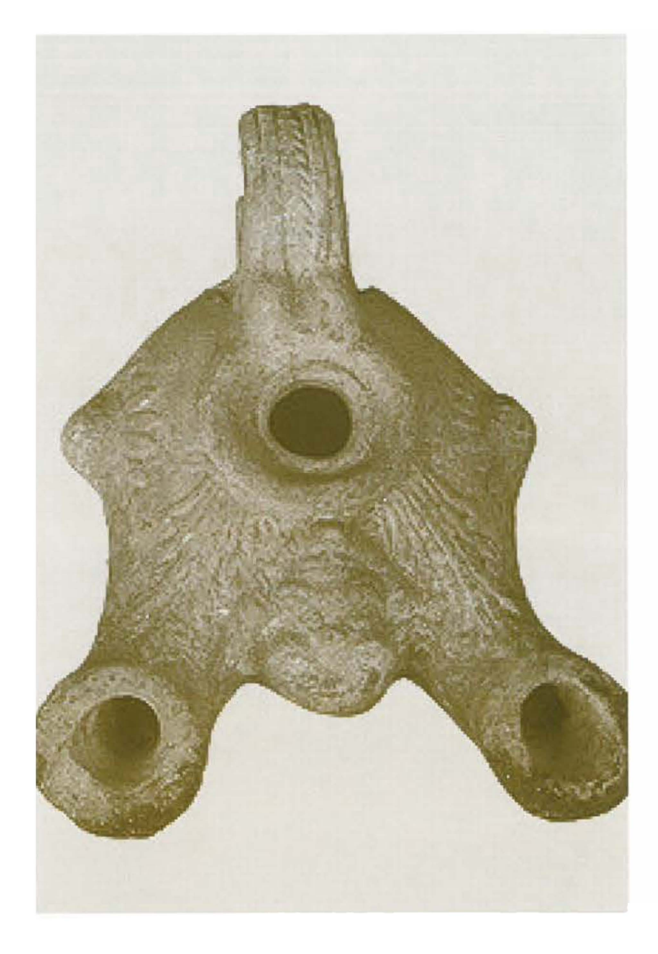
مثلما قتل يوحنا المعمدان. فانسحب المسيح من اليهودية إلى الجليل. ولحقت به نقمتهم إلى هناك، فأتى إلى تخوم صور وصيدا في فينيقيا (لبنان). وكان ذلك حوالى فصح السنة 32. فكان المسيح نفسه أول "لاجىء مسيحي" إلى لبنان. وكانت صور، لما لجأ إليها المسيح، مدينة حرة ضمن إطار السيطرة الامبراطورية الرومانية، معززةً بجملة امتيازات. كما

يؤكد المؤرّخ والجغرافي سترابون اليوناني الذي كان معاصراً للمسيح. وهو نفسه، سترابون، الذي تكلم عن زعماء الإيطوريين والعرب الذين كانوا من القوة، في تلك الفترة، "بحيث أنهم كانوا يبتنون لأنفسهم قلاعاً وحصوناً في أعالي لبنان يلجأون إليها عند الحاجة" (د. فيليب حتي، "تاريخ لبنان"، 231 ؛ نقلاً عن Strabo, و ch. 2، BK XVI 18-20). وقد استمرت عاصمة الإيطوريين العرب،

تمثال من العصر الروماني

خلقيس (عنجر في البقاع) في مقاومة الرومان حتى مطلع القرن الثاني الميلادي.

. أما المدة التي قضاها المسيح بشكل متواصل في نواحي فينيقيا الجنوبية فليست معلومة تماماً.



مصباح زيتي يعود للعصر الروماني

لكن بعض الذين كتبوا سيرته يقولون بأنه قضى في إقامته هناك نحو ستة أشهر. أي منذ فصح سنته الأخيرة في الربيع إلى خريف تلك السنة. وهي مدة مهمة، كما هو واضح إذا ما قيست بمجمل المدة التي خصصها المسيح لإرساء قاعدة رسالته، والبالغة بمجملها نحو ثلاث سنوات ونصف السنة: هذا إضافة إلى المدة التي قضاها مبشراً في الجليل نفسه، الذي "كان مكتظاً بالسكان الفينيقيين". بل كان، في فترات كثيرة، من الممتلكات الفينيقية. هكذا اعتبره الجغرافيون منذ القدم. فهذا ياقوت الحموي، الجغرافي العربي الشهير، يقول: "صفد مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان".

الابجدية الآرمية

فالبيئة، التي أمضى فيها السيد المسيح أطول مدة في فترة تبشيره، بيئة يغلب عليها الطابع والثقافة الكنعانية - الفينيقية. وثمة حقيقة تاريخية ثابتة هي أن اليهود كانوا دون الكنعانيين الفينيقيين حضارةً وبأشواط بعيدة. فأخذوا عنهم العلوم والفنون والصناعات على اختلافها. وكان التأثير الفينيقي عليهم عميقاً، خصوصاً في المجال الديني والثقافي والفكر والأدب.

وفي منتصف القرن الأول، أي بعد نحو عقدين من حادث صلب السيد المسيح، قام الرسول بولس بزيارة صور وصيدا، وكان في كل منهما جماعة مسيحية وكنيسة. وأخذت المسيحية تنتشر في مختلف ضواحي فينيقيا وبلاد الشام، حتى الجزيرة العربية. ثم تحوّلت الدولة الرومانية إلى المسيحية في القرن الميلادي الرابع، ابتداءً بعهد الامبراطور قسطنطين الكبير (306-337) الذي نقل قاعدة ملكه من روما إلى القسطنطينية. وما إن أشرف هذا القرن على النهاية حتى طغى الدين المسيحي على كامل البلاد الرومانية، بما فيها بلاد الشام، وذلك في عهد الامبراطور تيودوسيوس الكبير (379-395) فدان العرب "والنبط" في الشام بالمسيحية، كما دان بها الآراميون وغيرهم من بقايا الشعوب القديمة (الكنعانية - الفينيقية) في مختلف أنحاء البلاد في الداخل كما في الساحل (الفينيقي على وجه الخصوص). وبدأت تقوم "الطوائف المسيحية": الآريوسية، النسطورية، المونوفيزية، الديوفيزية، وغيرها. وقد تقبلت فينيقيا عدة جماعات من المؤمنين المنتمين لهذه الطائفة أو للأخرى. تماماً كما تقبلت في عهد الوثنية شيع الآلهة: إيل والبعل وغيرهما.

الجدير ذكره أن أسقف القيصرية، أشهر مؤرخي الكنيسة في تلك الفترة، يؤكّد أن الامبراطور فيليبوس العربي، الذي حكم في 244 إلى 249، كان قد اعتنق المسيحية قبل قسطنطين، وينتمي إلى قبيلة من القبائل العربية المنتشرة عند تخوم الصحراء العربية، وكان يمارس الواجبات والطقوس الدينية سرياً (أعاد أمين معلوف، في كتابه، بالفرنسية Les Jardins de Lumière، ص 238، ذكر هذا الأمر).

والجدير ذكره، أخيراً، عن علاقة السيد المسيح، والمسيحية بلبنان، أن الساحة الثقافية في هذا البلد شهدت أخيراً، سنة 1999- 2000، صدور كتاب للأب الدكتور يوسف يمين، بعنوان "المسيح وُلد في لبنان لا في اليهودية" (منشورات الجمعية الكونية "إيلَبنانيون" - إهدن، لبنان، ويقع في 732صفحة). وخلاصته "أن بيت لحم، التي تعلّمنا أنها مسقط رأس المسيح، ليست تلك المعروفة بأنها إحدى مدن اليهودية، وإنما هي بيت لحم أخرى تقع لا في الجنوب بل في الشمال، في الجليل بالذات، وعلى مقربة من جبل الكرمل الذي في إحدى مغاوره وُلد المسيح. وجبل الكرمل هذا لا يختلف إثنان على أنه جزء من لبنان. كان كذلك طوال ألوف السنين وظل كذلك حتى أمس، عهد كان تابعاً لإيالة صيدا، قبل أن فصم العثمانيون صيدا عن لبنان"(سعيد عقل، "السفير"، 9 تشرين الثاني 1999). أما المؤلف، الأب الدكتور يوسف يمين، فبعد أن يفرغ من دراسته المطولة والموثقة بمئات المراجع، بما فيها الأناجيل، يقول:

"... وفي السنة الألفين يختتم اليوبيل باحتفالات

رسمية وشعبية في جميع أرجاء العالم، وبخاصة في روما أورشليم (القدس) وبيت لحم، بيت لحم اليهودية جنوب أورشليم المعروفة منذ ألفي سنة. أما نحن، وبهذه المناسبة، فإننا نقدم هذه الدراسة العلمية: التاريخية والجغرافية والآثارية، وفيها نظهر ونحدّد بالأدلة والبراهين والحجج، ولأول مرة في التاريخ، المكان الأصلي الحقيقي لولادة يسوع المسيح: لقد ولد، في الحقيقة، في بيت لحم الأخرى، بيت لحم اللبنانية التي كانت في أيام ولادته داخل أراضي فينيقية - لبنان، ولم يولد أبداً في بيت لحم اليهودية، المعروفة اليوم والتي يحج إليها المسيحيون منذ ألفي سنة! وبيت لحم الحقيقية اللبنانية هذه، والتي كانت عريقة في التاريخ، قد طمسها اليهود والمسيحيون المتهوّدون، فنسيها العالم وأغفلها التاريخ! وها هي اليوم تقوم وتدحرج الحجر الكبير عن باب قبرها، لأن أرضنا اللبنانية - الأرض المقدسة الحقيقية - تشهد بداية انبعاث عهد جديد: عهد "إيل" - "عمانوئيل" الإنجيل: يسوع المسيح الكوني (...)". وبعد أن يمضي الأب في برهنته على أن بيت لحم الجليل هي المكان الذي ولد فيه المسيح، وليس بيت لحم اليهودية (وكتب في ذلك أكثر من 600صفحة)، يخصّص الفصل الأخير (ص 627-648) لقانا الجليل وقرية القليلة ومقام النبي عمران، حيث يعود يسوع ومريم العذراء وزوجها يوسف بأصولهم إليها. فـ"رفات وقبور وأضرحة جميع آبائهم وأجدادهم وأقاربهم وأنسبائهم موجودة حتى اليوم، على الأرض، وظاهرة للعيان، في جوار قانا الجليل اللبنانية، في أعالي قرية القليلة، وبالتحديد في مقام النبي عمران...".

اللغة

أصبحت "السريانية"، المعتبرة فُصحى الآرامية، لغة الطقس الكنسي، فيما استمرّ العرب و"النبط" والآراميون يحافظون على لهجاتهم المحكية. يقابل ذلك الاضمحلال التدريجي، الذي بدأ مع أوائل العصر الروماني، للغة الفينيقية التي بقيت لغة المعاملات والأعمال الرسمية حتى القرن الأول الميلادي، كما بقيت مستعملة في جبيل وصور والمناطق الريفية. وفي القرن الثاني، توقف استعمال اللغة الفينيقية في فينيقيا، وحلت محلها الآرامية كلغة محكية، بينما غدت اللغة اليونانية لغة الأدب والتجارة، واللغة اللاتينية (الرومانية) لغة الإدارة. وفي القرن الثالث، وبينما المسيحية آخذة بالانتشار، لقيت الآرامية، لكونها اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح، الحظوة في فينيقيا وسوريا وفلسطين، وبخاصة منها لهجتها السريانية التي كانت لغة كنيسة أديسا (أورفا أو الرها) في أعلى بلاد الرافدين، فأصبحت اللغة المفضلة للأدب وللكهنة في أديرة بلاد الرافدين وفي سورية. فأصبح آراميو سوريا يُعرفون بـ"السريان" أو السوريين، لتمييزهم عن مواطنيهم الذين بقوا على الوثنية ويستعملون اللغة الآرامية. وهكذا انحسر فاضمحلّ الاسم السامي الآرامي تدريجاً أمام الاسم السوري ذي الأصل الإغريقي.

"هكذا جرى بالتدريج تغير الاسم واللغة والدين في فينيقيا بعد الفتح الروماني، ما جعل مؤرخين عديدين يعتقدون بأن مجموع سلالة هذا البلد العرقية، التي عاشت فيه منذ ما يقارب ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك التاريخ، قد اضمحلت وحلّت محلها جماعات من الآراميين جاءت من سورية المجاورة" (جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة"، ص 214). ويتابع بولس، مناقضاً هذا الاعتقاد


روما الوثنية صارت
عاصمة الكثلكة في العالم

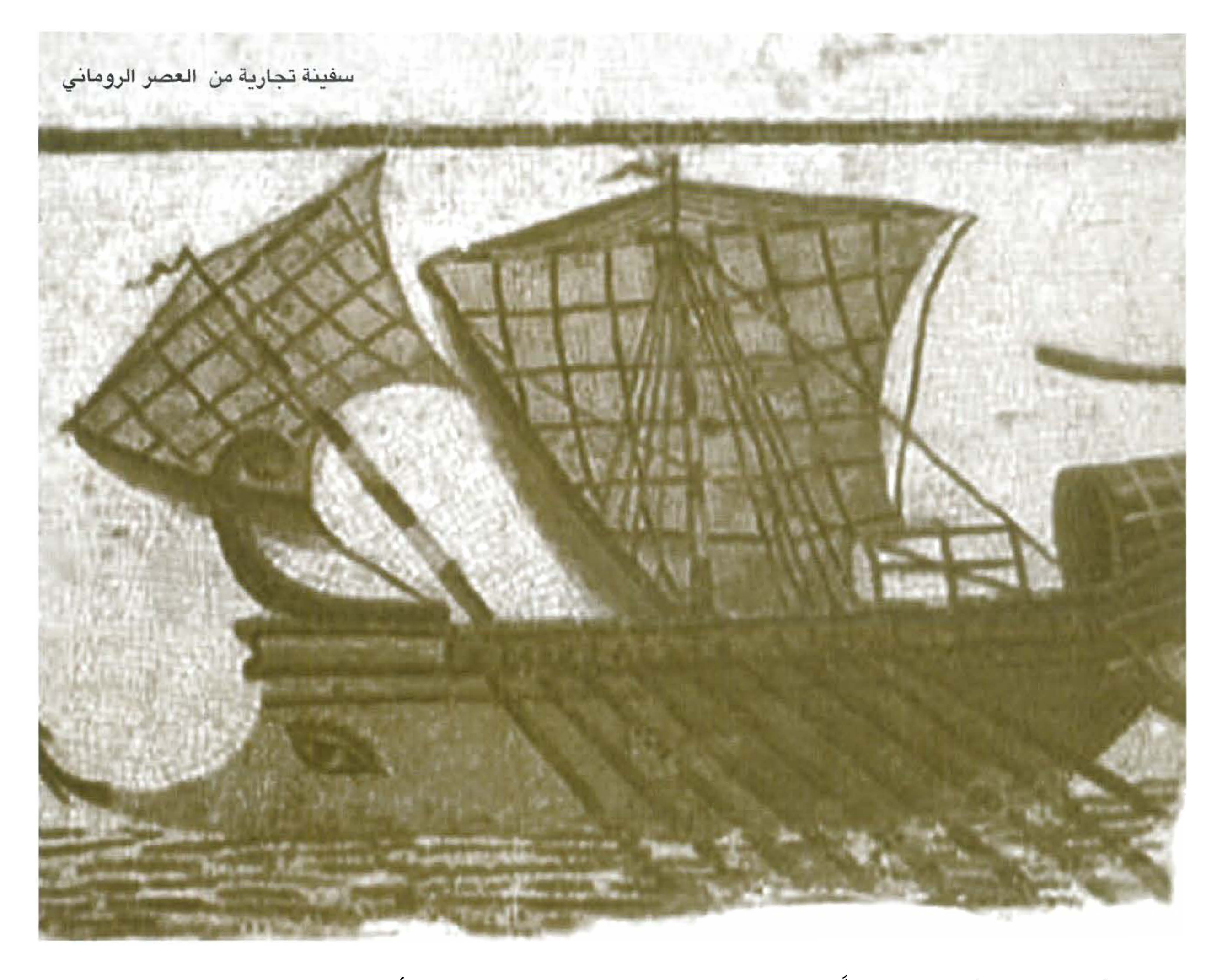
بقوله: و"الحقيقة هي أن العناصر السلالية نفسها بقيت في فينيقيا، بعد الفتح الروماني، مع صفاتها الأساسية الجوهرية التي اتصفت بها من الأساس. وهذه الصفات كانت تتكيف باستمرار لتلائم الوسط الجغرافي الفينيقي...".

الازدهار الاقتصادي

"كان من نتائج التغيّرات الجذرية في اللغة والسياسة (والإدارة، أوالتقسيم الإداري) التي رافقت تأسيس الحكم الروماني في هذه المنطقة أن الشعب اللبناني (الفينيقي) هبّ مرة أخرى ليؤكد ذاتيته كقوة فعّالة في المنطقة وليحتلّ مركزه التجاري المرموق تحدوه العزيمة الصادقة والإدارة الثابتة. وقد سجّلت مدنه البحرية نجاحاً وازدهاراً في التجارة لم تبلغه من قبل ولا من بعد" (فيليب حتي، ص 236).

فقد تطورت الزراعة والصناعة، وتابع الفينيقيون، كعادتهم، تصدير الخمور والخزف والزجاج، والأنسجة الصوفيه والكتانية المصبوغة بالأرجوان. وكانوا يشحنون بضائعهم إلى الخارج، ويقيمون مراكز توزيع لسلعهم في الأسواق التجارية الكبرى. فالطرق التجارية امتدت شبكاتها على حجم الامبراطورية ذاتها، فشملت الرين والدانوب واسبانيا وانكلترا وغاليا.

ومن المهم التذكير، مرة جديدة، أن الإسم "فينيقيا" و"فينيقيين" قد تغيّر في العصر الروماني ليصبح


سفينة تجارية من العصر الروماني

"سوريا" و"سوريين". وذلك وفقاً للتقسيم الإداري والسياسي الذي اعتمدته الامبراطورية الرومانية منذ غزوها للمنطقة. كما من الجدير ذكره أن هذا الاسم بقي مأخوذاً به في أكثر الوقوعات التاريخية والسياسية للمؤرخين الغربيين حتى التاريخ المعاصر. إذ كانوا يشملون "لبنان" و"اللبنانيين"، و"فلسطين والفلسطينيين"، في معرض كلامهم عن "سورية" و"السوريين"، و"مذكرات شارل ديغول". رغم الانتداب، ورغم الاستقلال، مليئة بـ Syrie و Syriens في ذكره لأحداث مختصة باللبنانيين.

لقد "نما نفوذ السوريين (أي الفينيقيين) نمواً مرموقاً في روما، حيث كانوا بعدد كبير هناك. فأصبح عدة باباوات من أصل سوري... (فهم) منتشرون في جميع الموانئ، ولكن نجدهم في الداخل كذلك. ففي ظل الامبراطورية كانوا يملكون مؤسسات في الاسكندرية وفي روما وفي اسبانيا وفي غاليا وفي بريطانيا العظمى... وتؤكد كشوف الآثار هذا الانتشار السوري. كما أن النصوص تدل عليه أيضاً" (جواد بولس، ص 215، نقلاً عن H. Pirenne, Mahomet et Charlemague, p.39,43).

العصر الروماني الشرقي (البيزنطي)

المؤرّخ جواد بولس في كتابه "لبنان والبلدان المجاورة"، (مؤسسة بدران، 1973، ص 216) أوجز بفقرات ثلاث تأريخاً لتحوّل حضاري بالغ الأهمية في المنطقة، وهذه

الفقرات هي:

"في 330، أنهى الامبراطور قسطنطين أعمال الترميم والتوسيع في مدينة بيزنطية القديمة، على ضفاف البوسفور، فدشّن رسمياً بيزنطية الجديدة وأعطاها اسمه، قسطنطينية، وأعلنها عاصمة الامبراطورية الرومانية.

كان انتقال عاصمة الامبراطورية من روما إلى بيزنطية إشارة انطلاق للامبراطورية البيزنطية التي نشأت بعد ذلك. ففي هذا الزمن بدأت الامبراطورية الرومانية، التي أسسها اللاتين في ايطاليا، تفقد طابعها اللاتيني بالتدريج، وقد تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى دولة كبرى اغريقية – شرقية (في دعوة حضارية كبرى للهللينية)، لم يبق لها من الرومان غير الأسم. ومع أن اللغة اللاتينية دامت وقتاً طويلاً اللغة الرسمية فيها، فإن اللغة اليونانية كانت تحتل دورها بالتدريج، حتى غدت اللغة المسيطرة.

وفي ظل حكم خلفاء قسطنطين، بدأ العالم الأغريقي – الشرقي، الذي التفّ حول "روما الجديدة" (قسطنطينية، بيزنطية) الاغريقية المسيحية، يعي دوره شيئاً فشيئاً. وبعد سنة 395، وهو تاريخ الانفصال النهائي بين قسمي الامبراطورية الرومانية، الشرقي والغربي، توّزع هذا الالتفاف للعالم الاغريقي الشرقي حول ثلاثة مراكز هي : القسطنطينية، وأنطاكيا والاسكندرية".

التوّزع السكاني استمرّ أساساً على الساحل، أي في المدن الساحلية، حتى أواسط القرن الرابع حيث أخذ أغنياء الفينيقيين والرومان يبنون لأنفسهم بيوتاً للاصطياف في الأماكن المرتفعة التي كانت ظلت، حتى ذاك الوقت، أماكن يقطنها الصيادون والرعاة والحطابون والمتنسكون. وليس هناك ما يدل على أن جبال لبنان عُمّرت بالسكان على مستوى كثيف إلا في زمن الدولة الرومانية الشرقية، أي البيزنطية، بدءاً من أواخر القرن الرابع. ولم يصبح لهذا القسم من فينيقيا، الذي يضمّ الجبال المتوسطة والعالية، أهمية سياسية تذكر بالنسبة إلى أهمية الساحل، إلا بعد القرن السابع حينما هاجرت إلى القسم الشمالي منه فرق مسيحية كانت على خلاف مذهبي مع الكنيسة الأم. هذه الفرق، بعد أن اندمجت مع غيرها من الفرق التي كانت في لبنان، أصبحت تعرف بالكنيسة المارونية. وكذلك القسم الجنوبي من الجبل لم يكن له أهمية سياسية تذكر إلا بعد القرن الحادي عشر عندما ظهر فيه الدروز.

وبينما نجد امبراطورية الغرب، التي رزحت تحت هجمات البرابرة سنة 475، لم تبق أكثر من إسم بعد هذا التاريخ، فإن امبراطورية الشرق (بيزنطية)، التي صمدت أمام العواصف وعاشت بعد ذلك ما يقارب الألف سنة، لم تسقط إلا سنة 1453 أمام الأتراك العثمانيين.

ومنذ ظهور هذه الامبراطورية الرومانية الشرقية – البيزنطية، وهي تحمل الصفات الأساسية التالية: شكل هلليني مسيحي، سلطة وراثية مطلقة على النمط الآسيوي، دولة شرقية تيوقراطية (دينية)، إدارة بيروقراطية مغرقة في المركزية.

وفي ما عدا الأخطار الخارجية (غزوات البرابرة والحروب ضد الفرس) كانت هناك خلافات دينية (نسطورية، مونوفيزية، مجمع خلقيدونيا – 451- الذي جعل من الامبراطور البيزنطي يحكم الكنيسة الشرقية كسيد مطلق عليها) هزت الامبراطورية وحركتها بعمق وباستمرار، وقد تخلّل كل ذلك يقظة التقاليد والثقافة القومية الآرامية في سورية (والقبطية في مصر)، تغذيها اللغة السريانية كلغة للطقوس الكنسية في سورية.

وعرفت فينيقيا، في العهد البيزنطي فترة ازدهار كبير في أعمالها التجارية. وقد ظهرت قرى عديدة في كل مكان. وأصبحت جبيل مركزاً لكرسي أسقفية. واتسعت واكتظت بالسكان. وقد أتاح التوسّع السكاني والتجاري للفينيقيين فرصة لغزو أسواق أوروبا. وغدا إسمهم "السوري" مرادفاً للكلمة تاجر.

ومرة جديدة نذكر أنه، وبصدد اللهجة الفينيقية ولفظتي "فينيقيا" و "الفينيقيين". فإذا كان صحيحاً قول القائلين (ومنهم الدكتور فيليب حتي) بأن اللهجة الفينيقية كانت انتفت في أواخر القران الرابع، فإنها ظلت حيّة - برأي الدكتور حتي - بين سكان شمال أفريقيا، يسمّون أنفسهم كنعانيين - فينيقيين حتى أواخر القرن الرابع. وكان مطران مدينة هبّو المشهور، القديس أوغسطين، الذي توفي عام 430 يستعمل في مواعظه بعض المفردات الفينيقية. وأكثر من ذلك، يؤكد مؤرخون أن سكان بلدة منعزلة على خليج سرته في ليبيا ظلوا يستعملون اللسان الفينيقي حتى القرن الحادي عشر (راجع بالصدد هذا، د. فيليب حتي، "تاريخ لبنان"، ط3، 1978، من 218 إلى ص251).

وأخيراً، ففي "ظل السلطة البيزنطية، استيقظت الأسس الثقافية الآرامية القديمة في سورية. وكانت روح المعارضة السياسية للقسطنطينية تعتمد على العواطف الدينية وتحقق النجاح بسبب الانشقاقات الكنسية. وبعد أن أصبحت الأرض السامية القديمة أرضاً مسيحية، تذكر بطاركة أنطاكيا والقدس الأصول السامية للكنيسة. وتميزت هذه النزعة في مدارس أنطاكيا وأديسا ونصيبين، التي شاركت بنشاط، منذ القرن الرابع حتى القرن السابع، في ترسيخ العقيدة المسيحية. وكما كانت سورية عند الفتح الروماني، قبيل سبعة قرون، كذلك كانت عشية الفتح العربي: فقد عادت آرامية وعربية. وبعد أن يئست سورية من الاضطهادات الدينية ومن فوضى الضرائب البيزنطية وسوء توزيعها، لم تبدِ أية مقاومة لصدّ العرب المسلمين 634-640" (جواد بولس، ص 222-223).

لبنان الوسيط

في عهد الخلفاء الراشدين ثم العهد الأموي

لبنان في إطار "جند دمشق"

انتزع العرب المسلمون، سنة 635، من الامبراطورية البيزنطية سورية وفينيقيا وفلسطين ومصر، وسكان هذه المناطق، بغالبيتهم، كانوا يعتنقون المعتقد المونوفيزي المسيحي (للمسيح طبيعة واحدة) وهو أقرب إلى التوحيد الإسلامي من المذهب الديوفيزي المسيحي البيزنطي (للمسيح طبيعتان، إنسانية وإلهية). كما انتزع العرب المسلمون من دولة الفرس الساسانيين بلاد الرافدين.

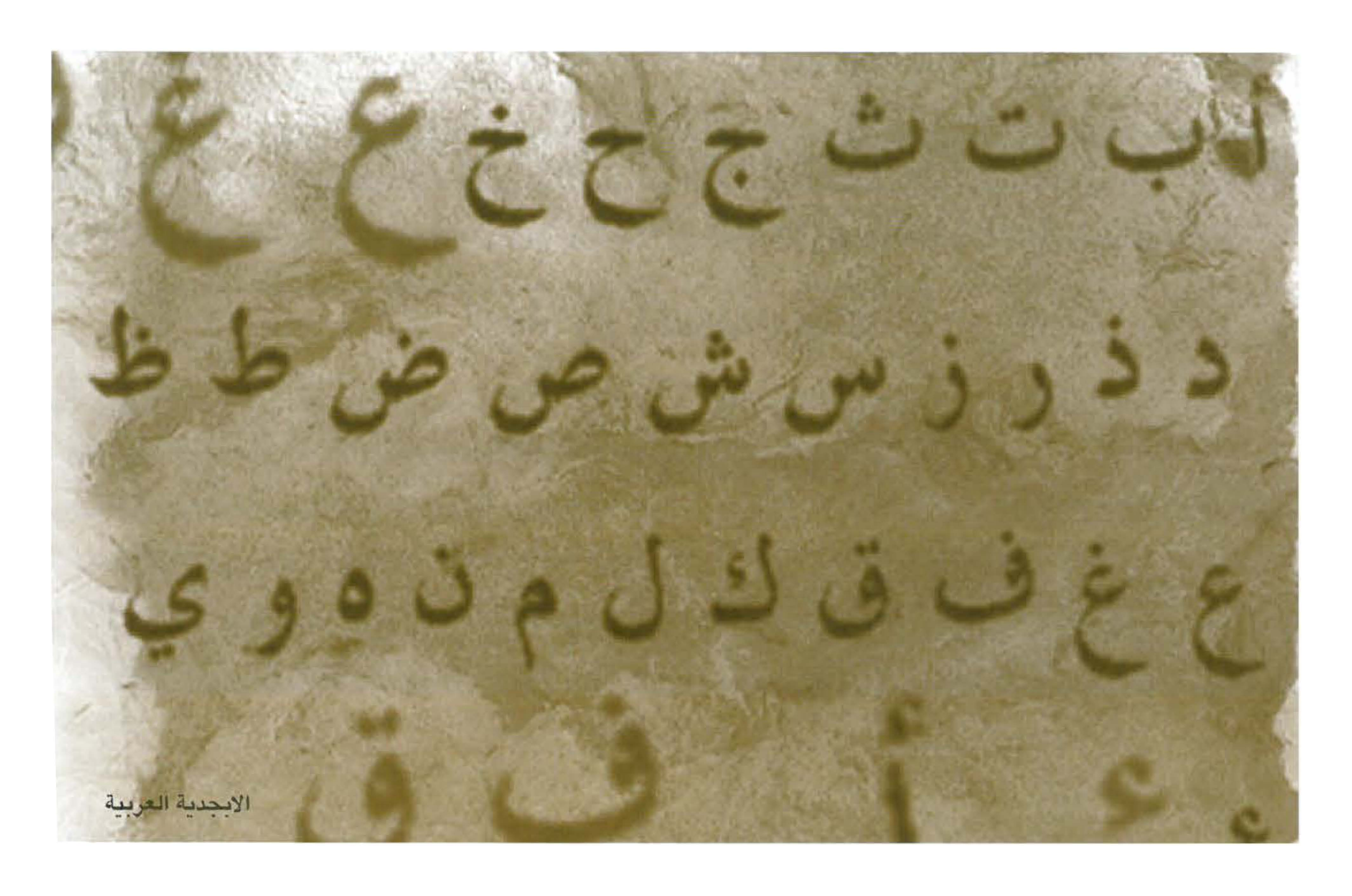
وتمّ الفتح لسائر بلاد الشام بين عامي 634و641، أي في عهد الخليفة أبي بكر الصديق (632-634) والخليفة عمر بن الخطاب (634-644). وخرج الروم، وهو الإسم الذي أطلقه العرب على الرومان البيزنطيين، من البلاد.

في العام 638، قام عمر بن الخطاب بسفرة إلى البلدان الشامية المفتوحة، وعقد مؤتمراً مع قواده في مكان يعرف بالجابية على مسيرة يوم جنوبي دمشق، دام ثلاثة أسابيع (البلاذري، ص 151،139). وقسّم مؤتمر الجابية سورية إلى أربعة مناطق عسكرية (جند): جند دمشق، جند حمص، جند الأردن وجند فلسطين (وقد أضيف إليها في ما بعد، أي في عهد يزيد بن معاوية سنة 680 جند قنسرين الذي اقتطع من جند حمص، وكان يشمل العراق).



مجموعة من النقود الذهبية في العهد الاموي

وكان جبل لبنان والجزء المحاذي له من الساحل من طرابلس إلى صيدا وكذلك بلاد بعلبك والبقاع ووادي التيم من المناطق التابعة لجند دمشق، أم جبل عاملة، من الجليل الأعلى، وثغر صور فقد ألحقا بجند الأردن. وكان نهر "القاسمية"، الجزء الأسفل من الليطاني، يشكل الحدّ الفاصل بين جند دمشق وجند الأردن عند الساحل.



الابجدية العربية

الإسلام واللغة العربية

حلّت اللغة العربية والدين الإسلامي محل اللغة الآرامية والدين المسيحي. ولكن ذلك تمّ ببطء وبالتدريج. فإذا كان الفتح العسكري لبلدان الشرق المتوسطي حدث في أقل من عشر سنوات، فإن التعريب ونشر الإسلام بين الأكثرية العظمى لهذه البلاد لم تتم إلا خلال عدة قرون.

"ومن المهم هنا الإشارة إلى أن الإسلام هو دين سمح. وكان الخلفاء الأولون أودّاء للحرية. فبقيت على شأنها سورية وفلسطين وساحل لبنان ومصر وأراضي الرافدين، إلى نهاية القرن الثالث عشر(...) ولم يؤدِ تسلّط الفاتحين، في البدء، إلى أي تغيير، إذ إن العنصر الإسلامي كان أقلية ضئيلة. وقد جرى التعريب ببطء. وبقي المسيحيون يسيطرون في البلاط الأموي حتى خلافة عبد الملك (685-705). وعندئذ قاد تزايد عدد المسلمين إلى ردة فعل كان من نتائجها إحلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية كلغة رسمية للإدارة"

(جواد بولس، "لبنان والبلدان المجاورة"، ص 236، 237؛ نقلاً عن Elisséef, Dimashk, Enc, de L'Islam, Nov., Ed. II, p.228).

الموارنة

لا بدّ من العودة، بدايةً، إلى ما قبل الفتح العربي الإسلامي. فالمسيحيون الذين كانوا قد أضحوا هم سكان جميع أرجاء سورية (الرومانية والبيزنطية) كانوا إما "ملكية" (نسبة إلى "ملك" الروم في القسطنطينية)، وإما "يعاقبة" حذوا حذو الأرمن في بلادهم والأقباط في مصر، ورفضوا الانصياع إلى مذهب الروم، أي "الملكيين". وانتظموا في كنيسة سريانية مستقلة بقيادة يعقوب البردعي. الملكيون

قالوا بـ "الطبيعتين" في المسيح. فيعتبرونه في الجوهر إلهاً وإنساناً في آن واحد. أما اليعاقبة (مع الأرمن والأقباط) فقالوا إن اللّه أصبح إنساناً في المسيح، لكنه بقي في الجوهر إلهاً كاملاً منزهاً عن الناسوت، حتى ولو اتخذ صورة البشر.

وقد بد أن مسيحيي المناطق الشمالية من لبنان كانوا بمعظمهم على مذهب الملكية، وأن فريقاً كبيراً منهم كان ينتمي إلى مجموعة خاصة ضمن طائفة الملكية عرفت بـ "المارونية" نسبة إلى القديس مارون الناسك الذي نشط في شمالي الشام في أواخر القرن الرابع - أوائل القرن الخامس. فأنشأ أتباعه من الرهبان ديراً يحمل إسمه في وادي العاصي إلى الشرق من حماه. فانتظموا وناضلوا ضد اليعاقبة وصاروا يُعرفون بـ "الموارنة" (والمعروف أن ناحية وادي العاصي كانت، منذ العهد الروماني، من مواطن النبط). واستمّروا على هذا المنوال، فرقة نشطة تابعة لطائفة الملكية، حتى هزيمة الروم أمام الفتح الإسلامي. فقاموا يعترضون على تعيين القسطنطينية للبطريرك في أنطاكيا، وانتسابه إلى طبقة الأعيان، وأعلنوا المطران يوحنا مارون، أسقف البترون في لبنان، بطريركاً عليهم، وحمل لقب بطريرك "أنطاكيا وسائر المشرق" في حركة انفصالية واضحة عن الروم "الملكية". هذا اللقب لا يزال يحمله بطريرك الموارنة حتى الآن. وبسبب هذا الانفصال، لم يستطع بطريرك الموارنة الإقامة في أنطاكيا، فاتخذوا من دير القديس مارون على العاصي كرسياً لبطريركيتهم. وقد ذكر ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق" أن عدة خلفاء أمضوا قسماً من حياتهم وتوفوا في أديرة مارونية.

ويستخلص من أخبار رواها البطريرك المؤرّخ اسطفان الدويهي في كتابه "تاريخ الطائفة


القديس مارون

المارونية" أن البطريرك الماروني الأول يوحنا مارون "نقل مركزه عام 685 إلى جبل لبنان واستقر في قرية كفر حيّ من بلاد البترون هرباً من الغارة التي شنّها عسكر الروم في ذلك العام على دير مارون في وادي العاصي. وتضيف هذه الأخبار أن الروم تمكنوا في هذه الغارة من تخريب دير مارون وقتل 500 نفر من رهبانه. ثم لحقوا بالموارنة الهاربين إلى لبنان مع بطريركهم، فهزمهم هؤلاء في أميون... ويضيف الدويهي أن قائد الموارنة في واقعة أميون كان مقدم


دير مار مارون العاصي

"المردة" المدعو ابراهيم، وهو إبن أخت البطريرك يوحنا مارون" (نقلاً عن كمال سليمان الصليبي، "منطلق تاريخ لبنان"، ص 43).

وتوالت هجرة الموارنة من سورية الشمالية إلى لبنان. فأقاموا في منطقة الشمال، وبخاصة عند سفح الكتلة الجبيلية التي يعلوها الأرز، ثم اندفعوا نحو الوسط والجنوب مع بقاء القسم الشمالي مركز تجمّعهم الأهم. وكان القادمون الجدد على اتصال بالسكان المحليين، من بينهم عناصر غريبة كالجراجمة (أو المردة، كان الروم قد استقدموهم لمناوأة الأمويين)، فدمجوهم بهم بحيث أضحوا شعباً واحداً. وقد نتج عن اندماج الموارنة والمردة والمسيحيين المحليين حوالي سنة 700، ظهور الطائفة المارونية ودورها التاريخي على مسرح الأحداث في لبنان. وغدت اللغة السريانية، وهي لغة آرامية مسيحية، اللغة الدينية والأدبية والشائعة لهذه

الطائفة" (جواد بولس، ص 252). ثم ما لبثت السريانية أن اضمحلت تدريجاً، وفي أقل من قرنين من الزمن أمام العربية.

جزيرة في بحر

ومنذ أواخر العهد الأموي، وتحديداً في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وما فرضه من قيود وتمييز على "أهل الذمة"، وتزايد استقدام القبائل العربية الإسلامية إلى الثغور والسواحل للمشاركة في الدفاع في وجه الروم، ازداد نزوح المسيحيين إلى شمالي لبنان واندماجهم بالطائفة المارونية، حيث وفّرت لهم الجبال والخبرة العسكرية لجماعاته قدرة على "الدفاع الذاتي". فظهر جبل لبنان "وكأنه جزيرة مسيحية صغيرة في بحر من الإسلام" (فيليب حتي، ص 311).

فحلّ لبنان الجبلي، على المسرح التاريخي، محل فينيقيا، أو بتعبير أصح محل لبنان البحري، بعد الفتح العربي الإسلامي. وانعزل عن البحر وتراجع إلى حياة اقتصادية ريفية الأسس. "فالعرب، الذين كانوا يعيشون في السهول والصحاري الحارة، كانوا يجهلون الجبل... أحاطوا به... ونادراً ما أخضعوه لنفوذهم... وكانت جبال الساحل المتوسطي، لبنان وجبال العلويين وجبال البربر في الجزائر، طوال العهد العربي، تشكّل حاجزاً منيعاً في وجه البداوة، وأحياناً في وجه العروبة... أو الإسلام أيضاً... وكان ابن خلدون لاحظ أن الأعراب لا يستطيعون فرض نفوذهم إلا في بلاد السهول" (جواد بولس، ص 227؛ نقلاً عن X. de Plamhol, Les Fondements géographiques de L'Histoire de L'Islam, p. 41-43).

في العهد العبّاسي

سقوط الدولة الأموية وثورة لبنان

كان سقوطها أمام العباسيين (معركة الزاب، 750)

ابن خلدون درس علاقة الانسان ببيئته

ضربةً قاصمة على زعامة سورية ومجدها في العالم الإسلامي، الذي انتقل مركز الثقل فيه إلى بغداد.

ولم يفلح العباسيون في استمالة السوريين إلى جانبهم، خصوصاً وأن العباسيين أمعنوا في استبعاد العناصر العربية عن الإدارة والجيش، ولم يبق من التراث الذي حمله عرب الجزيرة معهم سوى اللغة العربية والدين الإسلامي. وفي حين كان الأمويون يفصلون

بين السلطتين الروحية والزمنية، اعتمد العباسيون نظام السلطة الروحية (والزمنية) للخليفة.

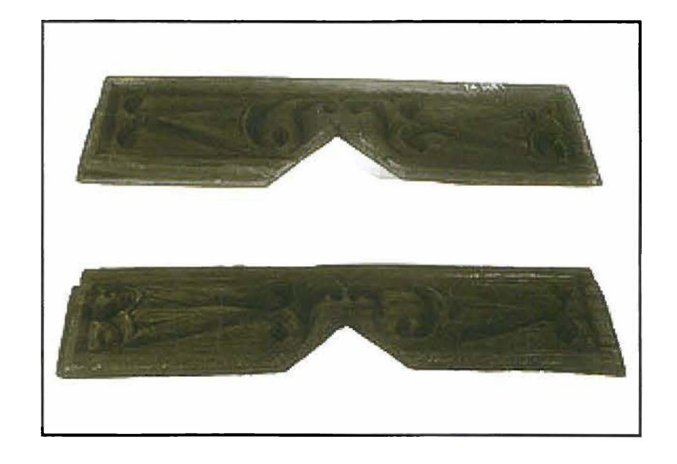
عامل العباسيون لبنان، كما سورية وفلسطين ومصر، كبلاد مفتوحة بالحرب. ولم يكن التسامح الذي أبدوه إزاء تجارة المدن اللبنانية الساحلية التي كانت تستقبل سفناً بيزنطية إلا لأنهم كانوا يجدون فيها مسوّغاً لزيادة جباياتهم المالية.

لم يذعن السكان لسلطان العباسيين. وأول ثورة اندلعت في وجههم كانت ثورة المنيطرة في جبل لبنان (759-760). والمنيطرة كانت بلدة في أعالي لبنان قريبة من أفقا. فقد ثار أهلوها ضد تعسّف عامل العباسيين، يقودهم شاب إسمه "الملك بندار". نصب له جنود العباسيين كميناً وهو في طريقه إلى بعلبك، فانقضت عليهم الفرسان ومزقوا شملهم. فهاجم العباسيون القرى الثائرة في منطقة المنيطرة، وشتتوا سكانها في طول البلاد وعرضها. وقد كان لهذا العمل أثر سيء في نفس الإمام الأوزاعي (العالم والفقيه الشهير، ولد في بعلبك 707، ومات في بيروت 774) فكتب للخليفة:

"وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى..."

(البلاذري، ص 162).

بعد هذه الثورة، ولمواجهة ثورات أخرى أو غارات يشنّها سكان جبال لبنان والبيزنطيين، نقل الخليفة العباسي المنصور (754-775) إلى الشاطئ اللبناني قبائل عربية من منطقة حلب. وكانت أبرز هذه القبائل قبيلة التنوخيين التي نزلت في منطقة الغرب على المرتفعات المجاورة لبيروت.

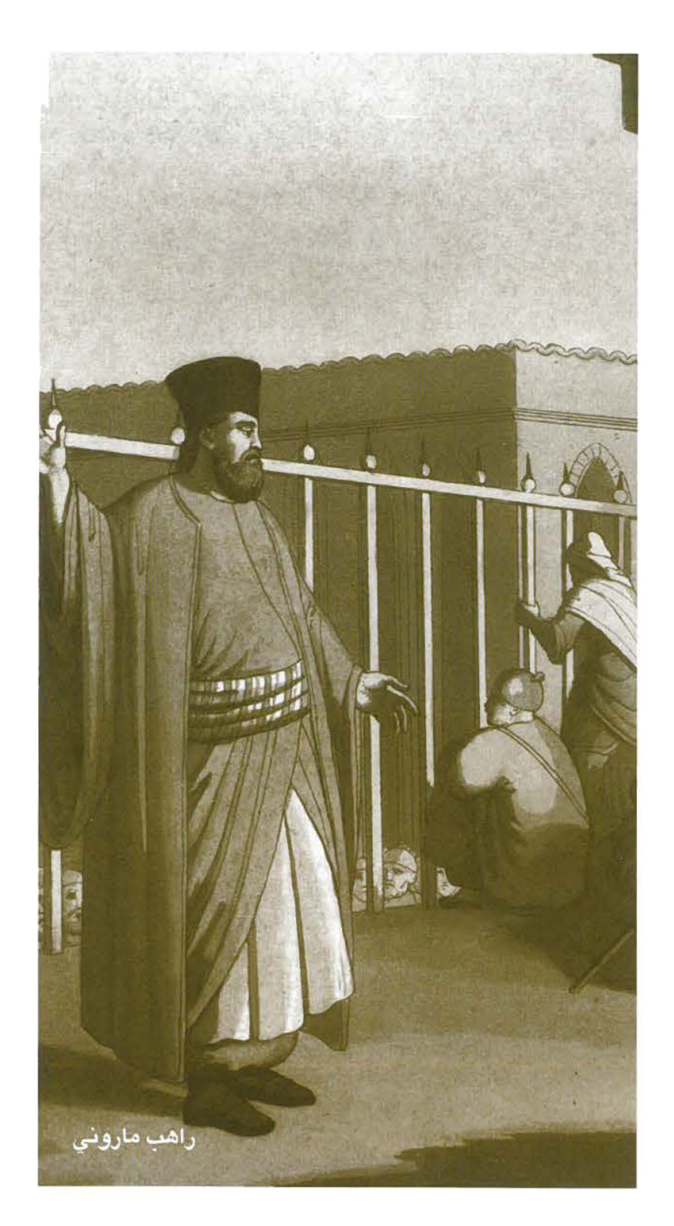


حشوتان من الخشب المزين من العصر العباسي

التشيع ونزوح ماروني جديد من سورية إلى لبنان

لم يأنس أهل الشام للحكم العباسي على الإطلاق. ولم يكن المسلمون منهم أقل عداء للدولة العباسية من المسيحيين. وجاء انتشار التشيع بين مسلمي الشام في غضون القرن التاسع يعكس هذا العداء فما إن أقبل القرن العاشر، أو انتصف، حتى كان فريق كبير من مسلمي جند حلب وجند حمص وجند دمشق وجند الأردن (أبقى العباسيون على التقسيمات الإدارية نفسها التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب وسار عليها الأمويون) قد تحوّل إلى مذاهب شيعية. وكان المسلمون في المناطق اللبنانة وجبل عاملة في جملة المتحولين إلى المذاهب الشيعية. فمنهم من تحوّل إلى المذهب "الإثنا عشري" أو "الإمامي"، وهؤلاء أهل جبل عاملة وبعض أهل جبل كسروان. ومنهم من تحوّل إلى مذهب "النصيرية" أو إلى مذهب "الاسماعيلية"، ومن هؤلاء، على ما يبدو، جماعة من أهالي وادي التيم. وكذلك جماعة من أهالي الأشواف وكسروان من جبل لنبان (كمال الصليبي، "منطلق تاريخ لبنان"، ص61-62).

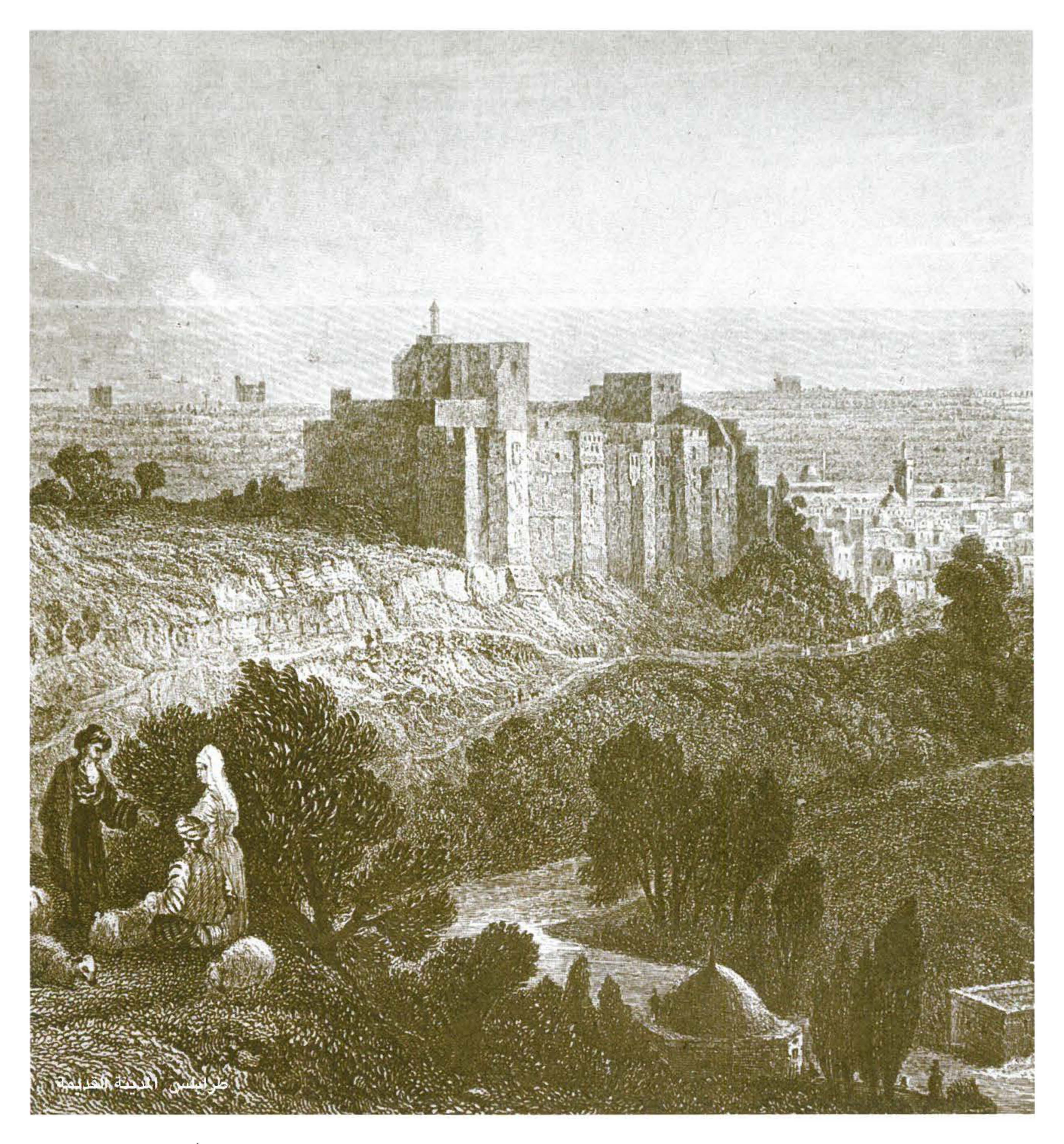
وفي القرن العاشر نفسه، وفي خضمّ أحداث متسارعة والفوضى، عاد الروم يشنّون غزاوات على بلاد الشام (963-969) التي تعاون، في بعضها المسيحيون الملكيون مع الروم، فجرّ ذلك إلى تصادمات عنيفة بينهم وبين المسلمين في مناطق كثيرة من البلاد. وتمكن الروم عام 969 من دخول أنطاكيا وبقوا فيها حتى العام 1085. وقام عسكرهم المتمركز في أنطاكيا بغزو وادي العاصي وغيره من مناطق جند حمص وجند حلب. والمرجّح أن غزوات الروم المتكررة لهذه المناطق آنذاك كانت السبب في جلاء الموارنة نهائياً عن مواطنهم القديمة في نواحي حمص وحماه وشيزر ومعرّة النعمان. والدليل على ذلك ان الوجود الماروني كان قائماً في تلك النواحي بشكل ملحوظ في زمن المسعودي المتوفي عام 956. ولم يبق من هذا الوجود شيء يستحق الذكر - على ما يبدو - بعد خروج الروم من أنطاكيا في أواخر القرن الحادي عشر. والظاهر أن بعض موارنة وادي العاصي هرب من الروم في تلك الأثناء ولجأ إلى حلب، مستجيراً بأمرائها من بني حمدان، بينما نزح البعض الآخر إلى المناطق المارونية في شمالي لبنان واستقرّ فيها. (**كمال الصليبي، المرجع المذكور آنفاص، ص 64**).


راهب ماروني

تفكّك الدولة العباسية وبروز الإقطاع

في القرن التاسع بدأت الدولة العباسية تتفتت، وتعمّق التفتت في القرن العاشر والحادي عشر، ونشأت دول: طولونيون، أخشيديون وفاطميون، فكان سهلاً، نسبياً، في إطار هذه الدول المتنازعة والفوضى، على الصليبيين السيطرة على سورية الشمالية ولبنان وفلسطين، في أواخر القرن الحادي عشر، والبقاء في الواجهة البحرية لهذه البلدان طوال قرنين تقريباً، أي حتى أواخر القرن الثالث عشر.

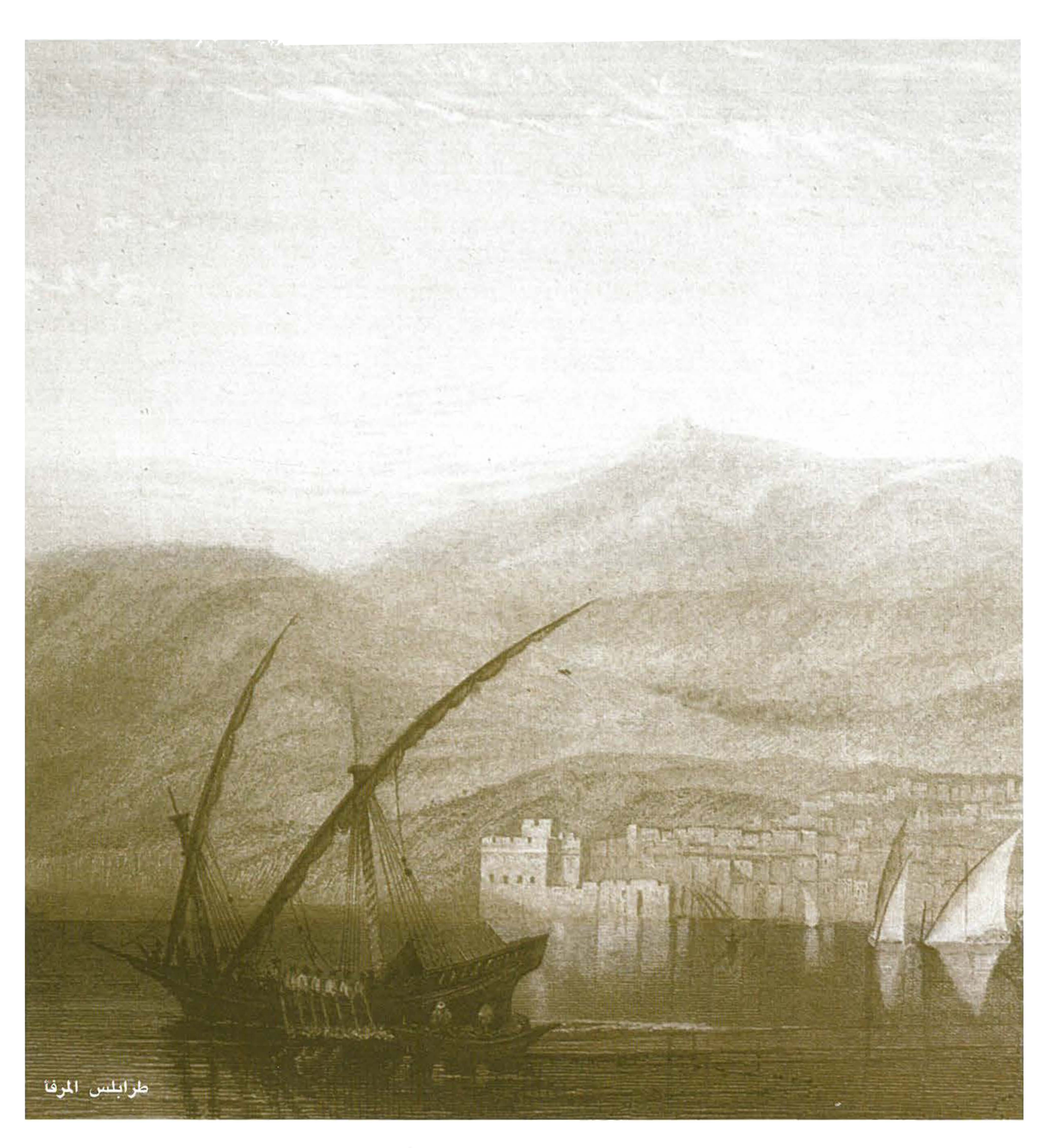
في إطار هذا التفتت كانت المنازعات وكانت الفوضى، لكن أمراً آخر كان أيضاً، كان ثمة استيقاظ للشخصية الذاتية القديمة للسلالات العرقية التي شكّلت من جديد دولاً مستقلة، أو إمارات مستقلة عبّرت عنها (أي عن هذه الإمارات) خير تعبير إمارة حلب العربية المستقلة (944-1002) التي استولى عليها الأمير الحمداني العربي الشهير سيف الدولة. كما كان أن جبل لبنان استمرّ ينجو، باستثناء فترات قصيرة، من الاحتلال العسكري ومن الخضوع


طرابلس المدينة القديمة

مباشرة لإدارة المتسلطين الغرباء.

وهذه النجاة لجبل لبنان تفسّرها وقوعات أحداثه التاريخية. على رأسها بروز نظام إقطاعي فيه مختلف عن النظام الإقطاعي الذي قام في سورية. فساهم في إبقائه معمّراً ومزدهراً.

ساعدت حالة الفوضى وانعدام الأمن وطغيان العديد من الغرباء على نمو النظام الإقطاعي. السياسي والاجتماعي. وهذا النظام. الذي عرفته سورية. والذي يشبه نظام أوروبا الغربية في القرون الوسطى. "كان يختلف عنه اختلافاً عميقاً. ففي المقام الأول. كان


طرابلس المرفأ

السادة الإقطاعيون في الغرب مالكين لإقطاعاتهم. أي أنهم يملكون الأرض التي كان الملوك يعطونها أو يبيعون استعمالها لأتباعهم. ولكن الأمر كان بخلاف ذلك في الشرق. حيث كان الرئيس الإقطاعي. وهو محارب من أصل غريب. ليس له سوى وقف عقاري (إقطاع) أي تصرف مؤقت. يمنحه الحق باستيفاء الضريبة عن الأرض... فكان ينوب عن العاهل بجباية هذه. فهو هكذا جامع للضرائب ولا يقيم عادة في إقطاعه كما لا يعتمد على غير رجاله الخلصاء. الذين يكونون جميعاً من الغرباء تقريباً (أتراك وبربر وغيرهم).

وبنتيجة ذلك كانت تنقصه دائماً رابطة ملكية الأرض، أي الأتحاد الشخصي الذي كان، في الغرب، بين الإقطاعي الحاكم وأتباعه» (جواد بولس، ص 272).

أما في لبنان فكان النظام الإقطاعي مختلفاً عنه في سورية وفلسطين؛ إذا اعتمد، في لبنان، نظام "السيادة الريفية". "وكما هو الشأن في الغرب، كان السيد في لبنان هو المالك والمتصرف بملكه (وهو من السكان اللبنانيين أنفسهم)، يقيم بين فلاّحيه، الذين لم يكونوا كالعبيد المسخرين لمشيئته وضرائبه، بل كانوا مزارعين يشتغلون في الأرض ويحصلون مقابل ذلك على جزء من مواسمها. ويجري تحديد حصتهم بعقد ضمني. لقد كان يتم بينهم اتفاق مشاركة، حيث لا تزال الكلمة العربية "شريك" تطلق على القروي اللبناني الذي يزرع أرض أحد السادة المالكين" (جواد بولس ص 273).

نتائج الفرق بين النظامين الإقطاعيين: عمران في لبنان وتقهقر وخراب في المناطق المجاورة

هذا الفرق بين النظام الإقطاعي اللبناني وبين نظام البلدان المجاورة برز في النتائج المختلفة لكل منهما في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسكاني والسياسي، بدءاً من القرن الحادي عشر. ووصل (هذا الاختلاف في النتائج) أوجه في القرن الثامن عشر كما أظهرته وقوعات وتوصيفات المؤرخين، خاصة منهم الرحّالة الأجانب.

ففي القرن الحادي عشر (قبيل قدوم الصليبيين)، فإن أفضل وصف للبنان جاء به الداعية الإسماعيلي الفارسي الأصل ناصر خسرو الذي مرّ في لبنان وهو في طريقه إلى الحج، وهو يقارن بين ما شاهده في لبنان وأعجب بعمرانه، وبين ما شاهده في سائر الأقطار الإسلامية: في لبنان، البساتين والمزروعات



امرأتان من طرابلس

على أحسنها وطرابلس كان يبلغ عدد سكانها 20 ألفاً، وفيها فنادق ذات أربع أو خمس أو ست طبقات... "وكل ما في بلاد فارس من مأكل أو مشرب يستطيع المرء أن يجده في طرابلس، ولكنها تفوق ما في فارس كثيراً... وتحمي المدينة حامية من الجنود الفاطميين... وتؤم ميناءها مراكب من بلاد اليونان والفرنجة واسبانيا والمغرب... وأما الورق الذي يصنع في طرابلس فيفوق الورق الذي يصنع في سمرقند جودة وحسناً...". وكذلك تكلم خسرو عما رآه من مبانٍ فخمة في بيروت، وعن



أسواق صيدا "المزينة تزييناً رائعاً". وأسواق صور "المكتظة بالبضائع والسلع فعلى غاية من النظافة". وسكانها من الشيعة كما هي الحال في طرابلس

(فيليب حتي. ص 339-341).

وظل هذا الفرق. في بنية النظامين الإقطاعيين. يعطي نتائج متباينة عبر القرون. حتى "أقفرت شيئاً فشيئاً مناطق سورية وفلسطينية. فغدا السكان. حوالى نهاية القرن الثامن عشر. لا يعدون سوى ربع ما كانوا يعدون في عهد البيزنطيين والخلفاء الأمويين حين كان عددهم يراوح بين سبعة وثمانية ملايين نسمة. وفي بدء القرن التاسع عشر لم تكن قرى البكاليك التابعة لحلب، والتي كانت تعد 3200 قرية،


سنية وشيعية من صيدا

كما كانت مسجلة في سجل الضرائب، سوى 400 قرية فقط" (جواد بولس، ص 272: نقلاً عن المؤرخ الشهير لامنس).

فبينما كانت المناطق المجاورة تحكم مباشرة من الطغاة الغرباء فخرّبت وأقفرت من السكان بسبب جور هؤلاء الطغاة وظلمهم، "بقي جبل لبنان، حيث كان ينعم كل واحد بالأمن ويتمتع بممتلكاته وحياته، بلداً مزدهراً وحراً نسبياً، كما بقيت كثافة السكان ظاهرة فيه. ومن المناسب هنا ذكر الإحصاءات التي جمعها فولني Volney، العالم والفيلسوف الفرنسي، سنة 1783، حيث أقام عدة أشهر في لبنان. ففي لبنان الأوسط، كسروان الموارنة، كما قال، كان يعيش 115 ألفاً من السكان. وفي الشوف الدرزي 120 ألفاً، وكل منطقة من هاتين كان فيها ضعف ما في فلسطين مجتمعة التي لم تكن تعد سوى 50 ألفاً" (جواد بولس، ص 273: نقلاً عن Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, ed. 1859, p.357).

وضع الطوائف قبيل قدوم الصليبيين

ثمة معالجة تاريخية واجتماعية معمّقة تظهر وحدة الأصول التاريخية والعرقية للشعب اللبناني بمختلف طوائفه التي كانت قد تشكلت بمعظمها وبأهمها حتى أواخر القرن الحادي عشر (أي قبيل قدوم الصليبيين): المسيحيون وبخاصة الموارنة، والسنّة، والشيعة والدروز. كما تظهر هذه المعالجة أن الذاتيات المذهبية أو الطائفية لهذه ما كانت لتتمكن من طمس شخصيتها اللبنانية ومن استمرار هذه الشخصية. والمعالجة المقصودة هي الفصل الثالث عشر والفصل الرابع عشر من كتاب المؤرخ اللبناني (جواد بولس) "لبنان والبلدان المجاورة" (بيروت. لبنان. مؤسسة بدارن. ط1. 1973 .ص302،275). أما عن وضع هذه الطوائف اللبنانية على أبواب الغزوات الصليبية التي بدأت آخر القرن الحادي عشر. فيمكن إيجازه بالتالي:

الشيعة

في عهد الخلفاء الفاطميين (969-1075). حيث كان المذهب الرسمي للدولة المذهب الاسماعيلي الشيعي المتطرّف. أصبح الشيعة كثيري العدد وذوي نفوذ كبير في لبنان وسورية، وفلسطين. وفي القرن الحادي عشر. كانوا يسيطرون على جميع المناطق اللبنانية، بما في ذلك مدن الساحل. باستثناء جبل لبنان الشمالي. مؤل الموارنة والشوف ووادي التيم. حيث بدأ الدروز ينتشرون فيهما منذ سنة 1021. وقد شكلت طرابلس إمارة شيعية مستقلة (1070 – 1109) بإدارة ابن عمار. القاضي الفاطمي السابق. وكان بنو عمار ذوي حكمة وثقافة، حيث جعلوا من طرابلس مدينة مزدهرة ومركزاً ثقافياً من الطراز الأول. مزوّداً بمكتبة من أغنى المكتبات الإسلامية. وكان بنو عمار يترجحون بين فاطميي مصر وسلجوقيي سورية. وقد نجح حاكم هذه الأسرة (بنو عمار). الذي تولى الحكم سنة 1099، بالصمود أمام الصليبيين. وفي عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين المتعاقبة. من 1180 إلى 1918 . وجميع هؤلاء من السنّة. راح الشيعة في طرابلس وبيروت وصيدا يتخلّون شيئاً فشيئاً عن نفوذهم للسنّة المحليين. الذين كانوا يتعززون باستمرار بعناصر سنيّة مهاجرة، كالتركمان والأكراد).

الدروز

طائفة ذات صلة بالمذهب الرسمي الذي ساد دولة الخلفاء الفاطميين. وضع نظامها الديني حمزة بن علي (من "زوزن" في إيران". وقام نشتكين الدرزي. في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر اللّه (996-1021) بنشر الدعوة الجديدة في وادي التيم حيث وصلها في العام 1020 وأسس النواة الأولى للطائفة الدرزية التي سميت باسمه، والتي انتشرت في لبنان الأوسط (الشوف والمتن) وفي سورية (حوران) وفي فلسطين. وغدا الدروز. وفقاً لمبادئهم وتعاليمهم وطقوسهم. يحتفظون بمذهبهم سراً. وفي موطنهم الجبلي اكتسب الدروز. على مر الأجيال. تلك الصفات التي عُرفوا بها في جميع مراحل تاريخهم: ولاء صادق للجماعة وتضامن جماعي قوي، وحب شديد للحرية والاستقلال، وصبر على تحمّل المكاره والشدائد. وفي أثناء انتشار الدرزية شمالاً انضمت إلى طائفتهم قبائل عربية أو متعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل أرسلان وآل جنبلاط الذين تزعموا، ولا يزالون. الدروز. وبظهور الدروز كطائفة جديدة في لبنان. فإن تاريخه منذ ذلك الحين بدأ يتركز على هاتين الطائفتين: الموارنة والدروز، وعلى علاقة الواحدة منهما بالأخرى.

عن الدعاة الثلاثة الأّول: الدرزي وحمزة وبهاء الدين.

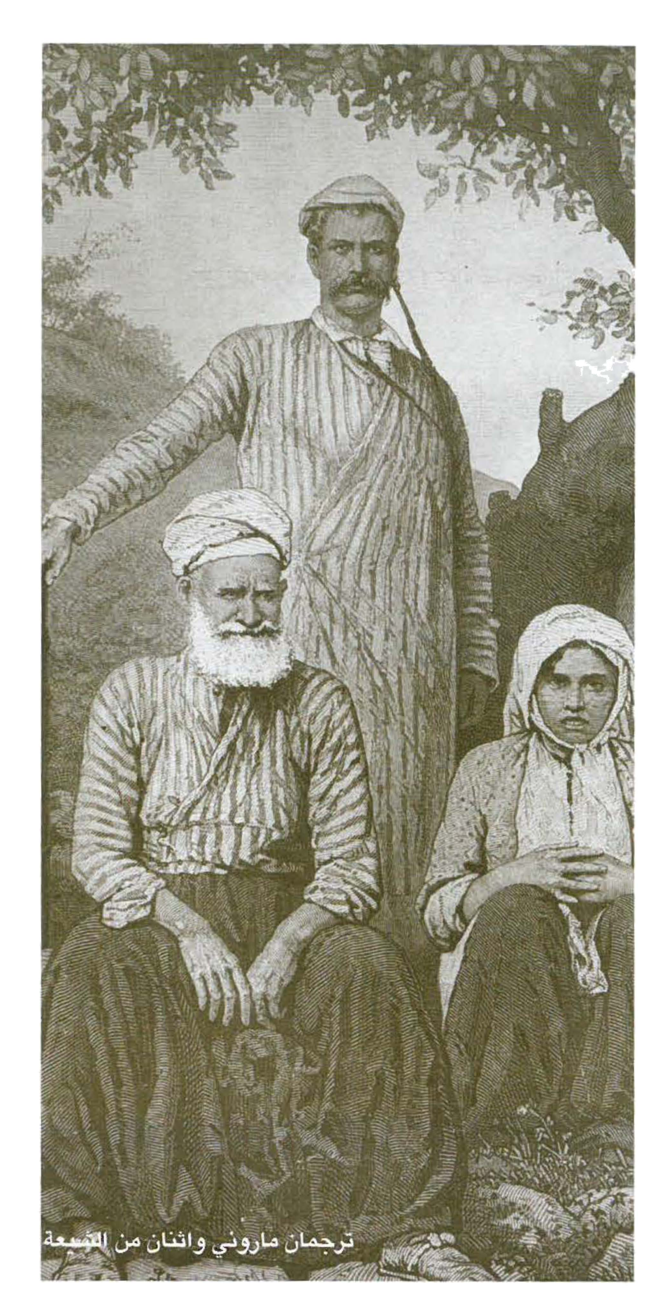

اميرة درزية بالطنطور



يقول فيليب حتي (تاريخ لبنان. ص 315-318) إن الدرزي هو محمد ابن اسماعيل الدرزي (وهي لفظة فارسية معناها خيّاط) الذي كان أحد أعوان الخليفة الفاطمي السادس في القاهرة الحاكم بأمر اللّه. وإسم "الدرزي" تسمية لا يرضى عنها الدروز أنفسهم لأنهم أنكروا دعوته ويؤثرون بأن يُسمّوا بالموحدين. ولما لم تلق دعوته تربة صالحة في مصر، جاء إلى وادي التيم ولكنه قُتل هناك بعد سنتين قضاهما في الدعوة إلى الحاكم.

أما حمزة، فهو داعية آخر فارسي إسمه حمزة اللبّاد الزوزني، الذي قبّح تعاليم محمد ابن إسماعيل الدرزي. وكان الزعيم الفكري للدعوة الجديدة، وهو واضع فلسفة العقيدة الدرزية. وكانت فلسفته اللاهوتية باطنية تقول بأن للنصوص معنى باطنياً غير معناها الظاهري. وهذا المعنى لا يفهمه إلا الأئمة والراسخون في العلم.

وكان خليفة حمزة في نشر الدعوة تلميذ له - ربما كان سورياً مسيحياً - إسمه المقتنى بهاء الدين (توفي حوالى 1042). وقد عاش المقتنى برهة من الزمن متخفياً. ولكننا لا ندري (على قول حتي) على وجه التدقيق أين كان اختباؤه في مصر أم في سورية. وقد بعث بهاء الدين برسائل عديدة إلى الأتباع أو إلى أشخاص يدعوهم فيها إلى قبول الدعوة في أماكن مختلفة متباعدة مثل بيزنطية والهند. ومجموع هذه الرسائل يشكل بعض كتب الدروز الدينية التي يقرأونها ويدارسونها في خلواتهم. فقد بعث مثلاً برسالة إلى الامبراطور قسطنطين الثامن (1025-1028) وهي



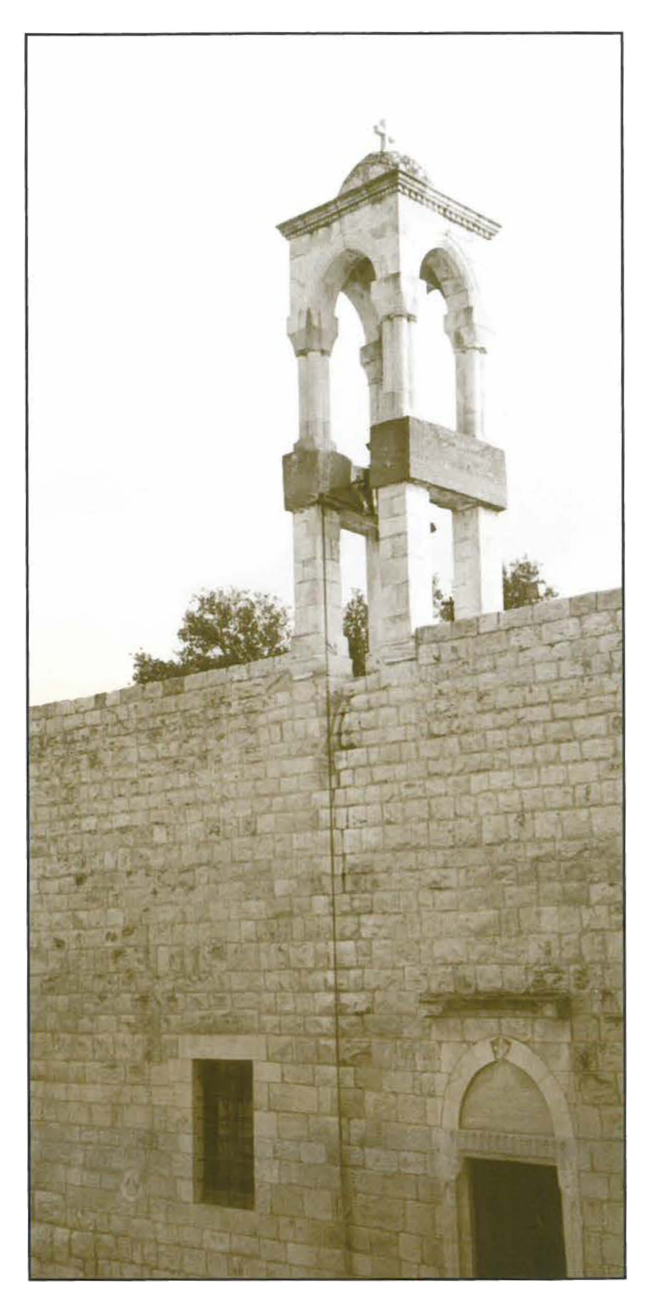
ترجمان ماروني واثنان من الشيعة

الرسالة الموسومة بالقسطنطينية. وبعث برسالة أُخرى يرد فيها على النصارى وهي الرسالة الموسومة بالرسالة المسيحية. ويُعزى إليه كتابة أربعة كتب من كتب الدروز الدينية مما يضعه في المقام الأول بين كتبتهم اللاهوتيين. وآخر من شرح رسائل بهاء الدين كان عبد الله التنوخي الذي يُعرف بـ "السيّد" (توفي 1480). ومزاره في بلدة عبيه هو مزار مكرم يفده ألوف الزوار فيقدمون له الهدايا ويوفون بالنذور. وتنّوخ كانت أصلاً قبيلة عربية مسيحية.

والأمراء التنوخيون قادوا "العشيرة المعروفية" (الدروز) في الجبل اللبناني من مطلع القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر. وآخر عمل تأريخي يتقصى أخبارهم كتاب سامي مكارم. "لبنان في عهد الأمراء التنوخيين" (دار صادر، بيروت، 2000)، الذي بدأ يسرد أخبارهم منذ أن ذكرهم بطليموس المتوفي عام 170. مورداً إسم حلف قبائل العرب، وهو "حلف أقامته قبائل الأزد وقُضاعة وكهلان ولخم. وغيرها، فعُرفت إثره بتنوخ" إلى قدومهم إلى لبنان وإقامتهم في الغرب في الجبل متعقباً أخبارهم. إلى أن يخلص (سامي مكارم) إلى الاستنتاج بأن التنوخيين "قاموا بدور رئيسي في بناء الشخصية المميزة لهذه البلاد: فحافظوا على هويتها اللبنانية العربية وكان لهم الفضل الكبير في إبقاء هذه البلاد جزءاً أساسياً من الدولة الجامعة ولكنهم عملوا كذلك على إبقائه جزءاً مميزاً. كما كان لهم الفضل الكبير في تكوين صفاتها اللبنانية ذات الفرادة الأصيلة القائمة على الانصهار الاجتماعي بين السكان على مختلف انتماءاتهم الدينية أو العرقية. ذلك إن ما شاهده اللبنانيون من منازعات قليلة بين القيسية واليمنية في القرنين السادس عشر والثامن عشر لم يكن موجوداً في عهد السيادة التنوخية".

الموارنة

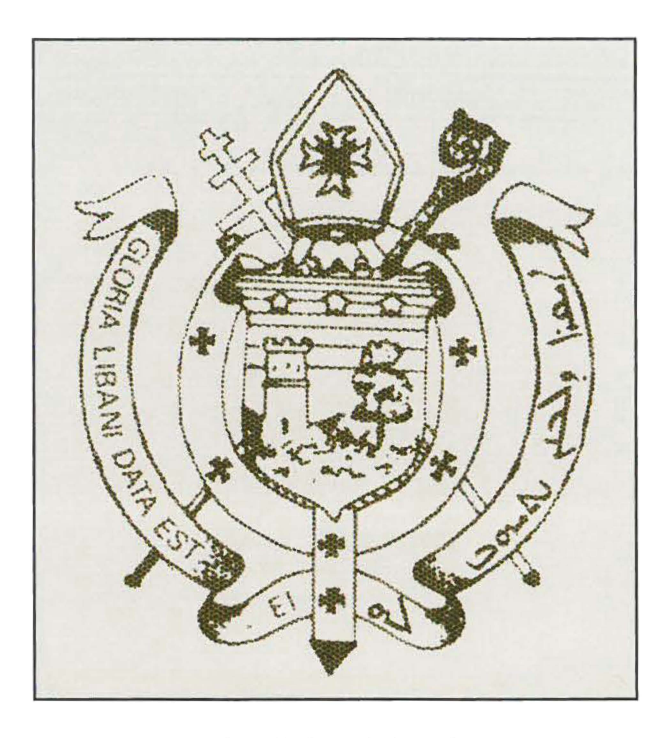
شكّلوا في الجزء الشمالي من الجبل. مجتمعاً طائفياً وسياسياً. وعلى أثر دمار دير مار مارون على العاصي (945). انتقلت الكرسي البطريركية المارونية إلى لبنان. وغدا البطريرك يقيم في مختلف أديرة جبل لبنان. ويسهر على شؤون الطائفة في لبنان وفي



كنيسة مارونية

سورية الشمالية (حمص، حماه، معرة النعمان، حلب وغيرها)، وفي قبرص.

وتحصّن الموارنة في الجبال الوعرة، وشكلوا جماعة مستقلة نسبياً، محتفظة بنظامها الخاص ذي الوجه الإقطاعي، بتوجيه من الكهنة ومن كبار مالكي الأرض. وقد بقيت السريانية، أي فصحى الآرامية، لغة للدين



شعار البطريركية المارونية

والأدب لدى موارنة لبنان، بسبب العزلة التي أطاحت بهم، والتي كانت، على كل حال مرغوبة منهم كعنصر مساعد في ضمان استقلالهم الذاتي النسبي في أعالي الجبال. فاستمروا يتكلمون السريانية جنباً إلى جنب مع العربية، حتى القرن الخامس عشر. فالأناجيل كانت مكتوبة باللغة السريانية مع ترجمة عربية لها بالحروف السريانية، وهذا ما يُسمى بـ "اللغة الكرشونية" (حتى أواسط القرن الثامن عشر. وكانت عدة قرى مارونية لا تزال تتكلم السريانية، وبخاصة في لبنان الشمالي).

طوائف مسيحية أخرى

بالإضافة إلى الموارنة، الذين أقاموا في لبنان الشمالي، مع بعض الجماعات اليعقوبية (أوالمونوفيزية، أتباعها يقولون بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح)، فإن طوائف لبنان المسيحية الأخرى تتمثل بدرجة رئيسية، بالملكيين، أتباع

الكنيسة الملكية في القسطنطينية. وانتشر هؤلاء في المدن والقرى الكبيرة. حيث كانوا يشتغلون بالتجارة أو يتعاطون حرفاً متنوعة. وكانت مراكزهم الرئيسة. في لبنان. في مناطق الكورة في الشمال والمتن في الوسط.

فبعد الانشقاق الكبير (1054) الذي أحدث الصدع الديني بين القسطنطينية وروما. تبعت الكنيسة الملكية بيزنطية. وعُرِف أتباعها بـ "الروم الأرثوذكس" وفي 1684. انفصل جزء من الملكيين (الروم الأرثوذكس) عن القسطنطينية ليلتحق بروما ويؤسس. في سنة 1771. كنيسة مستقلة (روم كاثوليك).

في عهد الصليبيين

السهولة التي تمّت بها السيطرة الغربية (الصليبية) على الواجهة البحرية لسوريا ولبنان وفلسطين تجد تفسيرها في أمور ثلاثة رئيسة: حميّة الأوروبيين العقائدية. خلافات وانقسامات القوى السياسية والعسكرية (في المنطقة المجزّأة بين أمراء مختلفين أتراك سلجوقيين وفاطميين وبربر. عدم مبالاة السكان الوطنيين بفعل ما عانوه من استعباد وطغيان على يد طغاة غرباء. فكان الاحتلال الصليبي. الذي دام من سنة 1098 إلى سنة 1291.

وعلى غرار الأسلوب الإقطاعي السائد في أوروبا في هذه الفترة. قسّم الصليبيون البلدان المحتلة إلى أربع دول فرنجية (صليبية): مملكة القدس كدولة رئيسة ذات سيادة. وثلاث دول إقطاعية تابعة: كونتية طرابلس وإمارة أنطاكية وكونتية إديسا (الرها) على ضفتي الفرات.

وقُسّم لبنان إلى قسمين متساويين تقريباً: القسم الجنوبي: الذي يبدأ من شمالي بيروت حتى الحدود الفلسطينية وكان يتبع ملك القدس. والقسم الشمالي الذي يمتد من شمالي بيروت حتى طرطوس وكان يؤلف مع عاصمته طرابلس منطقة كونتية طرابلس.

"أعاد الفرنج فتح الموانئ للتجارة الأوروبية... وكان هذا الحدث بدء ازدهار كبير دام قرنين... وقد انتشرت على الشواطئ الحصون والكنائس. وعلى القمم الأبراج العالية لمراقبة السواحل... لقد كانت الفترة الرومانية وحدها هي التي تذكر بمثل هذه الصورة للازدهار الاقتصادي... وحمل السلم الثروة بنسبة لم يسمع بمثلها لموانئ طرابلس وصور وعكا. فعادت وكأنها في العهد الفينيقي. مخازن لجميع تجارة الشرق. وهذا الإزدهار عمّ جميع سكان البلاد. الفرنج أولاً. ثم المواطنين الأصليين من مسلمين ومسيحيين على السواء" **(جواد بولس. ص 312: نقلاً عن Dunand, Byblos,p. 40-41).**

الصليبيون والمسيحيون

المؤرخ الشهير الأب اليسوعي لامنس Lammens هو من أكثر مَن كتب وأرّخ لعلاقة مسيحي لبنان. وبخاصة الموارنة. بالصليبيين. فنظر إليها على أنها كلها "وئام عظيم". إذ كان هناك مكان ممتاز محفوظاً للموارنة في نظام الدولة اللاتينية. فهم يأتون مباشرة بعد الفرنج. وقبل اليعاقبة والأرمن الذين كانوا يتقدمون على الإغريق والنساطرة والأحباش. كما نشأت العلاقات بين البطريركية المارونية وباباوية. روما. وكان "الموارنة بإمكانهم تجنيد أربعين ألف مقاتل". و "كما كان الأمر في العهد الإسلامي. فإن مسيحيي البلاد جهّزوا الإدارة المحلية بالعديد من الموظفين... وكان المسيحيون يقومون بتدريس العلوم والفلسفة والرياضيات والتنجيم. وهناك احتكار آخر كان يختص به الكهنة اليعقوبيون. هو ممارسة الطب... وكانت



مدينة عكّا التي وصلها لويس التاسع ولاقاه فيها أمير المردة

طرابلس قد بقيت، بنوع خاص، مركزاً علمياً مهماً، تجاوز شعاعه دار العلم التي أنشأها ابن عمار".

على أن مؤرخين آخرين يرون إلى هذه العلاقة على أنها لم تكن دائماً على "وئام عظيم"، بل تخللها توتر شديد وصل إلى العداء والمعارك العسكرية، وعلى أن فئات مسلمة وأمراء مسلمين قد بزوا الموارنة في علاقاتهم الجيدة مع الصليبيين، في أوقات كثيرة.

فعلى الرغم من طابع التحالف العام الذي طبع علاقات الموارنة بالصليبيين من منطلق ديني كان هو الأساس من منظور تلك الأيام، فإن خلافات ومعارك نشبت بين الفريقين، أكثر من مرة، متى كان ميزان التحالف، يختل ليأتي على مصلحة أبناء "المناطق العالية من الجبل، ومعظمهم من أبناء العشائر، فبقوا متحفظين تجاه الفرنجة، كما كانوا متحفظين من قبل تجاه المسلمين. ويبدو أنهم لم يأنسوا للتدابير الإدارية التي استحدثها أصحاب قومسية



الجيش الأجنبي والصراع فوق أرض لبنان

(كونتية) طرابلس لضبط أمور الجبل عن طريق التنظيم الإقطاعي. فكانوا بين فترة وأخرى يتحدّون الفرنجة ويثورون عليهم. وهناك ما يشير إلى أن عشائر الموارنة في أعالي لبنان تعاونوا مع أتابكة دمشق ضد فرنجة طرابلس عام 1137. وأسهموا في مقتل بونس Pons - قومس (كونت) طرابلس - في ذلك العام. فشنّ ريمون الثاني، وهو ابن القومس القتيل، هجوماً عليهم على الأثر وقتل أعداداً كبيرة منهم ثأراً لأبيه"

(كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص 75).

وفي زمن البطريرك دانيال الشاماتي (1230 - 1239)، خرج موارنة جبة المنيطرة وناحية لحفد، في أعالي بلاد جبيل، عن طاعة البطريرك وثاروا على الأمير الصليبي صاحب سنيورية جبيل من أسرة أمبرياتشي الجنويّة، فاضطر البطريرك إلى الانتقال من دير سيّدة


الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع

ميفوق إلى دير مار قبريانوس في كفيفان، ثم إلى دير مار يوحنا مارون في كفرحيّ، ثم إلى دير مار جرجس الكفر. ووصلت الخلافات ذروتها عام 1282 عندما توفي البطريرك الحدشيتي في ميفوق، فقام الموارنة الخارجين عن طاعة الفرنجة بانتخاب لوقا البنهراني (بنهران قرية في جبة بشري) بطريركاً عليهم، واتخذ البطريرك لوقا من قرية الحدث، في جبة بشري، مقراً حصيناً له، وأخذ يناهض الفرنجة في طرابلس، ويقطع عليهم دورب الجبل (الصليبي، ص94).

وفي الوقت الذي كان فيه البطريرك لوقا البنهراني، وعدد من المقدمين الموارنة، منهم سالم، مقدم بشري، يناهضون الصليبيين، كان سلطان المماليك، قلاوون، يوعز عام 1283 "إلى بعض عشائر التركمان في الشام بالإغارة على الحدث، من جبة بشري،

والقضاء على البطريرك الماروني المتحصّن فيها. وهو لوقا البنهراني. وقد وصف محيي الدين بن عبد الظاهر، واضع سيرة السلطان قلاوون، هذه الغارة بقوله، وبصريح العبارة:

"اتفق أن في بلاد طرابلس بطركاً عتا وتجبّر واستطال وتكبّر وأخاف صاحب طرابلس (الملك الصليبي) وجميع الفرنجة. واستغوى أهل تلك الجبال وأهل تلك الأهوية من ذوي الضلال واستمر أمره حتى خافه كل مجاور. وتحصّن في الحدث وشمخ بأنفه. وما قدر أحد على التحيّل عليه من بين يديه ولا من خلفه. ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرّب تلك البلاد. وفعل ذلك أو كاد. فاتفق أن النواب ترصدوه مراراً فما وجدوه. فقصده التركمان وتحيلوا عليه حتى أمسكوه وأحضروه أسيراً حسيراً. وكان من دعاة الكفر وطواغيهم واستراح المسلمون منه وأمنوا شرّه. وكان إمساكه فتوحاً عظيماً أعظم من إفتتاح حصن أو قلعة وكفى الله مكره" (الصليبي، ص 119: نقلاً عن ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، القاهرة، 1961، ص 47).

هذه كانت أهم أحدث فترات الخلاف بين الموارنة والصليبيين. أما عن تعاونهما وأوقات الوئام بينهما، "ففي البترون جرى أول اتصال بين الصليبيين والموارنة" (حتي، تاريخ لبنان، ص 347). وجاء من "أخبار الأعيان" ما حرفيته: "سنة 1099 قدمت الإفرنج من أنطاكيا إلى القدس. فلما وصلوا إلى عرقا وفد إليهم أناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية (أي إهدن وجوارها) وجبيل وتلك التخوم وترحّبوا بهم وسار معهم البعض وهدوهم الطرقات والمسالك حتى بلغوا القدس. وكانوا ينجدونهم في الوقائع والمعارك ويمدونهم بالميرة. وسنة 1111 قدم من العجم وبغداد جيوش كثيرة فزحف المردة إلى قتالهم عند شيرز

لويس التاسع

فانكفأوا إلى العجم ناكصين" (بطرس ضو، تاريخ الموارنة، ج3، ص 439 - 440: نقلاً عن أخبار الأعيان، ج1، ص 205).

"وكان للموارنة دور في فتح طرابلس حسب قول ابن الأثير: وأتى لمساعدة ريموند دي صانجيل سكان الجبل المجاور وأهالي الأرياف الذين كانوا بمعظمهم مسيحيين" (ضو، ج3، ص 440).

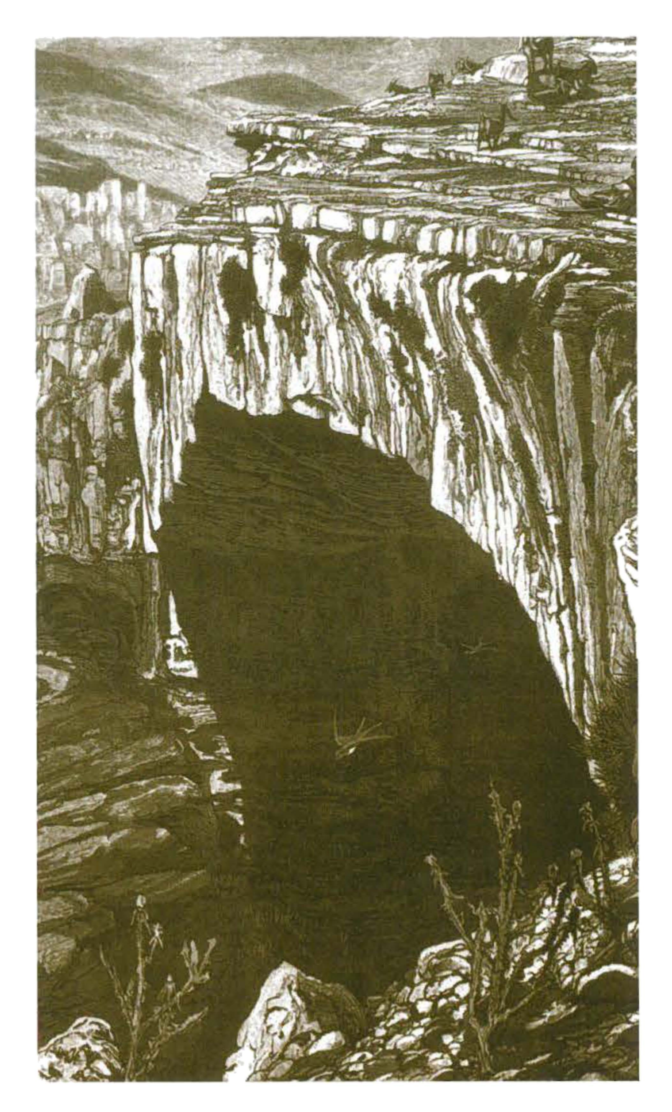
استمرت حال التعاون وتصاعدت مع مجيء الملك الفرنسي لويس التاسع على رأس حملة صليبية جديدة سنة 1250. ففي "سنة 1250 لما وصل لويس التاسع إلى عكّا أرسل إليه أمير المردة ولده سمعان ومعه خيل بخمسة وعشرين ألف مقاتل لنجدة



الملك. فلما أقبل الأمير رفع شأنه وتلقاه بالترحاب. وكتب إلى أمير الموارنة ورؤساء كهنتهم كتاباً مضمونه أولاً إظهار محبته للموارنة وثانياً امتداح ديانتهم واتحادهم دائماً مع خلفاء بطرس الرسول. وثالثاً تأكيد الحماية لهم منه ومن خلفائه وشعب فرنسا" (ضو. تاريخ الموارنة. ج3. ص 440-441. نقلاً عن أخبار الأعيان. ج1. ص205).

"ولما كان لويس التاسع في قبرص استقبله موارنة الجزيرة بالسرور والحماس وكان يبلغ عددهم عشرات الآلاف. ورافقه منهم خمسة آلاف جندي إلى دمياط في مصر ولم يرجع منهم إلا مائة وإثنان" (ضو. المرجع نفسه. ص 441. نقلاً عن ريستلهوبر Ristelhueber, Les Trad, Franç au Liban, p. 68).

و"لما حاصر الملك ظاهر طرابلس انحدرت إليه المردة من قمم الجبال فهزموه... (وبعد سنتين عاد لمحاصرة المدينة...) فانسكبت عليه المردة من قمم الجبال ففرّ هارباً إلى حصن الأكراد... وبعد نحو 17 سنة. أعاد الكرّة خلفه الملك قلاوون الذي أمر بغزو جبل لبنان لأن أهله كانوا نجدة الإفرنج الذين في السواحل... فأقاموا الحصار على إهدن وافتتحوها بعد أربعين يوماً... ثم ساروا إلى الحدث... فهرب أهلها إلى مغارة عاصية... فوقف أمير من الإسلام ثم أخذهم بالأمان وضرب فيهم بالسيف وهدم القرية... ولما رجع العسكر وتاب عن سوء فعله عمّر دير سيدة حوقا لسكنى الرهبان وهو بالقرب من البرج الذي كان في الشير. (وبعد نحو أربع سنوات. أي في سنة 1287) لما حاصر الملك قلاوون طرابلس انحدر إليه المردة وقتلوا



جسر الحجر - كسروان

من عسكره خلقاً كثيراً" (ضو، المرجع نفسه، ص 441-442، نقلاً عن أخبار الأعيان لطنوس الشدياق، ج1، ص 206، وعن اسطفان الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص 145-146). وهذا ما يبرهن على أن غزوة المماليك لإهدن، قبل أربع سنوات، لم تثن أعداداً من الموارنة في الاشتراك في معركة طرابلس1287. هذه المعركة أسهب في وصفها صالح بن يحيى في كتابه "تاريخ بيروت"، وطنوس الشدياق في "تاريخ الأعيان في جبل لبنان"، والدويهي في "تاريخ الأزمنة"، والقلاعي في الزجليات.

ومن هذه المراجع يُستفاد أنه جرى الإعداد لهذه المعركة ضد الموارنة طيلة ست سنوات ومن قبل سلطان المماليك في مصر ونائب دمشق والأميرين التنوخيين في الغرب وغيرهم، وأن جيوشهم الجرارة زحفت لاكتساح مواطن الموارنة. وعلى الرغم من انتصار المماليك في معركة طرابلس وانتزاعها من الصليبيين، فقد استمرت معارك الموارنة معهم، كما في معركة 1293 حيث جمع نواب وقادة دمشق وطرابلس جيوش الشام لمقاتلة "الجرديين وأهل كسروان".

الطوائف اللبنانية الأخرى والصليبيون

غلب الخلاف (والتوتر والحرب) على علاقات هذه الطوائف بالصليبيين. لكن، هناك ما يثبت أن فترات من التعاون قامت بين الطوائف اللبنانية المسلمة وبين الصليبيين.

يعيد الأب لامنس اضطهاد المماليك لهذه الطوائف بسبب ما قام "بين الموارنة والدروز والشيعة والنصيريين وبين الصليبيين من تعاون بالإضافة إلى الأسباب الطائفية والمذهبية المعروفة" (Henri Lammens, La Syrie, Bey., t.2, p.16).

وهذا المؤرخ جواد بولس (في كتابه "لبنان والبلدان المجاورة"، ونقلاً عن ابن الأثير، والكامل في التاريخ، أخبار سنة 491هـ وعن G. Wiet, L'Egyple Arabe, IV, p.59) يقول: "فعندما امتدت الموجة الصليبية الأولى نحو الجنوب، بعد انتزاع انطاكيا من أيدي الأمراء السلجوقين (1098) استقبلت، في البلاد التي اكتسحتها بلا مبالة من جانب الشيعة وبعطف من جانب المسيحيين. وقد أدان بعض المؤرخين العرب العلاقات التي نشأت، في هذه الفترة بين الفاطميين والصليبيين. فقد ذكر ابن الأثير ان الفاطميين كانوا قلقين من قوة جيرانهم السلجوقيين، الذين تركوا لهم في فلسطين مناطق لا قيمة لها. فاستحثوا الفرنج للتدخّل داعين إياهم لإقامة إمارة بين الدولتين (...)

ورغبة في إبعاد الفرنج عن عاصمته قام أمير طرابلس الفاطمي ابن عمّار بإرسال هدايا ومؤن لهم. وقد سار على خطاه أمير بيروت. كما أضافوا إلى ذلك وعداً بأن يبحثوا أمر الخضوع لهم بعد استيلائهم على القدس. ولم تكن الحالة أفضل في المعسكر السني(...) وإن الأمراء المسلمين الصغار كانوا يسالمون الفرنج من أجل مؤامرات يحوكها البعض منهم ضد الآخرين (...) كان مسلمو المناطق التي خضعت للفرنج يكوّنون الأغلبية بين سكان المدن ويتمتعون بحرية دينية كاملة حسب شهادة كتّاب العرب في تلك الحقبة. وفي رحلة ابن جبير، الذي لم يكن مطلقاً يعطف على الفرنج الكفّار ومغتصبي الأرض الإسلامية، نقرأ التسهيلات للمسلمين كي يستقرّوا ويقيموا في أراضي الكفّار وقد ذكر ان المسلمين والمسيحيين كانوا يتمتعون بالطمأنينة التامة على أشخاصهم وممتلكاتهم...".

في الفترة الأخيرة من العهد الصليبي، ومع الانتصارات التي استمرّ المماليك في تحقيقها (بعد الأيوبيين)، أخذت سياسة المماليك تتناول "إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقّة وضمّها إلى حظيرة السنّة. وذلك لأن بعض هذه الفرق الإسلامية أعانت العدو وهادنته. وقد قتل المماليك من الإسماعيلية والنصيرية والشيعة عدداً كبيراً. ويبدو أنهم كانوا أشدّاء أقوياء وان عددهم كان كبيراً في جميع أنحاء سورية" (حتي، تاريخ لبنان، ص 396 نقلاً عن ابن جبير). وقد هرب من الشيعة جماعات التجأت إلى جبال لبنان والبقاع ذلك لأن المماليك كانوا يرون إلى الشيعة خطراً سياسياً. "وقد حاول الملك الظاهر بيبرس (1260-1277) أن يُرغم النصيرية على بناء مساجد في قراهم، ولكنه أخفق في جعلهم يُصلون فيها. وعوضاً عن الصلاة فيها فإنهم حوّلوها إلى اسطبلات وزرائب



لماشيتهم..." (حتي، ص **398**. نقلاً عن ابن بطوطة). أما الدروز فلم ينظر المماليك إليهم نظرتهم إلى الشيعة والإسماعيلية. "ذلك لأن الدروز كانوا قد انحرفوا عن السنّة في قضايا لاهوتية فلم يُعتبروا أنهم يشكلون خطراً سياسياً على المسلمين. فإنهم عددياً كانوا أقلية صغيرة محصورة، وسياسياً لم يكن لهم أهداف تشكل خطراً على المسلمين. ولذا فلم يكن المماليك يرون إلى الدروز مشكلة ذات بال..." (حتي، ص **398**).

في عهد المماليك

خلفت دولة المماليك سيطرة الفرنج على لبنان (مطلع القرن الرابع عشر). وكان معظمهم من الأتراك والشركس المسلمين السنّة. وقد بقوا في السلطة حتى العام1517 حين تمت هزيمتهم على يد الأتراك العثمانيين. فبدأ، في تلك السنة (1516-1517) التاريخ الحديث للبنان والمنطقة.

وقسّم المماليك ممتلكاتهم في سورية إلى ست نيابات (أو ممالك) وكان نصيب لبنان أن قُسّم إلى ثلاثة أجزاء تلاشت في ثلاث نيابات، هي: نيابة طرابلس



دير مار أنطونيوس قزحيا في شمال لبنان حيث تحصّن المسيحيون


مدينة صور البحرية

وقد شملت طرابلس والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية إلى نواحي جبيل. ونيابة صفد وشملت لبنان الجنوبي وصور. ونيابة دمشق وشملت المقاطعات والمدن الباقية أي صيدا وبيروت وبعلبك والبقاع. وكان نواب (حكام) هذه الأقسام من "أرباب السيوف" مقابلةً لهم بـ "أرباب القلم" الذين هم من الموالي عند السلطان.

وقد رأينا انه في أواخر سنوات الصليبيين في هذه البلاد كان المماليك قد ركّزوا هجماتهم على طرابلس حتى سقطت في يدهم. وعلى معاقل الموارنة وخرّبوها. فنزحت جماعات منهم إلى جزيرة قبرص حيث بلغت جاليتهم هناك نحو 80 ألف نسمة. حتى

أنهم أقاموا (في 1340) مطرانية مارونية في الجزيرة.

خراب كسروان واقتطاعها

في سنة 1302 و1306 و 1307، كانت الحملات العسكرية التي وجّهها الملك المملوكي ناصر ضد كسروان من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان ومن أشدّها فتكاً وخراباً. وكانت كسروان آنذاك تمتد جنوباً إلى نهر بيروت وإلى جبل صنين وجبل الكنيسة، وكانت تشمل أيضاً منطقة المتن الشمالي والجنوبي، "وكان سكانها من الموارنة واليعاقبة والدروز والشيعة والنصيرية" (حتي، تاريخ لبنان، ص398). ويبدو أن الطوائف غير المسيحية المذكورة نمت وتكاثرت في كسروان عقب حدثين كبيرين عرفتهما كسروان على وجه الخصوص: الأول، في وقوف البطريرك الماروني لوقا البنهراني ضد الصليبيين، وقد تبعته كسروان في موقفه ذاك؛ والثاني، عندما توغّل في مناطق كسروان الفتوح نور الدين (1165) وبعده صلاح الدين (1186) وأخذا حصن المنيطرة، وبسبب توغلهما حتى المنيطرة من جهة كسروان دعيت المنطقة "الفتوح"، ولا تزال تدعى كذلك.

وفي الحملات المشار إليها (1302-1307)، فقد اشترك فيها "جنود من صفد وطرابلس ودمشق... وقد أفتى ابن تيمية - وكان من أعاظم فقهاء عصره في سورية - بأن الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين وانهم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم، واشتراك ابن تيمية نفسه في هذه الحملة" (حتي، ص 398؛ نقلاً عن صلاح الدين المنجد: ولاة دمشق في العهد العثماني، ص 6-7).

وبعد استيلاء دولة المماليك على كسروان، ولتأمين حماية الساحل من غزوات الفرنجة، نظم المماليك حراسة البلاد بواسطة جماعات متحركة من الأنصار، أدخلوا فيها تركماناً (آل عساف) وجماعات طورانية مختلطة، وأوكلوا إليها رقابة لبنان. ثم أضافوا إلى التركمان في ما بعد فرقاً من الأكراد لحراسة المنطقة الشمالية من الساحل، الواقعة بين بيروت وطرابلس. أما الدفاع عن بيروت والساحل الجنوبي، لغاية صيدا، فأوكلوه إلى أمراء الغرب البحتريين.

خلاصة أوضاع عامة في عهد المماليك

اطمأن المماليك لأوضاع السواحل والثغور اللبنانية بعد أن أخضعوا رؤساء العشائر ومقدمي القرى، وبعد أن ضعفت العلاقة بين الكنيسة المارونية والكنيسة اللاتينية بخروج الصليبيين. "ولم تمض فترة من الزمن حتى أخذ المماليك يسمحون للمرسلين الفرنسيسكان بالعودة إلى الأرض المقدسة. وذلك ولا شك تمشياً مع سياسة السلطة آنذاك بتقوية علاقاتها التجارية مع المدن الايطالية. فرجع بعضهم إلى بيروت... وبدأوا يقيمون الاتصال مع بطاركة الموارنة" (الصليبي، ص 115).

وفي "أخبار الأعيان"، لطنوس الشدياق، ما يفيد، مع شيء من التفصيل، عن المقدمين، حكام الموارنة، وعن مناطقهم، فكانت الأوضاع "حسنة إجمالاً". وفي ما عدا بعض الأحداث الدموية المتفرقة يمكن القول إنه "بتقتيل النصيرية وإبعادهم عن لبنان، وبإيقاف توسّع الشيعة والدروز، هيّأ الحكم المملوكي، من غير قصد منه، السيطرة للعنصر المسيحي في لبنان" (جواد بولس، ص 332).

ويلتقي المؤرخون على اعتبار أن أوضاع الموارنة عادت إلى التحسّن بعد العام 1382، مع السلطان الظاهر برقوق، رائد دولة المماليك البرجية، حيث تمكن مقدم بلدة بشري (يعقوب بن أيوب) من فرض سيطرته على كامل جبة بشري، وأصبح أقوى زعماء الموارنة في المملكة (النيابة) الطرابلسية. ووصف الرحّالة العرب

والسيّاح الأجانب الحالة الاقتصادية للمناطق اللبنانية عموماً، ولمناطق الموارنة في الجبال الشمالية خصوصاً، على أنها كانت حسنة ومزدهرة. وكانت أديرة الرهبان مراكز التعليم والتثقيف.

عند نهاية عهد المماليك، كان لبنان لا يزال ملجأ، كما في الماضي، لمختلف الأقليات. وبقيت جماعات لبنان السياسة - الطائفية تحتفظ، كل منها (وبخاصة الموارنة وبني بحتر والدروز) برئيسها المحلي المستقل تقريباً والتابع لنائب طرابلس أو دمشق المملوكي. وكانت صفوف الدروز توحّدت "في الأشواف على يد السيد جمال الدين عبد الله التنوخي. ووضع كل من الطائفتين (الموارنة والدروز) مستقر، على وجه العموم، تبعاً للاستقرار الذي ساد معظم الأنحاء (السورية) في ظل دولة الجراكسة. وقد جاء هذا الاستقرار في نمط العيش في الأرياف اللبنانية آنذاك، بالفعل، متمماً لاستقرار مماثل على الأقل في أوضاع دمشق وغيرها من المدن (...) والواقع أن الجزء المدوّن والمعروف من تاريخ سورية في تلك الفترة يكاد أن يقتصر على تاريخ هذه المدن، وعلى تاريخ الريف اللبناني حيث برز دور الموارنة والدروز بعد القرن الرابع عشر بشكل واضح، وبقي طاغياً بعد الفتح العثماني للبلاد على معظم الأدوار الباقية" (الصليبي، ص 169-170).

وقد استمرّ النظام الإقطاعي في لبنان، سواء لدى الموارنة أو لدى الدروز، مميزاً. "أما الفلاّحون والعمّال اللبنانيون الذين كانوا يعملون في الإقطاعات فلم يكونوا أقناناً كما كان الفلاّحون والمزارعون في سورية ومصر. إنهم كانوا أحراراً ينتقلون من إقطاع إلى آخر وكان لهم أن يؤثروا إقطاعياً على إقطاعي آخر فينتقلون إلى خدمته... والإقطاع في لبنان كان صغيراً يشمل قرية إلى عشر قرى موزعاً بين العائلات اللبنانية الأرستقراطية. وكانت حصة المزارع (ويسمّونها المقاسمة) جزءاً معيناً من الغلة..." (حتي، ص 408-409؛ نقلاً عن صالح بن يحيى، ص 181).

لبنان الحديث



لمحة عامة

بدأ تاريخ لبنان الحديث (وكذلك تاريخ المنطقة)، في ما هو متعارف عليه، بانتصار العثمانيين على المماليك (في معركة مرج دابق 1516، وإخضاع المماليك في مصر 1517)، وانتهى، بالنسبة إلى تاريخ لبنان، بعد الحرب العالمية الأولى، وبخاصة جرّاء حدث إعلان دولة لبنان الكبير سنة 1920.

وقفت الامبراطورية العثمانية على قدم وساق، من

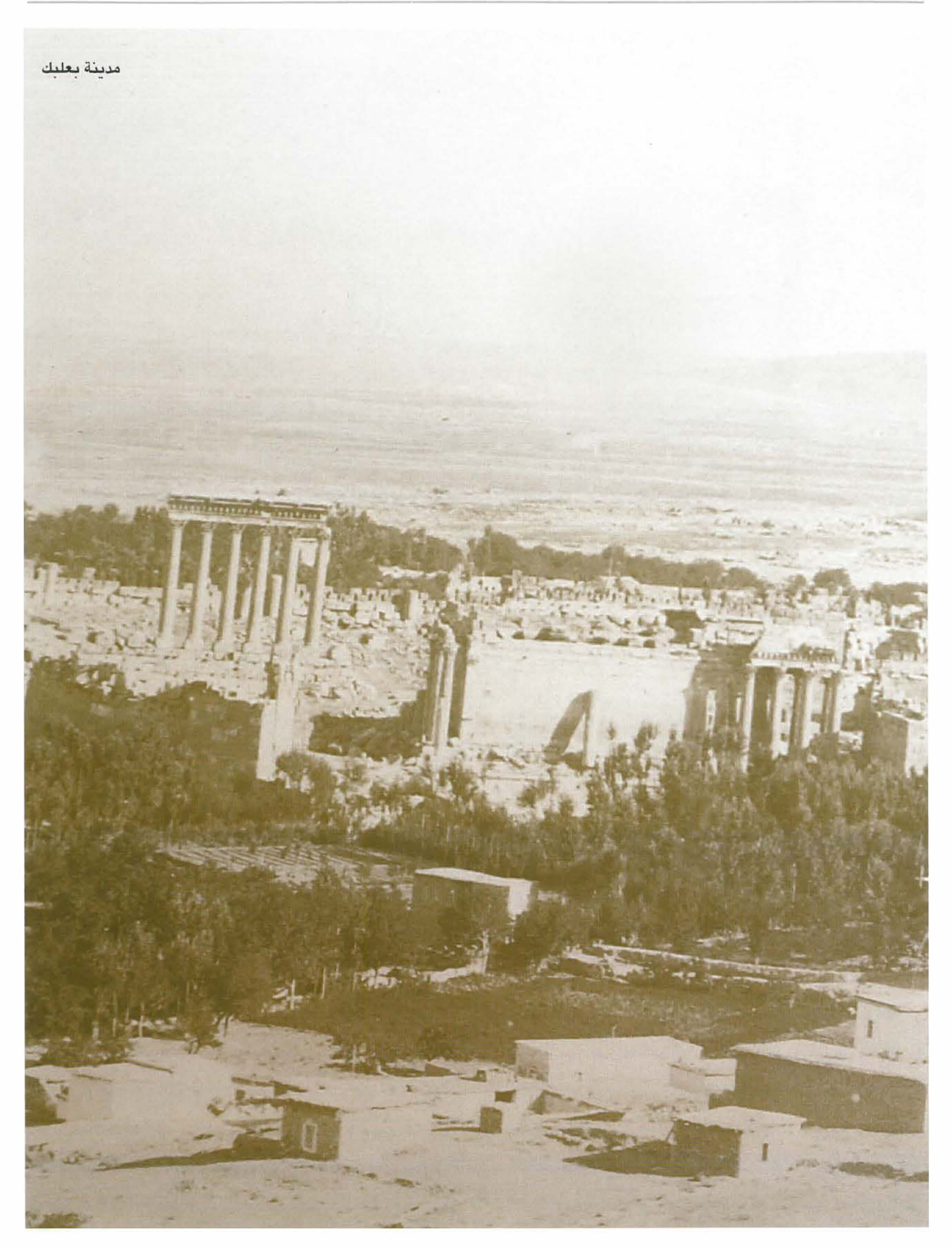

طريق دمشق

ناحية القوة العسكرية، مع أعظم الامبراطوريات في التاريخ البشري حتى تاريخ قيامها. فالسلطان سليمان كان يخاطب ملك فرنسا، فرنسوا الأول، بـ "أنا سلطان السلاطين وملك الملوك مانح التيجان للملوك وظل الله على الأرض... إليك أنت فرنسوا ملك فرنسا..." (حتى، ص 446 : نقلاً عن **Roger B. Merriman, Suleiman the Magnificent, Cambridge, 1944, p130.**). والأتراك العثمانيون، بقوتهم العسكرية والسياسية من جهة، وافتقارهم إلى مستوى حضاري متقدم فكراً وثقافة من جهة ثانية، يشبهون إلى حد كبير بالنسبة إلى الحضارة العربية الرومان بالنسبة إلى الحضارة الاغريقية. "فلا عجب، إذن، من قول ريتشارد نولز (Knolles) انه: ... في


الشوف

الوقت الحاضر. إذا اعتبرت قيام هذه الامبراطورية العثمانية، وتقدمها، وأمجادها المستمرة، فإنك لن تجد في هذا العالم أمراً يثير الدهشة والإعجاب أكثر مما تثيره هذه الامبراطورية... التي تهزأ بالدنيا وترعد فتمطرها دماً وخراباً. وهي شديدة الاقتناع بأنها ستسود العالم بأسره، وبأنها هي التي ستضع حدوداً لملكها، ولن تكون هذه الحدود إلا في أقاصي المعمورة، من مشرق الشمس إلى مغربها» (زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر، ط 1972، ص 15-16).

وبالرغم من السلطة المركزية التي اعتمدها العثمانيون، فإن تاريخ لبنان بدأ، في عهدهم ينتهج



مدينة بعلبك



مدينة طرابلس

نهجاً أكثر خصوصية بلبنان عما كان بين الفتح الإسلامي في القرن السابع وبين الفتح العثماني في القرن السادس عشر. وفي الحالين استمرّ لبنان في إطار حدود سلطة كبرى وتابع لها مع هامش من التمييز باتجاه استقلال ذاتي لجماعاته. مع المعنيين والشهابيين، وبعدهما مع نظامي القائمقامية والمتصرفية. فاستمرّ "الجبل اللبناني يفتح صدره لكل من يثور على ظلم الباشاوات (الباشا رتبة عثمانية). وقد أصبح الملجأ الأخير للاستقلال السوري. وكان الأمراء المحليون يقاومون، تارة بنجاح وطوراً بهزيمة. فيحافظون على نوع من الاستقلال الذاتي تجاه السلطة المركزية" (Lammens, La Syrie, II.P.63).

ولا يعيب مثل هذا التاريخ للبنان، المتصل والمترابط، على تمايز، بتاريخ المنطقة، مفهوم

استقلال لبنان، ومفهوم أي استقلال في المنطقة، بأية شائبة. فما "ينطبق على موضوع تاريخ لبنان من هذه الناحية ينطبق أيضاً، وبالطريقة ذاتها، على غيره من الموضوعات التاريخية. فتاريخ فرنسا وألمانيا وايطاليا في العصور الوسطى، مثلاً، لم يكن تاريخاً فرنسياً وألمانياً وايطالياً بقدر ما كان تاريخاً فرنجياً مشتركاً من جهة ومجموعة من التواريخ الإقطاعية والمحلية من جهة أخرى. وتاريخ العرب والفرس والأتراك في ذلك الزمن بالذات لم يكن تاريخاً عربياً وفارسياً وتركياً بقدر ما كان تاريخياً إسلامياً من ناحية، ومجموعة من التورايخ الاقليمية والعشائرية من ناحية أخرى" (كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص 174).

والواقع أن تاريخ الجبل اللبناني وحده، من بين مناطق البلدان المجاورة، هو التاريخ "القابل للرواية بشكل متسلسل متكامل بالنسبة إلى ذلك الزمن. ويعود الفضل في ذلك إلى اهتمام بعض الدروز والموارنة آنذاك، كل فريق من ناحيته، بتدوين بعض الوقائع المختصة بطائفته من هذا التاريخ. وهذا ما لم يفعله غير الدروز والموارنة من بين أبناء المنطقة سواء في العصور الوسطى أو في الأزمنة اللاحقة... ولم يكن بروز الكيان التاريخي اللبناني خلال الفترة العثمانية إلا نتيجة للقاء الذي تمّ بين المسيرة التاريخية المارونية من ناحية، والمسيرة التاريخية الدرزية من الناحية الثانية، وذلك في بداية القرن السابع عشر، وضمن أوضاع داخلية وخارجية. فجاء تاريخ هذا الكيان، انطلاقاً من الأحداث والتطورات السابقة. وهل التاريخ في نهاية الأمر إلا الاستمرار!؟" (الصليبي، ص 174-175).

وضع إداري وطائفي عام في القرن السادس عشر

"كان الحكم العثماني في لبنان حكماً أقل مباشرة



غزير مركز حكم آل عساف

مما كان عليه في سورية" (حتي، ص 439). وقد أبقى الأتراك على التقسيمات الإدارية التي أنشأها المماليك، ولكنهم سمّوا النيابة "إيالة" ثم "ولاية". وتجزّأ لبنان بين ولايتي طرابلس ودمشق. وفي العام 1660، أعلنت صيدا ولاية، لمزيد من التقسيم و"لقطع

الطريق على اللبنانيين ولإخماد الروح الاستقلالية فيهم" (حتي، ص 440؛ نقلاً عن أحمد عبد الكريم، التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني، القاهرة، 1951، ص 129).

اعتبر العثمانيون، الذين كانت دولتهم إسلامية تيوقراطية في جوهرها، الشعوب المغلوبة على أمرها، لا سيّما إذا كانوا من غير المسلمين، رعايا يدبرون أمورهم بالطريقة التي تعود بالنفع على الغالب. فاعتبروا رعايا من الدرجة الثانية. وصنّف العثمانيون الرعايا المسيحيين بحسب الكنائس. فكان أصحاب الطقس الإغريقي (من بلغار وصرب وألبان ورومانيين والعرب الملكيين) يعتبرون من الأروام أي "ملّة الروم".

وكما في العهود السابقة، كان الجبل لا يزال مقسماً إلى ثلاث مناطق: الشمال بدءاً من الأرز، وكسروان من ضمنها، ويسكنها الموارنة؛ والوسط (الشوف والغرب) ويسكنها الدروز؛ والجنوب (بلاد بشارة أو جبل عامل) ويسكنها الشيعة. وكان يحكم هذه المناطق رؤساء محليون يخضعون لباشوات طرابلس ودمشق العثمانيين.

ومنذ سيطرة المماليك وبعدهم العثمانيين (وكانوا من السنّة) تفوق عدد السنّة المحليين في المدن الساحلية.

وبخلاف تنظيم الدروز الاجتماعي، حيث السلطة الإقطاعية ثابتة ومتينة، كان تنظيم الموارنة الإجتماعي موزعاً بين عدة رؤساء إقطاعيين محليين يدعون "مقدمين".

وبينما كانت المنطقة الجنوبية الشيعية تتابع تطورها على انفراد، ألّفت المنطقتان الشمالية والمتوسطية، خلال القرن السادس عشر، نوعاً من الاتحاد، حيث اجتمع شمل الطائفتين، المارونية والدرزية، للحرب الدفاعية، وشكلت نواة الإمارة المعنية ثم الشهابية، وفي ما بعد متصرفية جبل لبنان. وعدا هذا التعاون في الحقل السياسي والعسكري، فإن كل طائفة عاشت منعزلة تحصر، بوجه عام، علاقاتها بالأخرى في التبادلات التجارية.

وفي القرن السادس عشر أيضاً، برز حكم آل عساف في كسروان، الذين امتدّت ممتلكاتهم من ضواحي بيروت إلى عرقة شمالي طرابلس، وكانت غزير مركز حكمهم. وفي أيامهم، ازدهرت مناطق كسروان اقتصادياً كما لم تزدهر من قبل. فأتت جماعات من الشيعة من مناطق بعلبك وتوطنت في فاريا وحراجل، وجاء مسلمون سنيون من البقاع واستوطنوا ساحل علماً وفيترون، وانتشر دروز المتن في قرى عديدة،وغادرت طرابلس جماعات من الموارنة ونزلوا في عرمون (في كسروان) والكفور ومنطقة الفتوح.

وبموت الأمير محمد عسّاف (1590) انتهى عهد بني عساف، بعد حكم دام 242 سنة، وانتقل إلى منافسيهم بني سيفا في عكار الذين كانوا قد اتخذوا طرابلس مقراً لهم، وفي عهدهم، كان معظم مقدمي الموارنة يأتمرون بأمرهم.

هذا المشهد العام للبنان القرن السادس عشر يمكن اعتباره إطاراً مساعداً لفهم بداية مسار لبنان الحديث مع الإمارة الأهم والأقوى، والإمارة المعنية التي قدّمها العثمانيون على باقي أمراء وحكام وإقطاعيي لبنان.

المعنيون

عند الفتح العثماني (1516)، كان عدد لا يُحصى من الأمراء والعائلات الحاكمة الكردية والتركمانية والمحليين، من السنّة والشيعة والدروز والموارنة، يتقاسمون الأراضي اللبنانية. وفي لبنان الأوسط، كانت عائلتان إقطاعيتان درزيتان تتنازعان الأولية: بنو بحتر، وهم فرع من قبيلة التنوخيين العربية الذين أقاموا منذ القرن الثامن في الغرب (شرقي بيروت)، وبنو معن، وهم قبيلة أيضاً، استقروا منذ القرن الثاني عشر في الشوف. وتمكن فخر الدين المعني الأول، وكان يقيم في دير القمر، وبفضل حماية السلطان العثماني سليم الأول، إلى اقصاء منافسيه البحتريين الذين وقفوا إلى جانب المماليك في حربهم ضد العثمانيين.

أما ابنه وخليفته الأمير قرقماز فقد أثار غضب الأتراك، فقتله باشا دمشق (1585). وكان قرقماز يكنّ كرهاً شديداً لهم، إذ كان باشا دمشق أيضاً قتل والده ظلماً وخيانة 1544). وترك قرقماز إبناً هو الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير.

فخر الدين المعني الثاني الكبير

لأن فخر الدين "كان ينوي أولاً استلحاق المناطق المتاخمة للشوف بإمارته، ثم جمع كل الطوائف اللبنانية في شعب واحد. وقد كانت إلى ذلك الحين مشتتة ومتحصنة وراء حدودها الطائفية" (د. عادل إسماعيل).

ولأن حياته تُختصر بحرب "تدور رحاها، بلا مهادنة، ضد أعداء عائلته، ونضاله المستمر في سبيل استقلال لبنان،



هذا النضال الذي لم يقدر على تثبيط عزيمته فيه النفي أو الإخفاق" (لامنس).

ولأنه كان يردّد: "بما أننا قد وضعنا نصب أعيننا هدفاً لن نحيد عنه، ألا وهو استقلال بلادنا وسيادتها، فإننا قد عقدنا العزم على أن لا نتأثر بما يعرض علينا من وعود أو تهديدات. (وفي رسالة إلى اللبنانيين قال): "إن المفاوضة بين فريقين غير متساويين من حيث القوة ضرب من الاستجداء. وعليه فإني أشور عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم أولاً هذا إذا أردتم أن تنالوا استقلالاً محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب" (حتي، ص 460، نقلاً عن أنيس النصولي، رسائل الأمير فخر الدين، بيروت، 1946، ص16).

ولأنه، باختصار، رجل استقلال لبنان ووحدة أبنائه وغير متعصّب لطائفة على حساب أخرى، أحبّه اللبنانيون، وتعلّقوا به، أخصهم الموارنة والدروز. ففي "أيام فخر الدين الكبير ارتفعت رؤوس النصارى، وعمّروا الكنائس... وقدم المرسلون من الإفرنج وسكنوا جبل لبنان، وكان أكثر عسكره من النصارى ومدّبريه وخدمه موارنة..." (بطرس فهد، بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن17، بيروت 1984، ص 5: نقلاً عن كتاب "الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان" للأمير المؤرخ حيدر الشهابي، ص 418).

أما محبة اللبنانيين له حتى اليوم فبسبب هذا اللقاء التاريخي المستمر بينه وبينهم حول الدولة التي حققها فعلاً. "فدولة فخر الدين اللبنانية، الخليفة البعيدة لفينيقيا القديمة والسلف القريب للبنان المعاصر، إنما هي في الواقع تكوين سياسي عضوي قابل للحياة تاريخياً" (جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، ص 357).

وأما عن مواقف الطوائف اللبنانية وأوضاعها مع نهاية فخر الدين فيمكن إيجازها بهذه الكلمات: "كتب أوجين روجيه نهاية فخر الدين بدقة وبطريقة مختلفة



الأمير فخر الدين الثاني المعني في الغرب

عن غيره قال: "عندما انقلب دولاب الحظ ضد فخر الدين تخلّى عنه أولاً المسلمون الذين كانوا في خدمته، ثم تبعهم في ذلك الروم. وعاد الموارنة إلى لبنان يعتصمون في جباله. أما الدروز فقد استسلم منهم قسم كبير إلى باشا دمشق فراح هذا الأخير يوزّعهم على قلاع المدن التي تحت حوزته كقلعة عكا وقلعة صيدا وقلعة بيروت..." (بطرس فهد، المرجع المذكور، ص53: نقلاً عن المؤرخ المستشرق الألماني فوستفيلد).


بيت الدين

تحفل كتب التاريخ، المدرسية وسواها، بتفصيلات كثيرة حول سياسة الأمير فخر الدين وحروبه وتوسيع رقعة إمارته وانتصاراته وانكساراته وتحالفاته وشخصيته... يهمنا منها ذكر ثلاثة أمور:

الأول، أن هذا القسم من المنطقة، الذي يمكن أن نسميّه "لبنان الكبير"، دخل في عهد من النهضة. فتمّ تشجيع الزراعة، وكانت صناعة الحرير الذي كانت أوروبا تتنازعه، مع زراعة الزيتون التي كانت تغذي معامل الصابون، تعودان على الأمير بأرباح كبيرة؛ وبلي الزراعة اهتمامه بإحياء التجارة، فاستعادت بيروت وصيدا، حيث كان الأمير يقيم بالتعاقب، دورهما القديم كعاصمتين تجاريتين وبحريتين، وأصبح مرفأ صيد أكثر مرافئ سورية ازدهاراً.

والأمر الثاني: ان السبب الرئيسي لهلاك الأمير فخر الدين، على ما يرى أكثر المؤرخين، ليس فقط بصفته رئيساً لإمارة لبنان واستقلالي النزعة، بل الأهم بسبب فتوحاته العسكرية خارج الحدود اللبنانية، الأمر الذي أثار عليه الباشوات والأمراء المحليين المتمسكين بمصالحهم.

والأمر الثالث: "أن الأمير المعني يخص تاريخ سورية بقدر ما يخص تاريخ لبنان. وتطغى شخصيته على جميع الوجوه الثانوية التي كانت تتحرك حوله. لكن لم يفلح في توحيد عملها لصالح الاستقلال السوري. إن أحداً لم يفهم عظمة هدفه. فنزعاتهم الإقليمية، هذا الداء السوري القديم، تسببت بهلاك الأمير اللبناني، أكثر بكثير من موهبة جيوش أحمد باشا..." (جواد بولس، ص 385؛ نقلاً عن Lammens, La Syrie, 89-90 (II,p.).

الشهابيون

في العام 1698، اجتمع أعيان البلاد في السمقانية، من بلاد الشوف، لكي يختاروا خلفاً لآخر الأمراء المعنيين. فوقع اختيارهم على أمير من الطائفة السنية يدعى حيدر من آل شهاب الذين كانوا يحكمون منطقة وادي التيم، وحفيداً من جهة أمه لآخر الأمراء المعنيين. ويتحدر الشهابيون من أصل عربي، جاءوا إلى لبنان من حوران واستقرّوا في وادي التيم في القرن الثالث عشر.

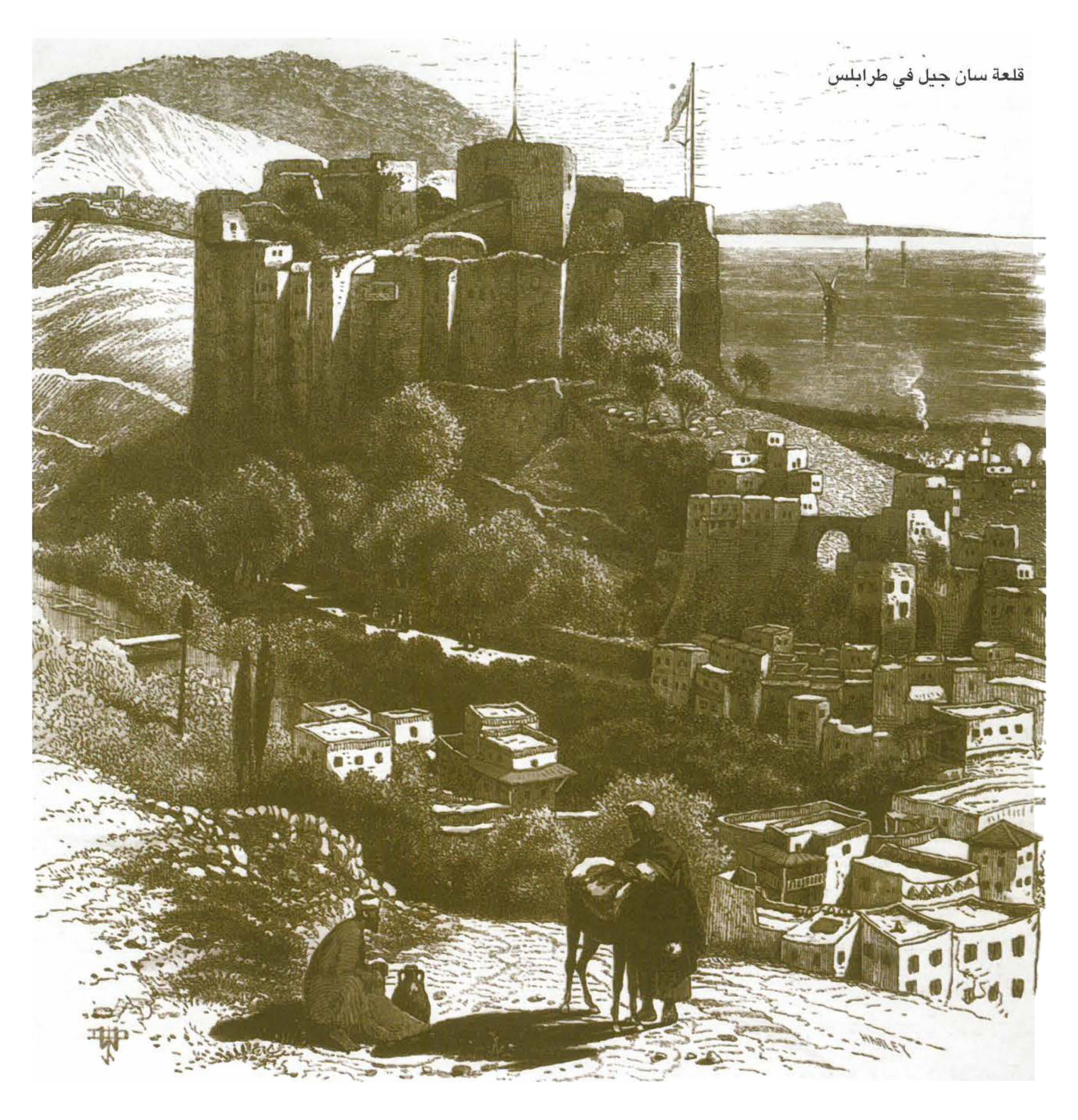
لم يمتد سلطان الأمير حيدر وخلفائه، حتى سنة 1770، إلى أقاليم لبنان الجنوبي وطرابلس ولبنان الشمالي التي كانت تتطور على حدة منذ سقوط فخر الدين الثاني (1635). فكان لبنان الجنوبي خاضعاً مباشرة لحكم باشا صيدا العثماني، وطرابلس لحكم باشا طرابلس، ولبنان الشمالي لسيطرة مقدمي الموارنة.

وفي 1770، عقد مؤتمر للأعيان (مؤتمر الباروك)، فاغتنم الأمير يوسف الشهابي (1770-1788) الخلافات الداخلية، وسانده باشا طرابلس وموارنة لبنان الشمالي وحزب الجنبلاطية، فأصبح أميراً على جميع الجبل. وقد ثبت الباب العالي هذا الانتخاب.

وما ساعد على هذا الخيار في مؤتمر الباروك أن الشهابيين نجحوا في الحفاظ على اتحاد الطوائف اللبنانية، وبخاصة الموارنة والدروز. كما انتصروا في معركة عين دارا ضد الحزب اليمني الذي هاجر عدد كبير من مناصريه إلى سورية حيث كوّنوا النواة الأولى للطائفة الدرزية في حوران وفي جبل الدروز. وكان بعض أبناء الأمير ملحم (1732-1754) قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي في أجواء "تفوق الموارنة بعددهم وبتطورهم الفكري. ويعود الفضل بهذا التطوّر إلى جهود المرسلين وإلى علاقاتهم المستمرة بأوروبا. وما لبث تحوّل الأمراء إلى المسيحية أن وطد نفوذ المسيحيين السياسي وأشركهم بالحكم في لبنان" (Lammens, La Syrie, II, p100).

أوضاع الموارنة والدروز والشيعة في القرن 18 (قبل وصول بشير الثاني الكبير)

المرجع الرئيسي، الذي لا يزال يفرض نفسه على مؤرخي ودارسي تلك الفترة، هو كتاب الرحالة والعالم الموسوعي والفيلسوف الفرنسي قسطنطين فرنسوا ڤولني Volney: "رحلة إلى مصر وسورية" (Voyage en Egypte et en Syrie). وقد جاء ڤولني إلى لبنان عام 1783، حيث مكث بعضة أشهر وتعلّم



قلعة سان جيل في طرابلس

اللغة العربية. وقد قيل في كتابه إنه "رواية موضوعية محضة وهي بمثابة تحقيق علمي مطابق للحقيقة". وفي توصيفه لأوضاع الطوائف الثلاث، يقول، في جملة ما يقول: "بوحدتهم، صان الموارنة أنفسهم وممتلكاتهم من الاستبداد والاضطرابات. ويمكننا اعتبار هذه الأمة كأنها مقسومة إلى طبقتين: الشعب والمشايخ، وكلهم يعيشون في الجبال، موزّعين في قرى وضياع وحتى في بيوت منفردة. والأمة برمّتها تعيش من الزراعة، وأي منهم لا ينقصه شيء من الضروريات. والسفر، في الليل أم في النهار، يتم بأمن غير معروف في باقي أنحاء الامبراطورية، وطبقاً لعادة أساسها الحذر وأوضاع البلاد السياسية، يمشي


دير في طرابلس

جميع الرجال، شيوخاً وفلاّحين، مسلحين دائماً بالبنادق وبالمدى. وفي الأمور الدينية، يخضع الموارنة لروما، والإكليروس عندهم لا يزال، كما في الماضي، ينتخب رئيساً يلقّب ببطريرك أنطاكيا. وكهنتهم يحتفلون بذبيحة القداس باللغة السريانية التي لا يفهم معظمهم كلمة واحدة منها، ويتلى الإنجيل وحده باللغة العربية لكي يسمعه الشعب. ولا يحتفل في أوروبا بالطقوس الدينية بتجمّع وحرية أكثر مما في كسروان. ونظراً إلى انضواء الموارنة إلى روما، أعطاهم البابا مقراً في مدينة روما، حيث يستطيعون إرسال عدد من الشبان ليتلقوا تربية مجانية. والفائدة القصوى التي نتجت عن هذه الأعمال الرسولية هي

أن فن الكتابة شاع عند الموارنة أكثر من غيرهم، وبهذه الصفة شغلوا جميع مناصب الكتّاب والنظار عند الأتراك، وبخاصة عند الدروز حلفائهم وجيرانهم".

أما الدروز، على ما يقول ڤولني: "فشعب صغير يشبه كثيراً الموارنة في نمط حياته وبشكل حكمه وباللغة والعادات. والفرق الأساسي بينهم إنما هو الدين. وينقسم الدروز، كالموارنة، إلى طبقتين: الشعب والأشراف الملقبين بالمشايخ وبالأمراء، ووضعهم العام هو العيش من الزراعة. وسواء أكانوا شركاء أم ملاكين، يعيش كل واحد منهم على أرضه من زراعة التوت والكروم، والأملاك الكبيرة التي لبعض العائلات تعطيها نفوذاً يؤثر في جميع حياة الأمة.

وفي شرق بلاد الدروز، وفي الوادي العميق (البقاع) الذي يفصل جبالهم عن جبال بلاد دمشق، يعيش شعب آخر صغير يعرف في سورية باسم "المتاولة". وهناك زعم بأنهم يعيشون منذ زمن بعيد بشكل أمة في هذه المنطقة، وقبل أواسط هذا القرن (القرن 18)، لم يكونوا يملكون إلا بعلبك، عاصمتهم، وبعض الأقضية في الوادي وفي جبال لبنان الشرقية، التي يبدو أن أصلهم منها. وفي هذا العهد، نجدهم يحكمون كالدروز، أي أنهم ينقسمون تحت سلطة عدد من المشايخ، يرئسهُم زعيم أكبر من آل حرفوش وبعد عام 1750، امتدّوا إلى أعالي البقاع وتوغّلوا في لبنان، حيث احتلوا أراضي كانت للموارنة، حتى جوار بشري، وضايقوهم بغاراتهم المسلحة، حتى اضطّر الأمير يوسف (الشهابي) إلى مهاجمتهم وطردهم. ومن ناحية أخرى، تقدموا في توسعاتهم بمحاذاة نهرهم (الليطاني) حتى ضواحي صور. وبعد وقت وجيز (حوالى عام 1760) احتلوا صور، وجعلوا من هذه القرية مستودعاً بحرياً. وفي عام 1771، دخلوا في خدمة علي بك (سيد مصر) وضاهر (سيد فلسطين) ضد العثمانيين. ومنذ عام 1777، لم يتوقف الجزار (سيد عكا وصيدا) عن العمل لإفنائهم، حتى أن اضطهاده لهم أرغمهم، عام 1784، على مصالحة الدروز ومحالفة الأمير يوسف (الشهابي) لمقاومة الجزار. ومع أنه لم يعد لديهم سوى أقل من سبعماية بندقية، فإنهم عملوا في هذه الحملة أكثر مما عمله خمسة عشر أو عشرون ألف درزي وماروني قرب دير القمر؛ لكن شقاق الرؤساء الدروز أجهض جميع العمليات الحربية، حتى انتهى الأمر باستيلاء الباشا على الوادي بكليته وعلى مدينة بعلبك بالذات.

أما عن أوضاع الحكم، أو الحاكم أو الأمير، فيقول ڤولني (تبعاً لما نقله عنه حرفياً جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، ص 366):

"أما وظيفة الحاكم فقوامها الحفاظ على النظام العام... وهو رئيس القضاء ويعين القضاة... ويجمع الضرائب، التي يدفع منها كل سنة الى الباشا مبلغاً يحدد سنوياً. ويتغير هذا المبلغ على قدر ما تستطيع الأمة أن تفرض هيبتها... ولزيادة الضرائب... ينبغي موافقة الأشراف الذين يحق لهم الاعتراض عليها. كما ان موافقتهم لازمة لإعلان الحرب أو لعقد السلم. وفي هذه الحال يكون على الأمير أن يدعو إلى اجتماعات عامة لشرح الأوضاع. وكل شيخ، أو فلاح يحظى بمكانة لرجاحة عقله أو لشجاعته، يحق له الإدلاء بصوته في هذه الاجتماعات. وهكذا، باستطاعتنا اعتبار الحكم مزيجاً متوازناً من الأرستقراطية والملكية والديموقراطية.

"لا الأمير الأكبر ولا الأمراء المحليون يحتفظون بجيوش... وفي الحرب، كل إنسان بإمكانه حمل السلاح يكون مدعواً للقتال، شيخاً كان أم فلاحاً... وفي الإحصاءات الأخيرة، ارتفع عدد المسلحين إلى أربعين ألف رجل. وهذا يفرض ان مجموع عدد السكان يقارب

مئة وعشرين ألف نسمة... وعند التساؤل عن علة هذا الازدحام في بقعة صغيرة إلى هذا الحد، لا أجد، بعد التحليل والتمحيص، سبباً سوى شعاع الحرية التي تسطع في هذه البقعة. فهنا، على خلاف البلاد التركية، كل إنسان ينعم آمناً بملكه وبحياته... فيكون الأمن الوسيلة الأولى لازدحام السكان... أما الوسيلة الثانية التي لا تقل شأناً عنها، فإنما هي الزهد في المأكل عند الأمة، التي تستهلك القليل من كل شيء".

بعض أبرز أحداث وتطورات القرن الثامن عشر

تركيبات جديدة عرفتها البلاد، في أيام الشهابيين نسبة إلى أيام المعنيين، أحدثتها معركة عين دارا (1711) التي انتصر فيها الحزب القيسي (الشهابيون وحلفاؤهم المعنيون وغيرهم)، على الحزب اليمني وآل علم الدين الذين كان يدعمهم والي صيدا. فوطّد الشهابيون سلطتهم وبسطوا حكمهم على المقاطعات المعروفة بالأقاليم وعلى مدينة بيروت... واستمرّوا في توسيع رقعة إمارتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى ضم لبنان الشمالي. "فكان هذا أول توحيد دائم لجبل لبنان" (ايليا حريق، التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1982، ص36).

ومن النتائج البالغة الخطورة لهذه المعركة أيضاً انتقاص كبير في عدد الدروز، دون أن يؤثر ذلك على نفوذهم السياسي، إذ انتقل هذا النفوذ إلى القيسيين منهم الذين التفوا حول الأمير حيدر الشهابي (بطل معركة عين دارا) الذي عمد، على الفور، إلى تعزيز النظام الإقطاعي. فتلا الشهابيين في الوجاهة والمكانة آل أبي اللمع الذين كانوا في الأصل مقدمي المتن، ثم آل أرسلان، أسياد الغرب. "أما أسر المشايخ،



نهر الليطاني شكّل فاصلاً بين الأمير يوشف الشهابي وأعدائه

فكانت أكثر عدداً وأبعد نفوذاً، منها آل جنبلاط، وآل عماد، وآل أبي نكد، وهي الأسر القديمة. وقد أضاف إليها الأمير حيدر أسرتين هما آل تلحوق وآل عبد الملك. وكوّنت هذه الأسر الخمس من الطائفة الدرزية طبقة المشايخ الكبار... تقابلها عند الموازنة أسرتان كبيرتان من المشايخ هما آل الخازن وآل حبيش، ثم أضيفت إليهما في ما بعد أسرة آل الدحداح. وإذ منحت كل من هذه الأسر الثماني حق الإقطاع في

منطقة واحدة على الأقل. فقد عرفت عند الجميع بأسر المقاطعجية...» (كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر. ط6. ص76).

وبين المقاطعجية الموارنة. سيطر آل الخازن على كسروان. وآل حبيش على قاطع غزير. وآل الدحداح على الفتوح. أما لبنان الشمالي (خصوصاً في جبة بشري) فكان وضعه مختلفاً مع استمرار سلطة آل حماده على المنطقة حتى أواسط القرن الثامن عشر. وتحديداً حتى سنة 1759 حين رفع موارنة حدث الجبة وبلاد البترون وبلاد جبيل لواء العصيان في وجه آل حماده. واستنجدوا بالشهابيين ودعوهم إلى المجيء حكاماً عليهم. واستمالوا. بما جمعوه من مال. والي دمشق. فقضى الأمير يوسف الشهابي على سلطة آل حماده في الشمال. وشجّع الموارنة على العودة إلى استيطان الأنحاء التي كان آل حماده أجبروهم على النزوح عنها. وأقطع مشايخ الموارنة حدث الجبة وبلاد البترون وبلاد جبيل. "وبعد 1764. بسط الشهابيون حكمهم على جبل لبنان من الأرز إلى جبل عامل... وفي 1770. نجح الأمير يوسف في أن يصبح الحاكم على الشمال والجنوب" (ايليا حريق. التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث. ص 38).

"يصح القول بأن ميزان القوى المارونية - الدرزية في القرن الثامن عشر أصيب بتغيّر خطير. لحلول الموارنة محل الدروز في السيطرة السياسية. وحين تنصّر أبناء الأمير ملحم في 1756. ثم تولى الإمارة الأمير يوسف في 1770. آذن نجم الدروز بالأفول. لكنهم. على الرغم من تفوّق الموارنة المتزايد عليهم. ظلوا قوة لا يُستهان بها في البلاد. لذلك حرص الشهابيون الموارنة. إلى وقت طويل. على الظهور بمظهر الدروز (الذين)... ظلوا ينظرون إلى الموارنة كحلفاء. دون أن يداخلهم الشك في مطامح النصارى



معارك النفوذ والتجاذب لم تتوقف يوماً

السياسية. فكان الموارنة يستوطنون القرى الدرزية بحرية. وكذلك الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك الذين نزحوا من داخل بلاد الشام إلى لبنان ليزيدوا في عدد

النصارى" (كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. ص 39-40).

بدايات نهضة حديثة (تعليم إجباري)

ثمة قاعدتان أساسيتان، لهذه البدايات، متصلتان بالوضع المسيحي عموماً والماروني خصوصاً في لبنان: واحدة إقتصادية، منطلقها ارتباط الموارنة بصناعة الحرير اللبناني، فكانوا أكبر منتجيه، وتعزّز تفوّقهم الاقتصادي. والثانية سياسية تحمل وجهين: وجه يمثّل علاقات الموارنة التاريخية مع فرنسا وروما (المعهد الماروني تأسس في روما منذ سنة 1584)، والوجه الآخر يمثل التأثير الذي كان لقناصل فرنسا في بيروت (موارنة من مشايخ آل الخازن في بادئ الأمر)، وخاصة للقنصل غندور السعد من عين تراز، الذي كان، في الوقت نفسه، كبير معاوني الأمير يوسف، على الأمراء الشهابيين، ما جعل هؤلاء الأمراء ينظرون الى أوروبا الكاثوليكية، وبخاصة إلى فرنسا، نظرتهم إلى صديق، ما زاد في عدد ونشاط الإرساليات في لبنان التي كان أصحابها جميعاً مقربين لدى الشهابيين وعلى صلة مباشرة بهم.

فأخذ دور المسيحيين عموماً، والموارنة خصوصاً، في المجال التعليمي والتربوي والثقافي، بالتبلور أكثر فأكثر، حتى يصح القول إنه كان، حتى أواخر القرن الثامن عشر، قطع نصف الطريق في المسار النهضوي والعربي المعروف. وهذا موضوع للبحث قائم بحد ذاته وقد وضعت فيه مجلدات ضخمة، ولا يزال من أكثر الموضوعات التاريخية والثقافية الحاثة على البحث والتأليف. ويكفي، هنا، التذكير بمدرسة روما المارونية، وإسهام خرّيجيها، وغيرهم، من الرّواد المسيحيين، وبالإرساليات والمدارس المسيحية والأديرة والمطابع. كما يكفي أن نذكر، بالنسبة إلى أواخر القرن الثامن عشر أن البطريرك يوسف اسطفان (توفي 1793)، من غوسطا ومن تلامذة روما، أسّس مدرسة عين ورقة الشهيرة التي كانت، هي أيضاً، من العوامل الرئيسة في النهضة اللبنانية والعربية.

سبق ذلك أن شدّد المجمع اللبناني (1736)، وهو أول مجمع لبناني، وقد عقد في دير سيدة اللويزة في أعالي تلال نهر الكلب) على تعميم المدارس والتعليم في كل القرى والمدن والأديار:

"نأمر بأن تقام المدارس في المدن والقرى والأديار الكبيرة وأن تصرف العناية إلى حفظها قائمة فيتعلم فيها صبيان تلك المدينة أو القرى المجاورة الأمور الضرورية".

وجعل المجمع اللبناني التعليم إلزامياً ومجانياً:

"نحث ونناشد كلا من المتولين رئاسة الأبرشيات والمدن والقرى والمزارع والأديار جملة وأفراداً أن يتعاونوا ويتضافروا على ترويج هذا العمل الكبير الفائدة... فيعنون أولاً بنصب معلم حيث لا يوجد معلم، ويدوّنون أسماء الأحداث الذين هم أهل لاقتباس العلم، ويأمرون آباءهم بأن يسوقوهم إلى المدرسة ولو مكرهين. وإن كانوا أيتاماً أو فقراء فتقدم لهم الكنيسة أو الدير ضروريات القوت. وفي حالة تعذر الكنيسة أو الدير يجمع في كل يوم أحد من صدقات المؤمنين ما يفي بمعاشهم. أما أجرة المعلم فيترتب جزء منها على الكنيسة أو الدير والجزء الآخر يقوم بدفعه آباء الأولاد" (بطرس ضو، تاريخ الموارنة، ج4، ص 448، نقلاً عن "المجمع اللبناني"، طبعة المطران نجم، جونيه، 1900، ص 526-536).

هكذا انتشرت المدارس في كل أنحاء الجبل، وكان منها المدارس الابتدائية في كل قرية تقريباً، كما المدارس العالية مثل عين ورقة وغيرها. وقد أكسب العلم الموارنة نفوذاً كبيراً، فلم يكن للحكام مندوحة من اتخاذ الموارنة مديرين لأمورهم (كواخية) أي وزراء معاونين في الحكم. "الموارنة هم تراجمة البشرية.


مدرسة عينطوره القديمة: أرساليات وريادة في التعليم

هضموا الحضارة الإغريقو - رومانية من جهة والحضارة السريانو - عربية من جهة ثانية. فكانوا سفراء البلدان الأوروبية في الشرق ومعلمي اللغات الشرقية في الغرب. وكانوا الخط الواصل بين الشرق والغرب" (المستشرق الايطالي الشهير كبريالي. أورد هذه العبارة له بطرس ضو، في المرجع المذكور آنفاً، ص 449 ؛ نقلاً عن Raphaël, Le Rôle de College Maronite de Rome dans LOrientalisme au XVIIe et CVIIIe s., p178).

ولا يمكن الحديث عن بدايات نهضة، أتت على يد لبنانيين، بحصره في علاقات الجبل - أوروبا، وفي دور الامتيازات الأجنبية، والإرساليات ومدارسها ومطابعها... إذ ثمة بدايات أيضاً عرفها جبل عامل في الجنوب على يد علماء شيعة لبنانيين. لكن المشكلة أن تأثيرهم النهضوي حدث خارج لبنان، لمغادرة معظمهم إلى إيران في سياق تراجع الشيعة أمام السنّة بعد أفول دولة الفاطميين.

عهد الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير (1789-1840)

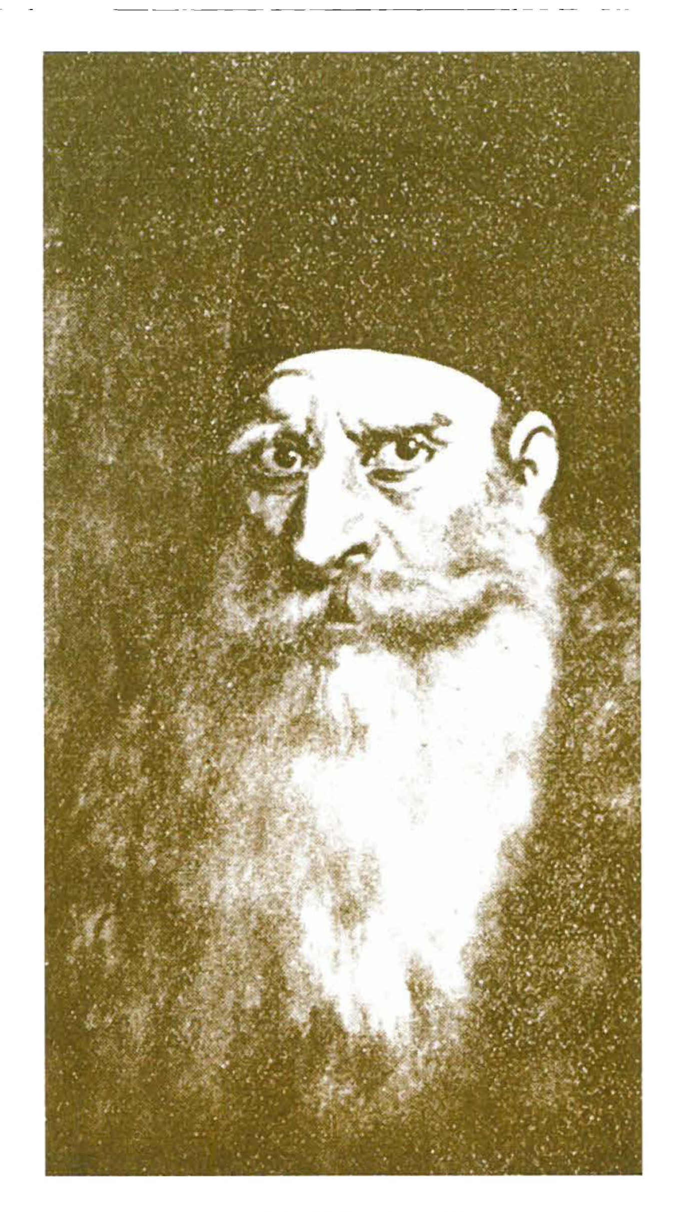
"ولد بشير قاسم عمر مارونياً فأبوه قاسم تنصّر في العام 1764 على يد المطران يوسف اسطفان (البطريرك في ما بعد). وقد صرّح المطران يوسف بذلك في رسالة بعث بها إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر... وعند ولادته منح سرّ العماد المقدس في كنيسة سيدة الأبراج الملاصقة للقصر الذي ولد فيه، وتربّى الأمير مارونياً... ومن ثم لا صحة لما قاله أحدهم من أن الأمير بشير (ترك دينه الإسلامي الذي ولد فيه وشب عليه واعتزّ به مارقاً منه إلى الدين المسيحي..." (ذكر ذلك بطرس ضو في "تاريخ الموارنة"، وطنوس الشدياق في "أخبار الأعيان"، والأب الحتوني في "تاريخ المقاطعة الكسروانية"، وفي "مذكرات رستم باز" نشر فؤاد البستاني، والمطران يوسف الدبس في "الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل").

منذ تسلّمه زمام الحكم وجد نفسه خاضعاً لأحمد باشا الجزّار. ولكنه عرف كيف يداوره ويناوره ويدفع له الأموال. ويستمر في الحكم ريثما تتسنى له ظروف "إعادة بناء دولة فخر الدين الكبير. فقد عمل لهذا الأمر زهاء نصف قرن، كانت تتداوله خلاله حظوظ مختلفة. لقد أرغم أربع مرات على مغادرة لبنان. وكان في كل مرة يعود محاطاً بهالة جديدة من النفوذ. كان مرة قاسياً وأخرى ليناً، صارماً وداهية، ودائماً حكيماً وغالباً قليل الوفاء" (جواد بولس، ص 372؛ نقلاً عن Ristelhueber, Les Trad. Franç. au Liban, p15-17).

أوضاع عامة في الفترة الأولى من حكم بشير (1789-1804)

قرب نهاية القرن الثامن عشر،بلغ التدهور الاقتصادي والثقافي في فلسطين وسورية ومصر مدى بعيداً؛ إذ آلت مناطقهما خراباً وبدت مقفرة من السكان. أما جبل لبنان فكان مزدهراً ويضيق بسكانه. "ففي لبنان الأوسط، كان عدد سكان منطقة كسروان الوعرة يعادل ضعفي سكان فلسطين وكانت ذات الكثافة في عدد السكان موجودة في باقي المناطق اللبنانية" (Lammens, La Syrie, II, p118.). وبالمقابل كانت مدن الساحل اللبناني، التي يحكمها الباشوات العثمانيون مباشرة، تعيش في انحطاط تام. وتذكر أخبار رحّالة ذلك العهد أن عدد سكان صيدا وبيروت وطرابلس كان يبلغ في كل منها ما يقارب الخمسة آلاف وسكان دمشق 15 ألفاً، ومثلها في حلب. أما الاسكندرية التي كانت تعد سابقاً أكثر من نصف مليون، فأمست قرية صغير المساحة تعد بجهد ستة آلاف ساكن (جواد بولس، ص372-373؛ نقلاً عن لامنس، ڤولني، سافاي).

عاش بشير، في فترة حكمه الأولى، تحت رحمة أحمد



الأمير بشير الثاني الشهابي

باشا الجزّار، الذي كان يُشعل "الحرب في كل مناسبة بين أنصار بشير وأنصار أبناء الأمير يوسف، فيتدخل فيها (الجزار لإثارة الدروز ضد النصارى، وبعض الأحزاب السياسية ضد بعضها الآخر (...) وكان اقتراب الحملة الفرنسية قد عزّز التوتّر في لبنان بين الموارنة والدروز. فانتظر الموارنة، وهم أصدقاء فرنسا، وصول بونابرت إلى لبنان بشوق، فيما داخلت الدروز خشية شديدة. وحرص بشير على تهدئة خواطر الدروز، فكان ذلك سبباً لاعتذاره عن مساعدة الفرنسيين" (الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص 15).

ويقول الدكتور فيليب حتي (تاريخ لبنان، ص 502): "أما إزاء نابوليون فإنه (الأمير بشير) أتّبع سياسة الانتظار والترقب، ذلك أن نابوليون كان قد أرسل رسالة إلى الدروز – وقد استعمل في هذه الرسالة "الأمة الدرزية" – تعهد لهم بموجبها بالاستقلال وبتخفيف الضرائب عن كواهلهم ووعدهم بأن يعطيهم ولاية بيروت وموانئ أخرى ذات أهمية لسلامة مواصلاته البحرية ولتجارته. لكن نداء نابوليون لم يلقَ أذناً صاغية ولم يستجب له سوى بعض الناقمين الموتورين وجلهم كانوا من الشيعة".

وعندما مات الجزّار (ربيع 1804)، "لم يقلق ويحزن إلا مسلمو بيروت الذين تمادوا في أذية أهل الجبل طوال حكم الجزّار، فخشي المسلمون المشار إليهم من أن ينتقم منهم أهل الجبل. ولكن الأمير بشير استدرك الأمر وأقام قوى أمن رادعة (...) ولما عرف متاولة جبل عامل وبلاد بشارة بموت الجزّار جمعوا بعضهم بعضاً إذ كانوا هربوا وتفرّقوا في عكار وغيره بسبب ظلم الجزار وتنكيله بهم، وحضروا عند الأمير بشير مستنجدين به ليعودوا إلى أوطانهم، فمدّهم الأمير بالعون والرجال وتوجّهوا نحو بلادهم. ولكن داهمهم جيش الدولة العثمانية المرابط في عكا ونكل بهم وقتل منهم نحو 300 وأسر منهم عدداً كبيراً، ثم اجتاح العسكر بلادهم فهرب أهلها وخربت البلاد" (بطرس ضو، تاريخ الموارنة، ج4، ص 505).

الفترة الذهبية في حكم بشير (1805–1820)

في أساس هذه الفترة ما بلغه لبنان من ازدهار قياساً على المناطق المجاورة، وفي حسن إدارة الأمير لهذا الازدهار



حملة نابوليون الى الشرق عززت التوتر في لبنان

والمحافظة عليه وتطويره. وقد تمكن من أن يفرض نفسه سيد لبنان المطلق، وأن يضمن مركزاً متفوّقاً له في كامل سورية. وما عزّز هذا المركز دون شك، مشاركته الفاعلة للعثمانيين في رد الوهابيين عن العراق وبلاد الشام سنة 1810.

لكن هذه المشاركة الفاعلة، وقد كان فيها للجنود الموارنة دور أساسي، رافقها "مزيد من الضغط من جانب الولاة على النصارى وسائر الطوائف من غير أهل السنّة في الداخل. ولربّما كان بعض ذلك لتهدئة خواطر الغزاة الوهابيين الشديدي التمسّك بالسنّة. وأمر الولاة بزيادة التشديد في تطبيق أحكام الشريعة، خصوصاً في معاملة غير المسلمين، فأعادوا العمل بالقيود القديمة المفروضة على النصارى، بما في ذلك "الغيار"، أي التمييز المهين في الملبس وغيره.

نابليون

وأمام هذا الضغط نزح عدد غفير من نصارى بلاد الشام إلى لبنان، أو قل إلى بيروت، فأصبحت هذه المدينة، من جديد، مركزاً تجارياً كبيراً (وتزايد دورها، بعد سنوات قليلة، أي إبان الحكم المصري). وشجّع بشير، من جهة هذه الهجرة المسيحية وفتح أبواب البلاد في وجه اللاجئين. ثم انه دعا الدروز المضطهدين في منطقة حلب إلى الاستيطان في الشوف والمتن، وتقاسم مع الشيخ بشير جنبلاط نفقات نقلهم إلى لبنان في 1811. ومن هنا يتضح أنه كان، وهو في أوج مجده، قادراً على الوقوف حامياً للنصارى والدروز المضطهدين في جميع الأنحاء الشامية" (الصليبي. تاريخ لبنان الحديث، ص55).

عودة الاضطراب والحكم المصري

انتهت الفترة الذهبية من عهد الأمير بشير بوفاة صديقه سليمان باشا (1819)، والي عكا، الذي حلّ محله عبد الله باشا والذي أبي، كالجزّار قبله، أن يرى أميراً حاكماً قوياً في لبنان، فطالبه بدفع ضريبة باهظة. فاضطرّ الأمير إلى فرض ضرائب جديدة أثارت أهالي المتن وكسروان فهبّوا وأعلنوا العصيان (عامية أنطلياس). فتنازل بشير عن الإمارة (1820)، وغادر البلاد ولجأ إلى القاهرة 1821)، لدى محمد علي باشا، حاكم مصر، الذي خصّه "باستقبال حار، كسب تأييده سراً لمشاريعه المقبلة وتفاض في مصالحته مع الباب العالي" (جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، ص374).

وبالفعل، تدخّل محمد علي، وعاد بشير وعبد اللّه وأصبحا حليفين، ورجع بشير إلى لبنان (1822)، وانتقم من معارضيه، وعلى رأسهم بشير جنبلاط، واستتب الأمن إلى أن كانت الحملة المصرية.

لكن، احتلال ابراهيم باشا (نجل محمد علي)، بمساعدة حليفه الأمير بشير، بلاد الشام بكاملها، فرض على الأمير أعباءً ارتأى تغطيها بفرض ضرائب متزايدة تباعاً، كما فرض أعمال السخرة والتجنيد الإجباري، فما كان من الموارنة والدروز، على حد سواء، إلا الوقوف في وجههما. وصحيح أن الموارنة والدروز كانوا جنوداً أشدّاء، يهبون للقتال في سبيل أمرائهم إذا أُهينوا، ومناطقهم وكراماتهم إذا نيل منها، "إلا أنهم كرهوا الخدمة العسكرية النظامية، خصوصاً في جيش من غير بلادهم. وكان الموارنة، كنصارى، يعتبرون أنفسهم معفيين من الخدمة في جيوش



محمد علي باشا

دولة إسلامية، سواء كانت هذه الدولة عثمانية أو مصرية. أما عقّال الدروز، فأبوا أن يخدم فتيانهم جنباً إلى جنب مع جنود مسلمين في جيش واحد، خوفاً على ذريتهم من الإفساد (جنّد منهم فرقة خاصة، خريف 1834، بمعزل عن بقية الجيش). أضف إلى ذلك أن الخدمة العسكرية هددت بالقضاء على طبقة الفلاّحين اللبنانيين، إذ كان من شأنها إبعاد أفضل عناصرها من المزارع والحقول، للقتال في حروب لا مصلحة لها فيها" (الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص 55 - 62).

وفي أوائل 1835، وصل إلى بيروت أحد موظفي السفارة البريطانية في الآستانة، ويدعى ريتشارد وود، وباشر العمل على إبعاد بشير عن حليفه ابراهيم باشا، وعلى تشجيع الدروز على بشير، وعلى إبعاد الموارنة عن فرنسا. ونشبت حركة عصيان درزية في حوران ووادي التيم يساندها دروز باقي المناطق.

نهاية الإمارة

حركة العصيان الدرزية هذه، في حوران ووادي التيم نشبت ما إن أصدر إبراهيم باشا أمره بتطبيق قانون الجندية سنة 1837. أما مسألة "مساندة دروز باقي

المناطق لهذه الحركة بدعم خفي من الأمير بشير" فمسألة يعتقد بها كثير من المؤرخين (منهم كمال الصليبي، في مؤلفه المذكور، ص**67**). إذ إن الأمير كان يجد نفسه موضوعاً تحت أقسى الخيارات ومضطراً للانصياع للحكم المصري. ومن هذه الخيارات القاسية انصياعه لطلب ابراهيم باشا "أن يرسل الأمير إبنه خليل على رأس أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان للاشتراك في العمليات العسكرية في حوران ووادي التيم ضد المتمردين الدروز. وكان هذا الطلب يتنافى تماماً مع ما درجت عليه تقاليد الإمارة اللبنانية. فقد كانت هذه التقاليد تحذر كل التحذير من وقوع اصطدام مباشر بين الطوائف، وخصوصاً بين الدروز والموارنة. وكان بشير الثاني يعلم كل العلم ان العودة عن هذه السياسة التقليدية قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، خصوصاً وقد دخل في روع الدروز أن الأمير كان مسيحياً، وانه كان، إلى حد ما على الأقل، عدواً لهم. ورأى الأمير أن إرسال جنود نصارى، بقيادة نجله، لمحاربة الدروز لم يكن إلا مجازفة تؤدي إلى إثارة الأحقاد الطائفية وزوال ما تبقّى من الولاء الدرزي للإمارة. لكنه لم يرَ بداً من إطاعة إبراهيم باشا والنزول على طلبه. وللتقليل من خطر هذه المجازفة ما أمكن، أشار على ابنه خليل بأن يمارس حرية التصرف في القتال إلى أقصى حد. واختار الأمير رجلاً مسيحياً على معرفة بوادي التيم، يدعى جرجس الدبس، ليعمل دليلاً لابراهيم باشا في حملته تلك. وحرص جرجس هذا على أن يحيط الدروز علماً بتحركات الجيش المصري، بل إنه غالباً ما أعطى المصريين، عن قصد، توجيهات مضللة" (الصليبي، ص 67-68).

ومع انتصارات ابراهيم باشا من جهة، وازدياد مخاوف بريطانيا والعثمانيين من دولة عربية قوية ترث العثمانيين، وزيادة تدخلهم لدى اللبنانيين بمختلف طوائفهم (كان الشيعة في جبل عامل قد أعلنوا العصيان في خريف 1839) من جهة ثانية، انصاع الموارنة لرغبتهم وصمّموا على مقاومة الأمير بشير وحليفه ابراهيم باشا، خصوصاً وأن ريتشارد وود، حين كان في لبنان سنة 1836 توفق الى اجتذاب عدد من الموارنة، واعداً اياهم بالحفاظ على إمارة مارونية في لبنان تتمتّع باستقلال ذاتي. وفي 27 أيار 1840، تنادى ممثلون عن الدروز والموارنة والروم الكاثوليك إلى الاجتماع. وفي 4 حزيران عقدوا اجتماعاً في كنيسة مار الياس انطلياس وأقسموا على المقاومة بالقوة، وعمّت الثورة جميع أنحاء البلاد. وتدخّل الانكليز عسكرياً إلى جانب العثمانيين. وبدأت هزائم ابراهيم باشا، وأسقط الأسطول الانكليزي عكا في 3 تشرين الثاني 1840، وانسحب ابراهيم باشا إلى مصر، وانهار حكم الأمير بشير، فقرّر الاستسلام للانكليز.

ثمة سبب ثانٍ تحكّم بالسياسة العثمانية (المتحالفة مع الانكليز)، إضافة إلى القضاء على الحكم المصري في المنطقة وطرد ابراهيم باشا، هو تقويض دعائم الإمارة اللبنانية، إذ كانت هذه الدعائم، منذ مطلع العهد العثماني، تستند إلى ولاء اللبنانيين لأمرائهم والتفافهم، فلاّحين وأسياداً، حولهم في الأيام العصيبة، ما جعلها إمارة قوية تتوق دائماً إلى مزيد من الاستقلال، وتجربة رائدة ينهل منها ويطلب دعمها كل مَن راودته فكرة الاستقلال من زعماء البلدان المجاورة. فكان لا بد، والظروف مؤاتية، من تقويض هذه الإمارة، واستبدالها بنظام يتيح بالمجال لهيمنة عثمانية كاملة.

بشير الثالث وفتنة 1841

وكان للعثمانيين ما أرادوا. فبعد فشل محاولتهم تعيين حاكم عثماني على لبنان، واختاروا أميراً ضعيفاً

صك عامية أنطلياس

هو بشير الثالث. وألحقوا المدن الساحلية، صور وصيدا وبيروت وطرابلس، مباشرة بالباب العالي الذي اختار بيروت، خلفاً لصيدا وعكا، مركزاً لباشوية عثمانية، ولمراقبة الجبل بطريقة أفضل. وبهذا أصبحت بيروت المركز الرئيسي للسطلة العثمانية على الساحل اللبناني.

وكان من نتيجة الاحتلال المصري أن حلّت ظروف وتعقيدات داخلية جديدة. ففي المقاطعات الدرزية رفض الفلاّحون الموارنة القبول من جديد بمركز أدنى، بعد أن كانوا، أيام الحكم المصري، تحرّروا من صفة "الرعايا" المذلة. ولكونهم كانوا يساوون الدروز بالعدد أو يزيدون عنهم، ويستشعرون تفوقاً ثقافياً عليهم، فكانوا يرغبون في لعب دور لا يقل عن دور الدروز في إدارة البلاد.

لكن زعماء الدروز الإقطاعيين كانوا عازمين على ألا يسلّموا من جديد بسلطة آل شهاب. وطالبوا باستعادة سلطتهم وأراضيهم التي صادرها بشير الثاني. وكان بشير الثالث يرفض، رغم ضعفه، إعادة امتيازات مشايخ آل الخازن وآل حبيش في كسروان (معتمداً على الدعم البريطاني)، ما حمل هؤلاء المشايخ على الوقوف مع زعماء الدروز صفّاً واحداً، مستندين على تعاطف السياسة الفرنسية المنافسة للسياسة البريطانية.

وكثر المرشحون للإمارة مكان بشير الثالث بعد أن تبيّن أنهم لم يعودوا متحمسين له لفقدانه الشعبية المطلوبة. وكان الانكليز حريصين كل الحرص على الاحتفاظ بطريق الهند تحت مراقبتهم المطلقة، فكانوا قد اعتمدوا على اللبنانيين المسيحيين لإقصاء المصريين. وعندما فشلت مساعيهم بعد جلاء ابراهيم باشا، وفضّل المسيحيون الاتجاه نحو فرنسا، حاولوا أن يستميلوا الدروز إليهم لكي يوازنوا النفوذ الفرنسي.

أما الباب العالي، الذي لم يكن يهتم بإعادة الأمن إلى لبنان بقدر ما كان يصبو إلى تثبيت سلطة العثمانيين المباشرة، فقد ترك هذه الخلافات تتأزم. من ثم راح عملاؤه يحوكون الدسائس لإثارة الحرب الأهلية في الجبل. فنجح. وكانت فتنة 1841 حيث هاجم الدروز دير القمر، المدينة المسيحية ومقر الأمراء الشهابيين المألوف. و"استغل سليم باشا، حاكم بيروت، هذا الظرف ليثير الفتن بين المسيحيين والدروز. فأرسل إلى الفريقين صناديق من البارود والرصاص لكي يشعل نار الفتنة. وقد ابتدأت أزمة عام 1841 بخلاف سياسي محض، بل إقطاعي، تحولت إلى حرب طائفية. فتعصّب العامة وتحمسوا للخلافات القائمة بين الأشخاص أكثر منهم للمبادئ؛ ودخلوا، مع الأسف، في الصراع، خالطين بين مصالح الزعماء الإقطاعيين ومصالح الوطن. وهكذا اقتتل المسيحيون والدروز في ما بينهم إشباعاً لهوى الأتراك والإقطاعيين" (عادل إسماعيل، "لبنان: تاريخ شعب"، بالفرنسية Le Liban: Hist, d'un Peuple، ص 145).

عمر باشا (1842)

عرف الباب العالي أن يستغلّ هذه الحال لكي يقنع العواصم الأوروبية بعجز اللبنانيين عن حكم أنفسهم

عمر باشا والتحريض على الفتنة

بأنفسهم، وعيّن عمر باشا، وهو ضابط عثماني من أصل مجري اعتنق الإسلام، حاكماً على الجبل ليطوي صفحة الإمارة نهائياً.

حاول عمر باشا كسب ثقة اللبنانيين، فتقرّب من الجميع، وعمل على توزيع المكافآت، فأعاد الإقطاعيين إلى أملاكهم، كما حاول استرضاء المسيحيين ليوافقوا عليه كحاكم للجبل (كان الدروز قد رحّبوا به في بادئ الأمر)، وعاقب بعض الدروز الذي اعتبرهم مسؤولين عن فتنة 1841، وحرّض الفلاّحين على الأمراء والمشايخ والإقطاعيين.

لكن سياسته هذه أدّت إلى عكس ما كان يتمناه،


حملة نابليون

فتقارب المسيحيون والدروز ضد "الحاكم الأجنبي"، وقدّموا العرائض إلى قناصل الدول محتجين على تولية حاكم أجنبي عليهم. وقد وصل هذا التقارب إلى حد موافقة الدروز على عودة الإمارة الشهابية، حتى ولو أدّى هذا الأمر إلى عودة بشير الثاني نفسه إلى الحكم. ولم تلبث هذه النقمة أن انفجرت حركة عصيان في كل أنحاء الجبل. وخوفاً من مزيد من التقارب بين المسيحيين والدروز، وعلى أثر احتجاج قناصل الدول الأجنبة استدعى الباب العالي عمر باشا من لبنان (أيلول 1842)، وبدأ البحث في نظام جديد، فكان نظام القائمقاميتين.

تقسيم الجبل إلى قائمقاميتين منفصلتين (1842–1860)

في المفاوضات التي جرت لإيجاد نظام جديد لجبل لبنان، تركّز البحث حول وجهتي نظر: الأولى، مثّلها

موارنة لبنان وفرنسا، وطالبوا بإعادة الإمارة الشهابية. الثانية، مثلتها الدولة العثمانية وأيّدتها روسيا ورأت أن يكون جبل لبنان ولاية عثمانية، يكون والي صيدا مسؤولاً عنها.

أما بريطانيا، فقد عارضت عودة الشهابيين إلى الحكم، كما عارضت موقف تركيا وروسيا. عند ذاك اقترح كليمنس مترنيخ، رئيس وزراء النمسا حلاً يقضي بتقسيم جبل لبنان إلى منطقتين إداريتين، يدير شؤونهما حاكمان لبنانيان، واحد ماروني في القائمقامية الشمالية المسيحية، وآخر درزي في القائمقامية الجنوبية الدرزية، وذلك بإشراف والي صيدا. ووافق الجميع على ذلك، ودخل لبنان مرحلة جديدة في تاريخه، عُرفت بعهد القائمقاميتين، وكان أواخر 1842 (ومترنيخ هذا، صاحب فكرة تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين، عاد اللبنانيون بعد نحو قرن وثلث القرن، أي إبان الحرب اللبنانية الأخيرة وأحاديث مشاريع التقسيم إلى دويلات طائفية، وأكثروا من ذكره، وبخاصة على وقع تصريحات وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر الذي كثيراً ما كان يعرب فيها عن إعجابه بمترنيخ).

تمّ، إذاً، تقسيم جبل لبنان إلى منطقتين (قائمقاميتين) يفصل بينهما طريق بيروت - دمشق.

- القائمقامية الشمالية، امتدت من طريق بيروت - دمشق إلى غزير، ثم ألحقت بها في ما بعد مناطق جبيل والبترون والكورة والزاوية وبشري. قاعدتها بكفيا. وعيّن أول قائمقام عليها الأمير حيدر أبي اللمع (1842-1854)، ثم الأمير بشير أبي اللمع (1854-1858)، ثم يوسف بك كرم (1860).

القائمقامية الجنوبية، امتدّت من طريق بيروت - دمشق حتى جبل الريحان جنوباً، واشتملت على الشوف وجزين وقسم من البقاع الغربي وبعض قرى إقليم التفاح. قاعدتها بعقلين وأول قائمقام عليها الأمير أحمد أرسلان (1842-1845)، وبعده الأمير محمد أرسلان (1858-1860).

مصاعب وعراقيل ومصالح وتدخلات دولية

كان نظام القائمقاميتين ضعيفاً، يحمل في داخله أسباب الخلاف. فإن القائمقام يرجع إلى والي صيدا، وصلاحياته محدودة وليس له جيش لفرض السلطة. وكان القائمقامون إجمالاً بدون شعبية، وتنقصهم الخبرة السياسية، في حين برزت مشاكل اجتماعية وسياسية معقدة تحتاج إلى حاكم قوي وبعيد النظر. وبرزت مشاكل الصراع بين عامة الشعب والاقطاعية واتخذ الصراع شكلاً طائفياً (مارونياً - درزياً). كذلك زاد توزيع السكان واختلاطهم المشكلة تعقيداً، فإن نسبة من السكان الدروز كانت تعيش في القائمقامية المسيحية، كذلك كانت نسبة مرتفعة من المسيحيين تعيش في القائمقامية الدرزية، وكانت الإشاعات كثيرة، فإذا سمع أهل القائمقامية أن أحداً من أبناء دينهم تعرّض لمكروه في القائمقامية الثانية انتقموا من المواطنين الموجودين بينهم. وبالإضافة الى هذا الواقع السكاني كان في القائمقامية الدرزية قرى مسيحية بكامل سكانها، أو معظمهم، مثل دير القمر وحاصبيا وراشيا، كُلف والي صيدا بإدارتها.

وفوق كل هذه المصاعب، جاءت السياسة الدولية ومصالحها وتدخلاتها في شؤون البلاد، لتزيد الوضع تعقيداً.

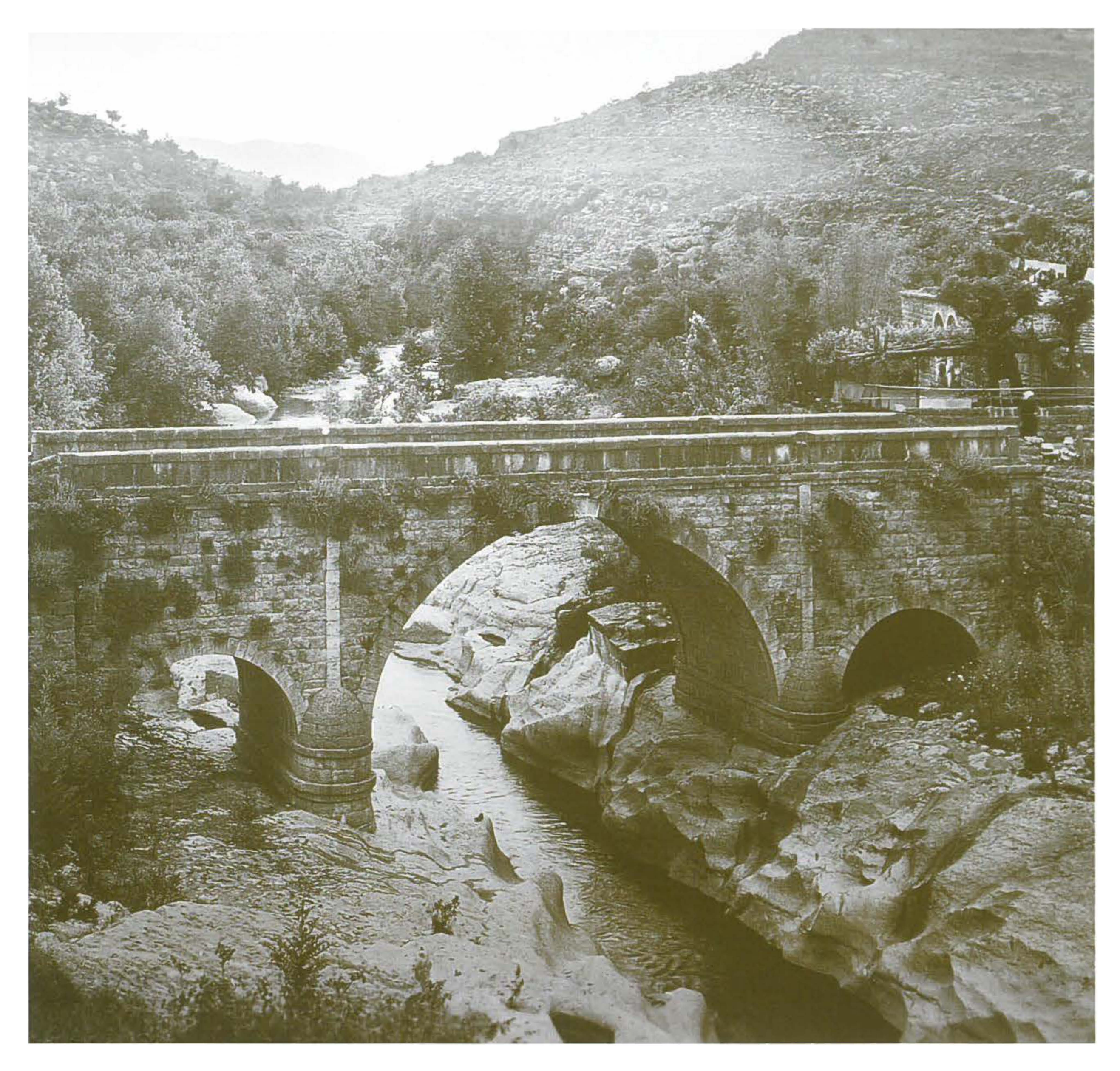
فمنذ حركة علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحملة نابليون على مصر، زادت الدول الأوروبية من اهتمامها بالشرق وبأسواقه التجارية وبموقعه، واستفادت من ضعف السلطة



اسطنبول مركز القرار

العثمانية، فانتزعت منها الامتيازات، وتدخلت بشؤونها فتلاحقت سلسلة أزمات أطلق عليها المؤرخون إسم "المسألة الشرقية". وظلّ لبنان لمدة من الزمن (وتحديداً في أيام نظام القائمقاميتين) ساحة الصراع بين هذه الدول:

خافت السلطة العثمانية من أن يحقق لبنان (جبل لبنان) استقلاله الكامل، فتسعى بعده المناطق المجاورة للاستقلال أيضاً. لذا عملت لضمّ لبنان نهائياً



جسر يربط عاليه بالشوف

إلى السلطنة. فشجعت الخلافات بين اللبنانيين.

وروسيا كانت تسعى للوصول إلى المياه الدافئة (إلى البحر المتوسط). وخاضت حروباً طويلة ضد السلطنة. وحصلت على معاهدة فينرجي (منذ سنة 1774) على حق حماية الأرثوذكس في أنحاء السلطنة (واستمرّت تتدخل بحجة هذه المعاهدة).

وكان لفرنسا مطامع منذ حملة نابوليون. بل حصلت على امتيازات من السلطنة منذ القرن السادس عشر. وأصبح لها مصالح سياسية واقتصادية وثقافية (مدارس) في أنحاء السلطنة (خصوصاً في لبنان وبسبب علاقاتها المميزة مع الموارنة بصورة خاصة). وتعاطفت مع الموارنة وأعلنت حمايتها لهم.

أما بريطانيا فسيطرت على امبراطورية واسعة. وكانت تحرص على تأمين طريق الهند. فأرسلت لجنة. سنة 1834

(أي قبل حفرة قناة السويس). ودرست إمكان اعتماد طريق من طرابلس في لبنان إلى حلب فنهر الفرات فالخليج العربي ومنه إلى الهند. واهتمّت بالوضع في لبنان. وقررت أن تقف في وجه فرنسا وروسيا. وتقرّبت من الدروز (بعد أن حاولت مع الموارنة كما تقدم ذكره).

وأما النمسا فتقربت من الكاثوليك. لكن دورها ظل محدوداً في شرقي المتوسط. إذ وجّهت معظم اهتمامها إلى منطقة البلقان (وهيب أبي فاضل. لبنان في مراحل تاريخه الوجزة. مكتبة انطوان. بيروت. ط1. 1994. ص104-105).

فأحداث نظام القائمقاميتين الكبرى: فتنة 1845. ثورة 1858 وفتنة 1860. كانت صنيعة هذا الوضع الداخلي. وتلك المصالح والتدخلات الخارجية.

فتنة 1845

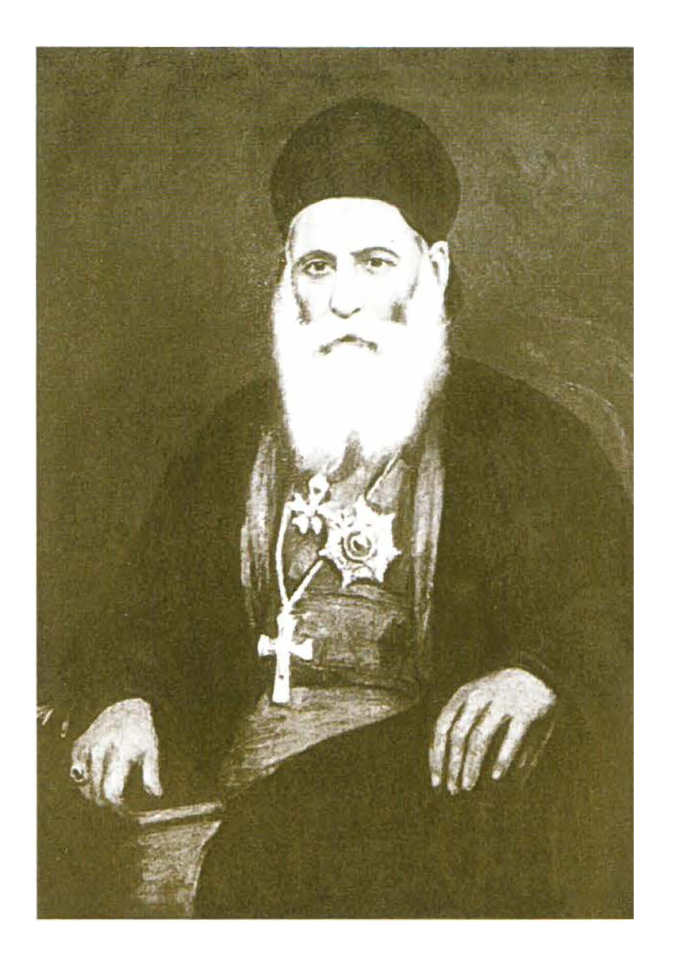
عمّت أحداثها الدموية (بين الدروز والموارنة) مختلف مناطق الجبل. وبخاصة الشوف وجزين والمتن وزحلة والبقاع الغربي. والدولة العثمانية. بواسطة والي صيدا وجيهي باشا. عكفت على تغذيتها. إلى أن أرسلت. بضغط من الدول الأوروبية. وزير خارجيتها شكيب أفندي. الذي عمل على إيقافها. وأجرى تعديلات على نظام القائمقاميتين. أساسها إبقاء نظام القائمقاميتين. لكن مع إنشاء مجلس يترأسه القائمقام ويتألف من نائب له وقاض ومستشار عن كل من الطوائف الخمس: السنّة والموارنة والدروز والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك. ويكون لهذا المجلس مهمتان: الأولى. تقدير الضرائب وتوزيعها على المناطق وجبايتها: الثانية. النظر في الدعاوى المحالة إليه من القائمقام (فاعتبر هذا الترتيب - إنشاء المجلس الطائفي هذا - أساس التمثيل الطائفي للبنان الذي اعتمد في ما بعد. أيام المتصرفية. ثم الانتداب الفرنسي. وإلى اليوم). والجدير ذكره أن في مجلس القائمقامية اقتصر تمثيل الشيعة بمستشار فقط دون أن يكون لهم قاضي وذلك بسبب عدم اعتراف العثمانيين بأنظمة شرعية خاصة بالشيعة.

وثمة ترتيب آخر اتخذه شكيب أفندي وهو تقسيم منطقة بعبدا بين قائمقاميتي الموارنة والدروز. فجاءت هذه الترتيبات بمثابة ضربة موجعة بمصالح الإقطاعيين في جبل لبنان. ذلك أن الصلاحيات التي مُنحت لمجلس القائمقامية المستحدث كانت سابقاً بيد رجال الإقطاع.

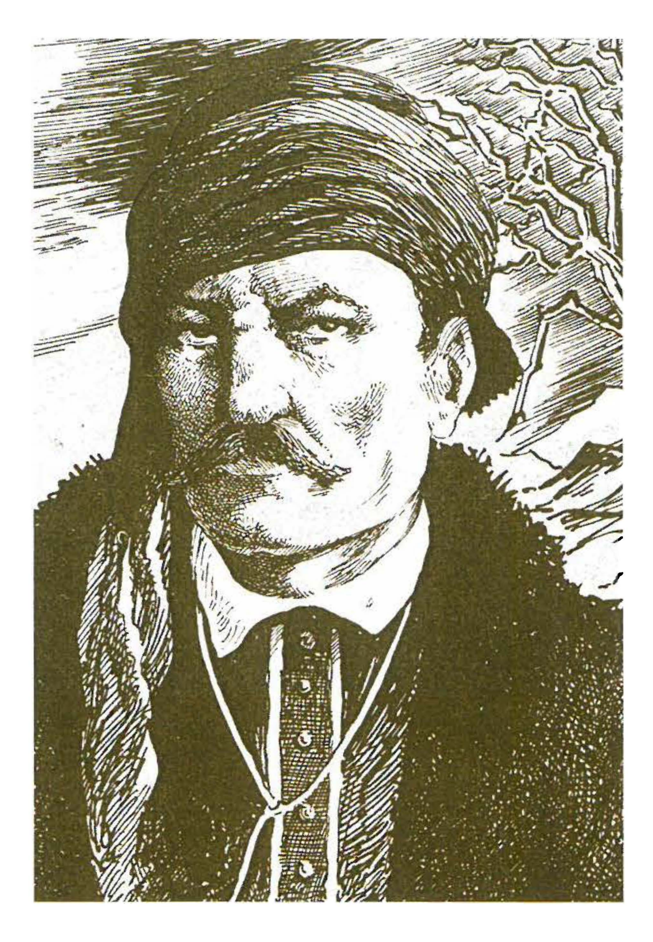
ثورة الفلاّحين (1858-1859)

كان من شأن الترتيبات والتعديلات التي اتخذها شكيب أفندي أن تثير الرعب في قلوب رجال الإقطاع خوفاً على مصالحهم. فناصبوا مجلسي القائمقاميتين العداء. وأخذوا يعرقلون أعمالهما. كما زادوا من الضرائب على الفلاّحين. فتضايق هؤلاء. وكان الوعي قد بدأ يتسرب إلى صفوفهم. وتناهى إلى مسامعهم ما اتخذه مؤتمر باريس (1856) من مقررات أرغمت السلطان العثماني على إصدار "الخط الهمايوني" الذي أعلن المساواة بين جميع أبناء السلطنة بغض النظر عن مذاهبهم وطبقاتهم. وأما الفعل الأكثر تأثيراً في وعيهم "الطبقي" فجاءهم عبر انتشار المدارس وموقف البطريرك الماروني بولس مسعد ورجال الكهنوت الموارنة. ومعظمهم من عامة الشعب. وقد قاموا يدعمون موقف الفلاّحين ويعملون على توعيتهم (حول دور رجال الدين الموارنة. ومدارسهم. في هذه التوعية وفي هذه الثورة. تميّز بالتفصيل وبالعمق كتاب إيليا حريق "التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث").

ولم تكن هذه الحركة الاجتماعية معزولة عن المطالب السياسية والوطنية. المتعلقة بشكل عام بمزيد من التحرر من سلطة العثمانيين. فلما "... ماطل الأتراك في تنفيذ التنظيمات الخيرة



البطريرك بولس مسعد





طانيوس شاهين بريشة رضوان الشهال

والإصلاحات الموعودة. بعد صدور خط همايون 1856، تألفت لجان مسيحية في بيروت وكسروان وزحلة ودير القمر غرضها تهيئة تحرير المسيحيين من حكم الأتراك" (د. أحمد طربين. أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية. ط1،1966. دمشق. ص 1221) ما السلاح فقد كان متوافراً بكثرة: "... إن تقسيم الجبل إلى قائمقاميتين كان من شأنه أن يزيد في حدة الخصومة... حتى قيل إن عدد من يحمل السلاح من نصارى المناطق المختلطة زاد على 13951 رجلاً، مقابل 6390 رجلاً من الدروز" (د. أحمد طربين. المرجع المذكور. ص 76: نقلاً عن **Richard Edwards, La Syrie 1840-1860, p.89**).

وإذ بلغت العداوة بين الفلاحين والمشايخ، وبخاصة في كسروان حداً كبيراً، أخذ الفلاحون في مختلف القرى يعقدون الاجتماعات لبحث شكاويهم وتنظيم حركتهم. وأخذ الشباب كل قرية ينتظمون تحت قيادة "شيخ الشباب" لحماية أهاليهم من مظالم الإقطاعيين. ثم ما لبثوا أن وحّدوا حركتهم واختاروا ممثلين عنهم للتفاوض مع مشايخ آل الخازن. لكن المفاوضات فشلت بسبب رفض المشايخ تقديم تنازلات من جهة وإصرار الفلاّحين على المطالبة بالمساواة من جهة أخرى.

وفي تشرين الثاني 1858، اختار الفلاّحون لحركتهم قائداً هو طانيوس شاهين سعادة من ريفون فأخذ يطوف القرى ويخطب في الناس ويحرّضهم على الثورة، بعد أن حدّد مطالب الفلاّحين وأهدافهم وهي: إزالة الفوارق الاجتماعية، وفرض المساواة، وإعادة النظر في

توزيع الملكيات. وقد انطلق كثير من المؤرخين من مجمل مواقف طانيوس شاهين، أخصّها استعماله، في خطاباته، لمثل هذه الألفاظ: "بقوة الجمهور"، و"بقوة الحكومة الجمهورية". إضافة إلى أنه عندما استتبت له السيطرة (في كسروان)، وإلى حين، جعل من نفسه "حامي الحقوق الفردية". ليعتبرونه "أول رئيس لأول جمهورية في الشرق" (موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج3).

بدأت ثورة الفلاّحين في أواخر 1858، حين هاجم أهالي زوق مكايل، بقيادة الياس المنيّر، مشايخهم واستولوا على أملاكهم. ثم امتدت الثورة إلى جونيه، فإلى كل قرى كسروان، وبخاصة ريفون، ميروبا، عشقوت وغيرها.

وبدلالة واضحة إلى تداخل "الوطني" بـ"الاجتماعي" في هذه الثورة، أن أكثر ما أثار غضب الفلاّحين ما تناهى إليهم عن اتصال آل الخازن بخورشيد باشا (الوالي التركي)، فأذاعوا أن هؤلاء يخططون مع الحكومة لخراب كسروان، وتنادوا إلى الاجتماع حيث قرروا طرد آل الخازن حيثما وجدوا. ووضع هذا القرار فوراً موضع التنفيذ، ولوحق آل الخازن في طريق هربهم إلى بيروت، وجرت وقائع ارتكبت فيها الفظائع.

وفيما استمرت هذه الأعمال طيلة شهر شباط 1859، عسكرت حاميات عثمانية صغيرة في بعض قرى كسروان، ثم انسحبت، ولم يبذل خورشيد باشا أي جهد لإعادة النظام، وأفلت زمام الأمور من يد القائمقام، وخشي البطريرك بولس مسعد من أن تستغل الدولة العثمانية حركة الفلاّحين وتجعل جبل لبنان ولاية عثمانية، فعمل على التهدئة، وقام بدور الوساطة بين الفلاّحين وآل الخازن، الذين عادوا إلى أراضيهم، وأوقف الفلاحون ثورتهم. وقد بدأت بوادر الفتنة الطائفية بالظهور، خاصة وأن حديث الطائفية



فلاح من صيدا

ظل متواتراً، يشجعه إقطاعيو ومشايخ الدروز في القائمقامية الدرزية، الذين أفزعهم نجاح ثورة الفلاّحين في كسروان وإمكان انتقالها إلى فلاحيهم (علماً أن معظم الفلاّحين في القائمقامية الدرزية كانوا من النصارى)، فعملوا على وحدة الصف الدرزي، وبيّنوا لجماعاتهم أن الثورة في كسروان هي حركة طائفية موجّهة ضد الدروز.

فتنة 1860

كان فلاّحو الشوف والغرب والجرد خليط من الدروز والنصارى. فإذا كان صيف 1859 شهد بعض الصدى

لدى فلاّحي بعض القرى الدرزية لثورة الفلاّحين في كسروان. إلا أن سرعان ما تمكن الإقطاع الدرزي من السيطرة على هذا التململ بتحويله من تململ إجتماعي إلى مخاوف من النصارى "وأطماعهم".

وظلّ التدخّل العثماني مستمراً. ورأى في ثورة الفلاّحين الموارنة خطراً على الدولة، ونجح في تحويلها باتجاه الفتنة: "وربّما كان كثيرون من الموظفين العثمانيين يردّدون مع أحمد باشا والي إيالة الشام ومشير عسكر عربستان قوله الذي نقل عنه: "إن في سورية آفتين هما النصارى والدروز، فكلما ذبح أحدهما الآخر، استفادت السلطنة العثمانية" (...) "ووجدت المناسبة في ثورة الفلاّحين بكسروان وامتداد خطرها على الشوف، وهنا أدرك خورشيد باشا أن الثورة ستؤدي إلى سقوط الحكم العثماني في الجبل: ويبدو أنه اعتمد الفوضى سبيلاً لتوطيد سلطان دولته، ولجعل كلمتها فيه نافذة على جميع الطوائف عن طريق حكم عثماني مباشر" (أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان... ص 121 وما تلاها).

كانت شرارة الفتنة حادث فردي في بيت مري (30آب 1859). ما لبث أن تضخّم وتحوّل إلى حرب طائفية، ذهب ضحيتها عدد كبير من القتلى من الطرفين. وكانت ذروتها في أيار وحزيران 1860. وتخللتها مذابح وإحراق قرى. وامتدت فشملت معظم لبنان وانتقلت إلى سورية. وكان الأتراك يشاركون إلى جانب الدروز مباشرة ويمدوهم بالأسلحة ويقطعون الطرق على المسيحيين. وفي حين كان الولاة العثمانيون يسكتون عمّا يجري، وفي مقدمهم والي صيدا خورشيد باشا، اندفع عدد من الغيورين المصلحين من كل الطوائف، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري، إلى إيواء عدد كبير من الهاربين والمشردين.

عندما وصلت أخبار هذه المذابح إلى فرنسا، التي كانت حينها تحت حكم الامبراطور نابوليون الثالث، هبّت الأوساط الكاثوليكية تطالب الحكومة بالتدخّل. وبعد عدة محاولات قامت بها فرنسا، واتهمت فيها السلطان العثماني بالإخلال بالتعهدات التي أطلقها خلال مؤتمر باريس 1856 بالمساواة بين جميع أبناء السلطنة، عقد مؤتمر باريس في 3 آب 1860، حضرته فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وروسيا والدولة العثمانية، وتقرّر فيه إرسال 12 ألف جندي، نصفهم فرنسيون. وفي 16 آب نزلت السواحل أولى الفرق العسكرية الفرنسية بقيادة الجنرال بوفور دوتبول Beaufort d'Hautpoul، وخيمت في حرج الصنوبر، في ضاحية بيروت، ثم انتقلت إلى الشوف.

وأثناء التحضير لمؤتمر باريس المذكور، توقعت الدولة العثمانية تدخلاً أوروبياً مشتركاً في حوادث لبنان (وهذا ما حصل بالفعل)، فأسرعت وأرسلت كبير رجالاتها، وزير خارجيتها فؤاد باشا، بصلاحيات واسعة وفوق العادة، وفوّضته اتخاذ كل التدابير التي من شأنها أن تضع حدّاً للمذابح وتمنع التدخل العسكري الأوروبي.

وصل فؤاد باشا إلى بيروت في 15 تموز 1860 (قبل نحو ثلاثة أسابيع من انعقاد مؤتمر باريس وإقراره إرسال جيش إلى لبنان)، وأمر فوراً بكف يد خورشيد باشا عن ولاية صيدا، وتوجّه إلى دمشق وأنزل عقاباً شديداً بمسببي الفتنة، فأعدم 111 ضابطاً تركياً، وحكم على مئات الدمشقيين بالإعدام أو بالسجن أو النفي.

عاد فؤاد باشا إلى بيروت في 12 أيلول 1860، واجتمع مع بوفور دوتبول، قائد الحملة الفرنسية، واتفقا معاً على مناطق انتشار الجيش الفرنسي. وأجرى الوزير العثماني محاكمات لخورشيد باشا وبعض الضباط الأتراك، ولعدد من الزعماء الدروز، وتقرّب من يوسف كرم في إهدن، وعيّنه قائمقاماً على المسيحيين في



فرنسا ملجأ اللبنانيين



تشرين الثاني 1860 (دامت ولايته نحو ستة أشهر، حتى حزيران 1861).

نظام المتصرفية (1861–1920)

اللجنة الدولية ومؤتمر بيروت (1860-1861)

رغم تحرّك فؤاد باشا السريع والحازم، وحنكته، فإنه لم يستطع منع تدويل الأزمة. فتألفت في بيروت لجنة دولية من ممثلي فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا برئاسته هو (فؤاد باشا) للنظر في إعادة تنظيم لبنان. فعقدت اللجنة أول اجتماع لها في 5 تشرين الأول 1860. وتتابعت الاجتماعات والمناقشات والمقترحات والمواقف والمواقف المضادة على مدى



دير القمر

ثمانية أشهر كاملة (أي حتى حزيران 1861). وتعددت المشاريع وتوسعت حتى انها طرحت البحث في مصير "الأراضي السورية" برمّتها. "فظهرت في العواصم الأوروبية على شكل نشرات أو مقالات أو كراريس بقلم كبار الكتّاب والخبراء والمراقبين السياسيين والصحافيين. فذاع خبر مشاريع مختلفة في فرنسا خصوصاً... وشاع أن الروس اقترحوا تقسيم سورية بين الدول الأوروبية..." (د. أحمد طربين، أزمة الحكم في لبنان... ص 199-200. مستنداً بشكل أساسي على: نور الدين حاطوم. رسالة دكتوراه من جامعة باريس سنة 1945).

اتفقت اللجنة، في آخر الأمر، أي في 9 حزيران 1861، على إقرار نظام للبنان جرى التوقيع عليه في الآستانة. وبموجب هذا النظام الذي عُرف بـ "النظام الأساسي" Réglement Organique أصبح لبنان سنجقاً عثمانياً له استقلاله الداخلي، على أن تضمن كيانه المستقل الدول الست موقعة النظام... وقبل أربعة أيام، أي في 5 حزيران 1861، غادر الجنرال دوتبول وجنوده لبنان. ومن ضمن ما وضعته حملته من دراسات، إبان وجودها في لبنان، خريطة لـ"لبنان التاريخي" سيعتمدها المطالبون بتوسيع رقعة جبل لبنان كما سنرى لاحقاً.

متصرفية جبل لبنان حسب النظام الأساسي

تألف النظام الأساسي لجبل لبنان من مقدمة، و17 مادة. وأهم ما نصّ عليه:

أ) تتألف متصرفية جبل لبنان من سبعة أقضية هي: الشوف، المتن، كسروان، البترون ومعها بشري والزاوية، الكورة، جزين وزحلة (مساحة هذه الأقضية أقل من مساحة الإمارة في العهدين الشهابي والمعني).

وقسّم كل قضاء من هذه الأقضية إلى عدد من النواحي، والناحية إلى عدد من القرى:

	عدد النواحي	عدد القرى
كسروان	16	600
الشوف	12	113
المتن	12	178
جزين	11	123
الكورة	9	43
البترون	7	149

زحلة، قضاء قائم بنفسه.

ب) يتولى إدارة جبل لبنان متصرّف مسيحي غير لبناني، تعينه الدولة العثمانية وتوافق عليه الدول الموقعة على البروتوكول.

ج) اما إدارة القضاء فيتولاها قائمقام يعينه المتصرف (لا يزال إلى يوم "القائمقام" هو أعلى موظف إداري في القضاء).

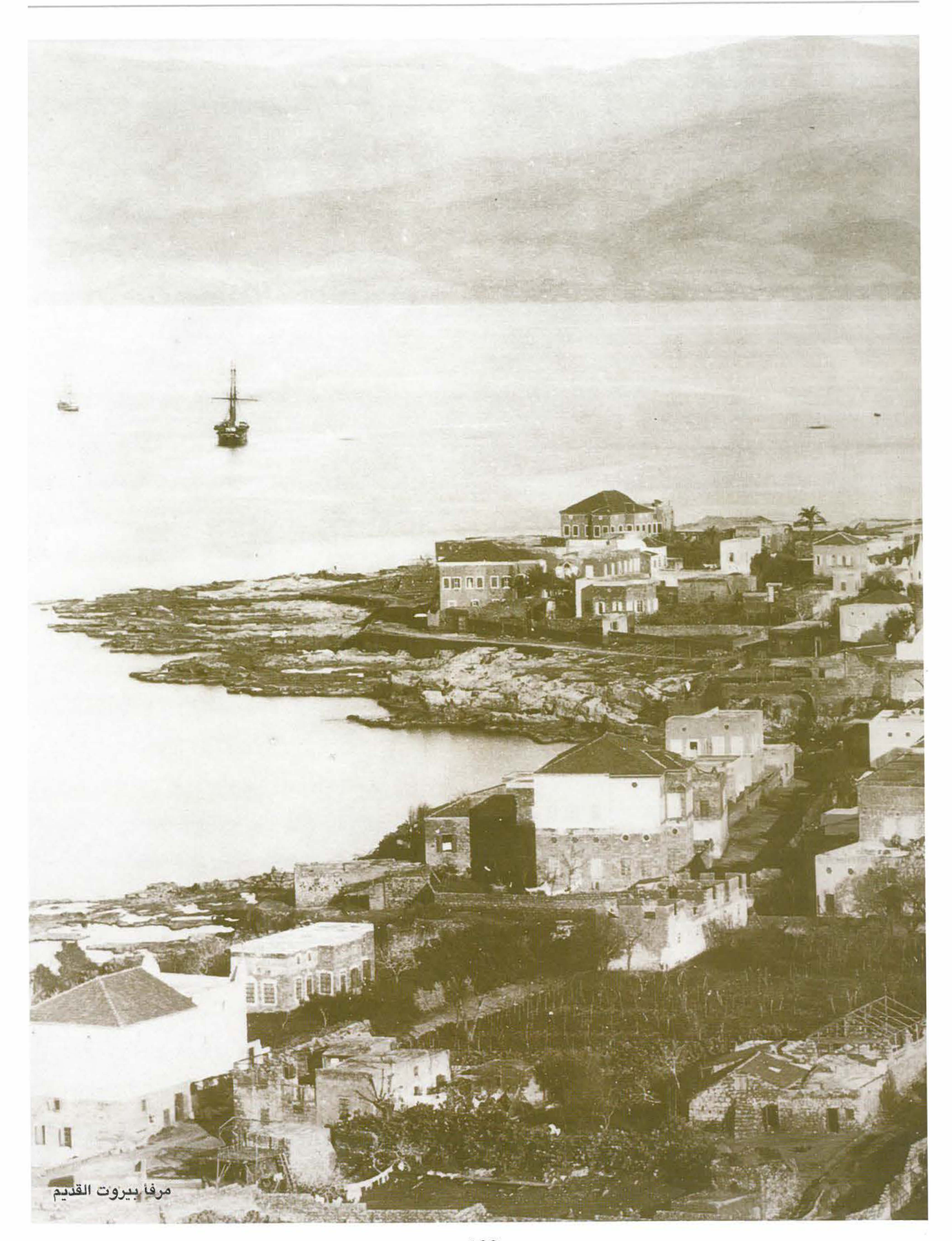
د) ويتولى شؤون الناحية مدير يعينه المتصرف أيضاً.

هـ)وأما القرية فيديرها مختار أو شيخ ينتخبه الأهالي.

و) يساعدالمتصرف في الحكم مجلس إدارة مكون من 12 عضواً يمثلون مختلف الطوائف اللبنانية:

ماروني	4
درزي	3
أرثوذكسي	2
كاثوليكي	1
سني	1
شيعي	1

أما توزيع هؤلاء الأعضاء بحسب الأقضية فيتمّ وفقاً للتوزيع التالي: كسروان 2 (موارنة) الشوف 1



مرفأ بيروت القديم

(درزي)، المتن 4 (ماروني، درزي، أرثوذكسي، شيعي)، جزين 3 (درزي، ماروني، سني)، الكورة 1 (أرثوذكسي)، زحلة (كاثوليكي).

ز) تساعد المتصرف في الحفاظ على الأمن فصائل من الدرك اللبناني او الضابطة.

ح) نُظمت المحاكم، وقُسّمت إلى محاكم بدائية ومحكمة استئناف عليا.

ط) وأما أمور الأحوال الشخصية، فبقيت بيد رجال الدين.

وألحق بهذا النظام "بروتوكول 1864" الذي اقترحه المتصرف الأول داود باشا بعد فترة تجريبية، ويقضي ببعض التعديلات الطفيفة المتعلقة بمجلس الإدارة والمحاكم ونظام الضرائب، ووافقت عليها السلطنة والدول الضامنة، كما وافقت على إبقاء داود باشا متصرفاً للمرة الثانية ولمدة خمس سنوات.

أما الأراضي الأخرى من "لبنان التاريخي"، فكانت:

- ولاية بيروت، التي تكوّنت من بيروت وصيدا وصور ومرجعيون وطرابلس (واللاذقية وعكا ونابلس)، واعتبرت أهم ولاية عثمانية في شرقي المتوسط.

أقضية أربعة هي: حاصبيا، راشيا، بعلبك والبقاع الغربي، وقد أتبعت بولاية دمشق.

لماذا هذا التركيز، لدى أكثر المؤرخين، على أن نظام المتصرفية صغّر "لبنان التاريخي"، أو "لبنان الإمارة" (المعنية والشهابية)، بسلخه للأقضية والمدن المذكورة.

لقد أوجز كمال سليمان الصليبي (تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر والتوزيع، ص 14) الردّ بقوله: "... بإمكاننا أن نحدّد لبنان تاريخياً، أثناء العهد العثماني، بالمنطقة التي تبدأ بقمم لبنان الشرقية وتمتد حتى البحر والتي تأثرت مباشرة بالحكم المعني والشهابي، وهي منطقة لا تختلف في حدودها عن لبنان الحديث، وقد نشأت فيها سلطة سياسية نمت وتطورت، دون توقف، من مطلع القرن السابع عشر إلى اليوم، فاتخذ لبنان من ذلك طابعاً خاصاً، وشخصية مميزة، ووحدة سياسية رعتها وحافظت عليها الأسرة والحكومات التي تعاقبت على تدبير شؤون البلاد...".

هذا فضلاً عن أن الخريطة التي وضعها الجيش الفرنسي (القسم الأهم في الحملة العسكرية التي اتفق على إرسالها إلى لبنان - 1861) للبنان، متطابقة هي الأخرى، وإلى حد كبير، مع التحديد الذي قال به الصليبي، وهذه الخريطة هي نفسها التي ستعتمدها الوفود اللبنانية إلى مؤتمر الصلح في بارس (1919).

السكان في عهد المتصرفية (والهجرة)

تسبّب سلخ المناطق المذكورة بتراجع كبير لعدد السكان، فقد هبط عدد سكان الجبل - الجزء الأوسط والأساسي في الإمارة اللبنانية - إلى أقل من نصف مليون نسمة، وأصبح سكان "لبنان" (أي "جبل لبنان" دون الأطراف والمدن الساحلية) لا يتعدّى الـ 450 ألفاً، بينهم 82٪ من المسحيين و12٪ دروز، وأقلية ضئيلة من السنّة والشيعة. أما الكثافة السكانية فكانت عالية جداً وتفوق 85 شخصاً في الكلم^2 الواحد.

وقد نصّ بروتوكول 1864 على السعي الحثيث للقيام بتعداد للسكان كي توزّع الضرائب بالتساوي على جميع السكان من جهة، ولمعرفة عدد رجال الأمن والشرطة الواجب تجنيدهم للمحافظة على الأمن الداخلي في المتصرفية من جهة ثانية. وقد جرى الإحصاء الأول للسكان في المتصرفية سنة 1867، في عهد المتصرف الأول داود باشا. وقد بلغ عددهم 380 ألفاً. وبعد عشرين عاماً (أي في1887) دلّ إحصاء جديد أن مجمل عدد السكان هو 395 ألفاً. وارتفع سنة 1900 إلى 400 ألف، ثم هبط إلى 382 ألفاً سنة


داود باشا

1905، قبل أن يرتفع مجدداً إلى 470 ألفاً سنة 1913 (على أبواب الحرب الأولى).

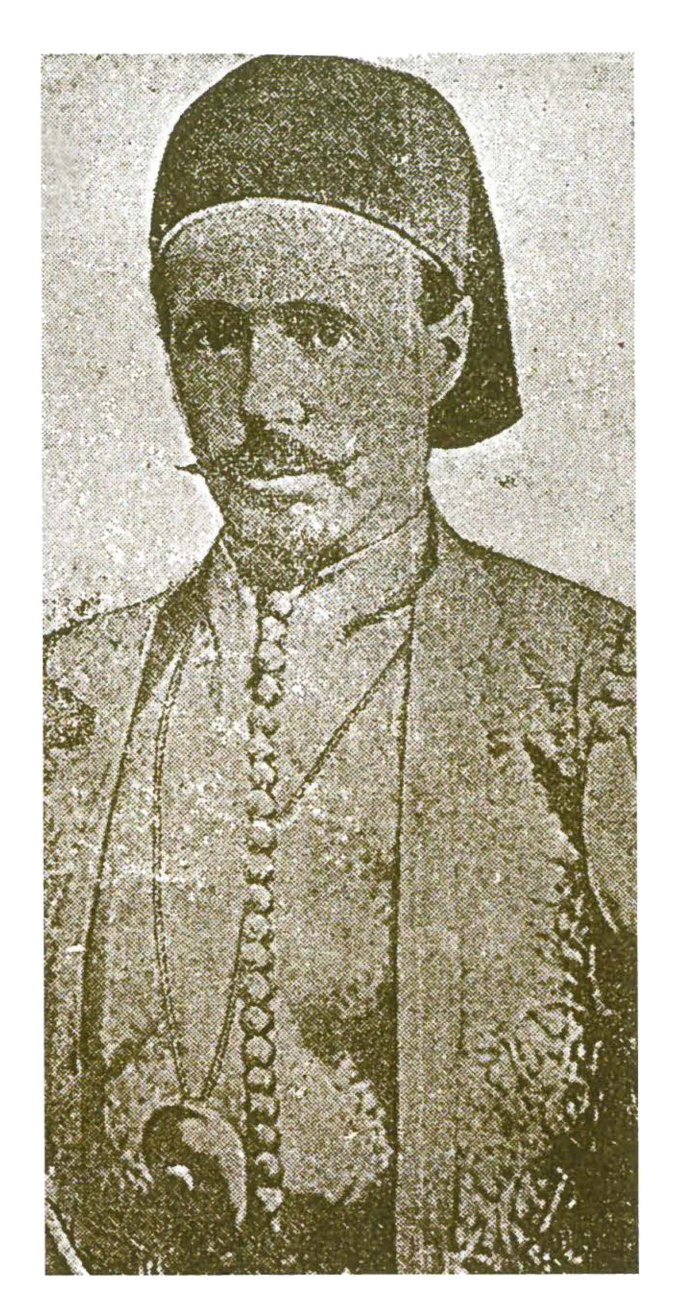
و"بمقارنة هذه الأرقام، يتبيّن أن سكان المتصرفية زاد عددهم 90 ألف نسمة فقط خلال 46 سنة (1867-1913). وهذا أمر غريب من الناحية العلمية لأنه إذا أخذنا نسبة زيادة معتدلة (2.5٪ مثلاً) لكان عدد سكان المتصرفية قد فاق المليون نسمة. فأين ذهبت كل هذه الزيادة؟..

"كان هدف السلطنة من وراء سلخ القسم الأكبر والأخصب من أراضي الإمارة اللبنانية، دفع سكان جبل لبنان إلى الإنضمام إلى الدولة العثمانية طلباً للعيش برخاء. إلا أن هؤلاء فضّلوا العيش الحرّ في جبلهم الوعر. ولما ضاقت بهم أرجاؤه، فضّلوا الهجرة إلى دنيا الاغتراب سعياً وراء حياة أفضل وكان ذلك بداية عصر الهجرة اللبنانية الحديثة التي استنزفت نصف سكان المتصرفية خلال فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز الأربعين عاماً. وقد بلغ عدد المهاجرين المسجّلين في دوائر المتصرفية أكثر من مئة ألف مهاجر سنة 1905" (**د. لابا السمعاني، منشورات الجامعة اللبنانية، العدد 41، بيروت 1996، ص 178**).

داود باشا

استمرّ نظام التصرفية إلى العام 1920. لكنه كان "إسمياً" منذ أن ألغى امتيازاته جمال باشا في العام 1915، واستمرّ إسمياً مع احتلال الحلفاء العسكري للبنان (1918-1920) إلى أن حلّت محله "دولة لبنان الكبير" بدءاً من أول أيلول 1920.

توفق المتصرف الأول، داود باشا، في ترسيخ دعائم النظام (نظام المتصرفية)، فسهّل الأمر أمام خلفائه من المتصرفين. فحقّق المصالحة بين الطوائف المتعطشة جميعاً إلى الهدوء والأمن بعد كوارث الفتنة الأخيرة وما سبقها من فتن واضطرابات طيلة عهد القائمقاميتين. وعاد التعاون بين النصارى والدروز من جديد.. وإذ كانت الاسر الإقطاعية لا تزال تحتفظ ببعض النفوذ والشعبية، عمد المتصرف إلى اجتذابها شيئاً فشيئاً خشية أن لا تتكتل في ما بينها وتخلق له المصاعب، وذلك بأن عيّن 16 أميراً وشيخاً في مناصب حكومية رفيعة. "والحقيقة أنه لولا حسن إدارة هذا المتصرف وعدله، لتمكنت معارضة رجال الإقطاع له، وجلهم من الدروز، (بالإضافة إلى معارضة



يوسف بك كرم

يوسف كرم). أن تعيد البلاد إلى شبح أزمة جديدة، خاصة وأن معارضتهم لاقت، في البدء، استحساناً ورواجاً بسبب فداحة الضرائب على الطبقات الدنيا. لكن داود باشا استطاع أن يتجنب العاصفة، فوطّد الأمن والاستقرار وتمكن من تطبيق أحكام الدستور" (فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 540: نقلاً عن Jessup,p.266).

يوسف كرم

ينتمي يوسف كرم (1823-1889) إلى أسرة صغيرة من مشايخ إهدن. كان والده بطرس أول من تسلّم في أسرته "عهدة" إهدن. تلّقى يوسف كرم علومه، أسوة بأبناء جيله، على رجال الدين في مدرسة القرية، فأتقن العربية، وألمّ بالفرنسية قراءة وكتابة. وفي مطلع حياته ظهرت عنده موهبة الزعامة، ولفت إليه الأنظار، وقاد جانباً من أحداث السنوات التي عاصرها، وبرز زعيماً مارونياً شاباً، أثارت زعامته حماسة السكان، في غياب أي مقدرة على القيادة من جانب الطبقة الحاكمة آنذاك، سواء عند آل شهاب أو آل أبي اللمع. وكانت المرة الأولى في جبل لبنان يرتفع شاب، لا مكانة عليا ولا مرتبة له، إلى أعلى منصب سياسي في البلاد (قائمقام)، وإلى زعامة شعبية برزت في جبل لبنان ولم يكن لها سابقة تحت نظام الإقطاع وكان أتباع يوسف كرم الموارنة المنتشرين في كل أنحاء البلاد، لا من رعايا الإقطاعيين وحدهم. وكان يجذب إليه، في الأخص، أبناء الجيل الطالع. ويبدو أنه هو نفسه كان مقتنعاً بأنه كان يمثل طرازاً جديداً من الزعامة، ويستدلّ على ذلك مما كتبه مرة وأعرب فيه عن شعوره قائلاً: "... تاركاً بعدي طريقاً أمينة لأبناء الوطن محبوبون عندي أكثر جداً من تقدمي إلى الوظائف واضع أمام أعينهم سنناً وعوايد جديدة يتبادرون إليها" (ايليا حريق، التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث، ص 111-112).

لم يكن يوسف كرم ليرضى بأقل من أن يصبح الحاكم الوطني للبلاد. ولما تبيّن أن نظام المتصرفية الجديد يحول دون وصول لبناني إلى منصب الحاكمية، هبّ يناوئ هذا النظام. فكان أن نفاه الحاكم العثماني إلى اسطنبول. لكنه عاد ليقود قوى المعارضة بين الموارنة في وجه المتصرف. ولما أصيب بالفشل مرة


عبد القادر الجزائري

ثانية. نفي إلى الجزائر. ثم انتقل من هناك إلى فرنسا وسائر أوروبا. "وعبثاً ذهبت طلباته المتكررة للسماح له بالعودة إلى لبنان. فمات في منفاه بايطاليا وله من العمر 76 عاماً" (كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. ص 151).

تناولته بعض كتب "التاريخ الإيديولوجي" مغلّبةً لديه نزعته المارونية وجاعلة منه بطلاً مارونياً أسطورياً وقديساً. إلا أن مثل هذه الكتابات. التي أخذت "الجانب القليل وأهملت الجوانب الأهم". ما لبثت أن انكفأت أمام كتب ودراسات حديثة اعتمدت الوثائق (مواقفه ورسائله. خصوصاً في سنوات نفيه الطويلة واتصالاته بالمسؤولين الأوروبيين) لتستنتج أنه زعيم ماروني. وطني. لبناني وعربي. ذو فكر سياسي ونهضوي.

فبتأثير من مشاهداته في أوروبا. تلاقى بما كان يفكر فيه أحرار العثمانيين (خاصة العرب) المقيمين هناك. فكان (حريصاً على أن تكون السلطة مستمدة من الشعب. والفكرة هذه تظهر لأول مرة في لبنان في كتابات مفكر ما. بعدما شاعت. عملياً في ثورات العامية. فبرّر كرم طموحه إلى السلطة بتأييد الشعب وبما تنطوي عليه الوطنية اللبنانية من أفكار تقوم على أساس استقلال لبنان... فمنذ الفتح الإسلامي لسورية. حافظ لبنان على استقلاله الذاتي في نظر كرم. وفي العهد العثماني أدّى لبنان الجزية ليبعد العثمانيين عن التدخل في شؤونه الداخلية. ولبنان في نظره يشمل الإمارة كلها... وكان يعتبر نفسه بطل هذا الاستقلال العريق... ومن هنا رفضه العنيف لنظام القائمقاميتين. وذلك لاعتقاده أن اللبنانيين لا يحتملون التقسيم. وإلا لما استطاعوا أن يقاوموا اضطهاد جيرانهم كما فعلوا عبر التاريخ.ولبنان هو موطن النشاط العام في البلاد. ويؤلفون ثلاثة أرباع السكان... وكان يوسف كرم يمثّل الوطنية اللبنانية الشمالية أعنف تمثيل. ففي حياته كما في كتاباته صاغ فكرة الوطنية اللبنانية. ومما قاله إن الموارنة أبناء وطن واحد. وأعضاء كنيسة واحدة. ولهم وطنية واحدة" (إيليا حريق. ص 113،112. 114).

"وعن يوسف كرم. في فكره. يقول صاحب "الخماسية الأنطاكية". الأب يواكيم مبارك: ولو باقتضاب كبير. ففي مذكراته المرفوعة سنة 1871. إلى حكام أوروبا وأممها يركز يوسف كرم على هذه النقاط. واعتقد أنها نقاط لا تزال إلى يومنا. منطلقاً

صحيحاً لالتزامنا القومي في هذه الديار. وهنا استخلص وألخّص أقواله على طريقتي ولكن في التزام كبير لفكره ومنها صيغة المتكلم:

"**- أولاً**: إن جبل لبنان ملجأ لنصارى سورية على مدى التاريخ. فالنصارى لهم حق طبيعي في هذا الملجأ عند الملمات. ولكن هذا الملجأ ليس وطناً مسيحياً بل لبناني. وعليه أرفض أن يحكمه رجل أجنبي ولو كان مسيحياً.

"**- ثانياً**: إن الكيان اللبناني متأصل في الجغرافيا والتاريخ وهذا ما يعطيه حقه في الوجود. حقاً لا ينكره عليه أي ضمير عاقل. ولكن الوجود اللبناني مبني في بعد أعمق وأمتن من الجغرافيا والتاريخ. إنه مبني على ما يُسمى في لغة القانون الدولي المعاصر Le droit des gens والذي هو بدل عبارة Le droit naturel. والذي نعبّر عنه اليوم عندما نتكلم في شرعة حقوق الإنسان. إذن ليس لبنان مبنياً على العرق أو الدين أو المصلحة مهما يكن من أهمية هذه العوامل. بل على اتفاق اللبنانيين الحر في ما بينهم بشرط أن يكون اتفاقهم خاضعاً لشرعة حقوق الإنسان.

"**-ثالثاً**: إن تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين وتقسيم القائمقاميتين إلى مديريات كثيرة في أساس خراب لبنان. فالتقسيم هذا هوالذي يعزّز القبائلية اللبنانية ويسمح للدول الأجنبية أن تتدخّل في أمور لبنان وأن تتبنّى كل دولة قبيلتها اللبنانية لمصلحة تلك الدولة.

"**-رابعاً** : إن اللبنانيين الموارنة شديدو التعلّق بفرنسا، دولةً وشعباً ولغةً (...) وإني إذ ألوذ بحمى فرنسا وأقبل الأسر في الجزائر، ثم في باريس، أقطع الحدود الفرنسية خلسة محافظة مني على حريتي وحرصاً على شرف الدولة الفرنسية عندما أخاف منها على حريتي. وفي كل حال إنني لا أفصل فرنسا عن أوروبا، ولا سيّما عن الكرسي الرسولي. ولهذا أنا رافع مذكرتي إلى حكام أوروبا وأممها انطلاقاً من روما، لأنني مقتنع بضرورة التنسيق الدولي الذي يفرض نفسه في كل قضية سياسية كبرى ولا سيّما في القضية اللبنانية.

"**- خامساً**: إنني في دفاعي عن القضية اللبنانية ولا أقول عن القضية المسيحية في لبنان بالرغم من الملمّات التي أصابت المسيحية، حريص على تنسيق عام بين الباب العالي والدول الكبرى ولكني لا أرى حلاً خارجاً عن حرية الكيان اللبناني في إطار الأمة العربية - موضوع الأمة العربية وارد بصورة أساسية في المراسلة بين يوسف كرم في أسره الأوروبي وبين الأمير عبد القادر الجزائري في أسره الدمشقي " (كل هذه النقاط الخمس عن محسن أ. يمين. في مقالته "مؤلف الخماسية في البقعة المباركة للمصير الماروني"، المنشورة في جريدة "النهار" تاريخ 3 آب 1985).

وآخر ما وضع من مؤلفات في سيرة يوسف بك كرم، كتاب سركيس أبو زيد "عروبة يوسف بك كرم" (دار أبعاد، بيروت، 1998)، ومختصر مفيده أن كرم مفكّر سياسي شغل دوراً قيادياً في عدة مناطق لبنانية، وعمل لوحدة بلاده، فلفت أنظار الساسة الأوروبيين، فحاولوا استمالته بغية تحقيق مآربهم، ففضح أمرهم، وعاش مهاجراً يعمل لاستقلال بلاده ولاتحاد العرب، وهوالقائل "... لا نجاة ولا نجاح للأقطار العربية جمعاء إلا بالاتحاد...". وتفصح رسائله العديدة وبخاصة منها الموجّهة إلى الأمير عبد القادر الجزائري ما يكنّه من هواجس وسعي دؤوب لاستقلال البلدان العربية واتحادها. "فهو أول رجل سياسي في لبنان، يجمع في شخصه العمل السياسي والنشاط الفكري معاً". واجه مشاريع السيطرة والهيمنة الأوروبية وطالب الشعب بعدم الاعتماد إلا على نفسه. ويقول: "إذا نحن انتظرنا مساعدة الأجانب، الذين لا يتدخلون بأعمالنا، إلاّ ليخضعونا لمرغوباتهم المتجهة رأساً لتقسيم

جنسنا، ومنعه من الاتحاد...". وعمل بصدق لإقامة نوع من الاتحاد بين البلدان العربية أطلق عليه إسم "كونفدراسيون". ويخاطب الشعوب الناطقة بالعربية بإحدى رسائله قائلاً: "إلى أبناء لغتي العربية في الأقاليم السورية...". ويضيف "ينبغي لنا، معاشر أبناء العربية، أن نظهر للخاصة والعامة، حبنا الأخوي...". ويقول في رسالة أخرى: "فخير لنا نحن الشرقيون أن يكون لنا المشرق بأسره وطن لكل منا من أن تكون لنا أوطان عديدة مهانة على قدر صغرها وانقساماتها..."

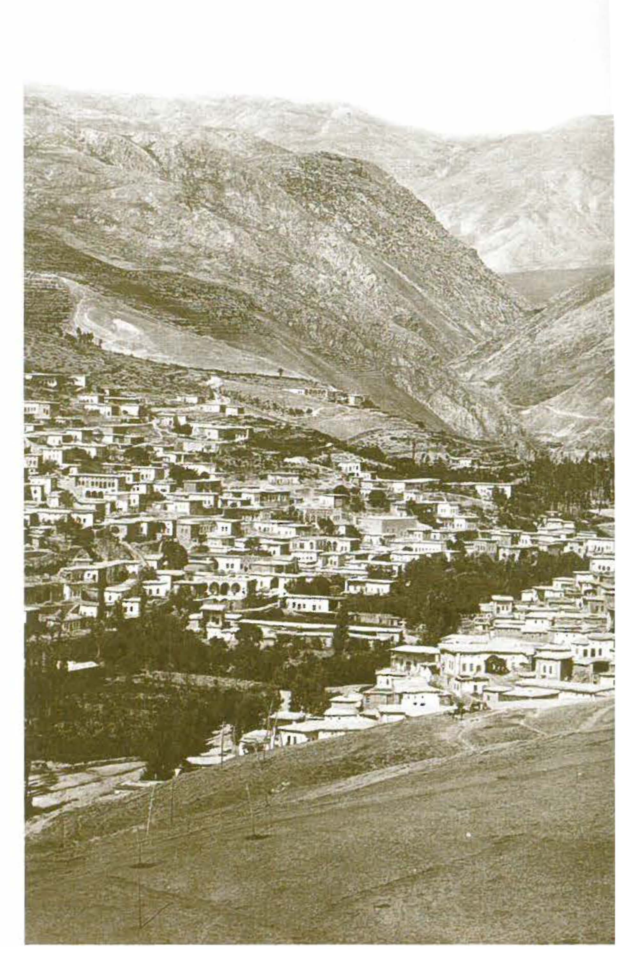
هامش استقلالي عريض أمّنه نظام المتصرفية

هذا الهامش، أو الميزة التي كانت لجبل لبنان في إطار الدولة العثمانية، خلافاً عن سواه في المناطق المجاورة، كانت ولا تزال موضوع دراسات أكدت هذا الأمر. من بينها، ومنها، كتاب الدكتور جوزيف لبكي، أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، "متصرفية جبل لبنان، مسائل وقضايا" (دار الكرمة، 1995)، الذي عالج مواقف اللبنانيين من مواد نظام المتصرفية الثماني عشرة، المتصفة بمعظمها بالإبهام، "مما فتح باب التأويل والتفسير أمامهم على مختلف نزعاتهم، وأمام العثمانيين والدول الأوروبية. فجرت محاولات تطويق والتفاف وتهديد مباشر لهذا النظام - الامتياز أدّت إلى نشوء مسائل وقضايا سياسية واقتصادية". درس منها المؤلف (د. جوزيف لبكي) تسعاً، هي: مسألة إشتراك اللبنانيين في مجلس "المبعوثان" العثماني بعد ولادة الدستور العثماني (1908)، ومسألة هوية اللبنانيين في متصرفية جبل لبنان أو مسألة أخذ تذاكر نفوس عثمانية، ومسألة هوية اللبنانيين المقيمين في الولايات العثمانية، ومسألة الصحافة اللبنانية (1907-1912)، ومسألة زيارة الجند العثماني إلى بعبدا (1912)، وقضية المرافئ اللبنانية (مرفأ جونية)، ومسائل الملح والتبغ والتنباك.

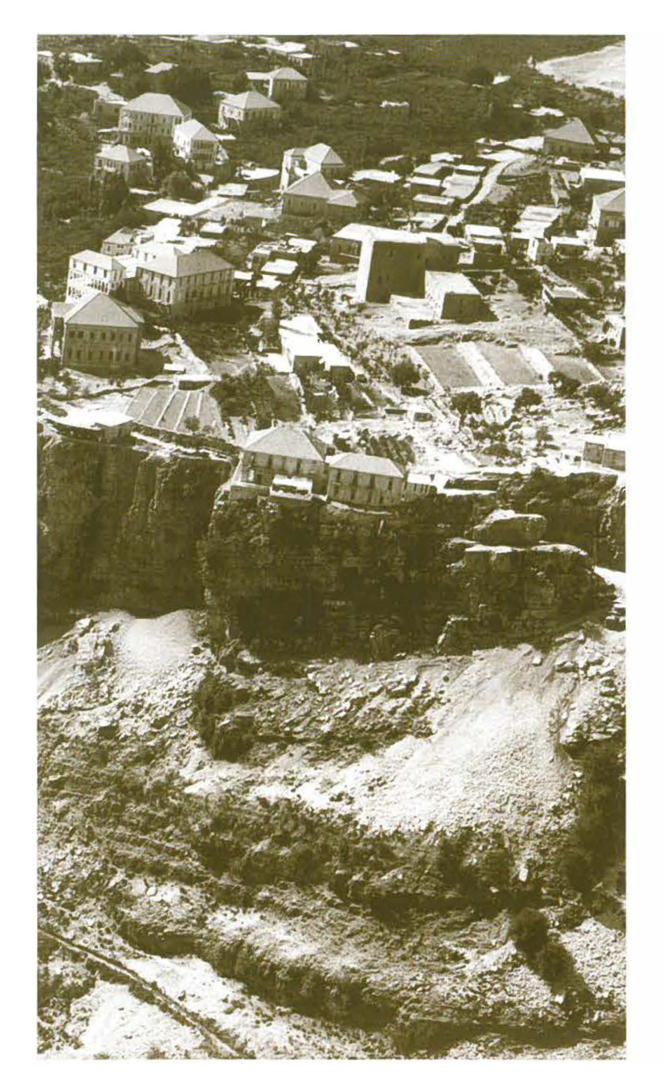
ومن دراسته التفصيلية لهذه المسائل (يقع الكتاب في 378 صفحة)، يمكن استنتاج أن اللبنانيين كانوا يختلفون حول هذه المسائل بين متشدّد ومعتدل، في غالبيتهم العظمى، تمسكاً بالامتيازات التي أعطاها البروتوكول وطلباً للاستقلال، وبين طالب للعثمنة، في أقليتهم.

فنظام بروتوكول المتصرفية وما تبعه من إجراءات وأنظمة واتفاقيات أعطى اللبنانيين حقوقاً معينة في كيان خاص داخل جسم السلطنة العثمانية "ولو كان الأمر غير ذلك، أي لو كان لبنان كسائر ولايات السلطنة، لما كانت قد طُرحت هذه المسائل التي عالجنا، ولما استطاع اللبنانيون أن يطالبوا ويجادلوا ويتخذوا هذه المواقف، ولما كانت قد ساندتهم أو عارضتهم في مواقفهم. وهكذا يكون هذا النظام الخاص، مهما قيل فيه، قد شكل للبنانيين إطاراً سياسياً متميزاً عملوا ضمنه" (ص324).

أما التباين في مواقف الطوائف اللبنانية، وبصورة عامة (المسيحيون والموارنة أكثر تشدداً في التعلق بامتياز البروتوكول)، فقد ظهر في المسائل السياسية أكثر منه في المسائل الاقتصادية. وهذا أمر طبيعي، فلجميع اللبنانيين مصلحة في إيجاد مرافىء وفي استخراج الملح وزراعة التبغ والتنباك وخلافه. غير أن التباين في المواقف السياسية (إزاء اشتراك اللبنانيين في مجلس "المبعوثان"، الهوية...) لم يكن قاطعاً وشاملاً، بل كانت هناك جماعات، ولو قليلة، من هذه الطائفة تؤيّد مواقف الأكثرية من الطوائف الأخرى "(ص324).

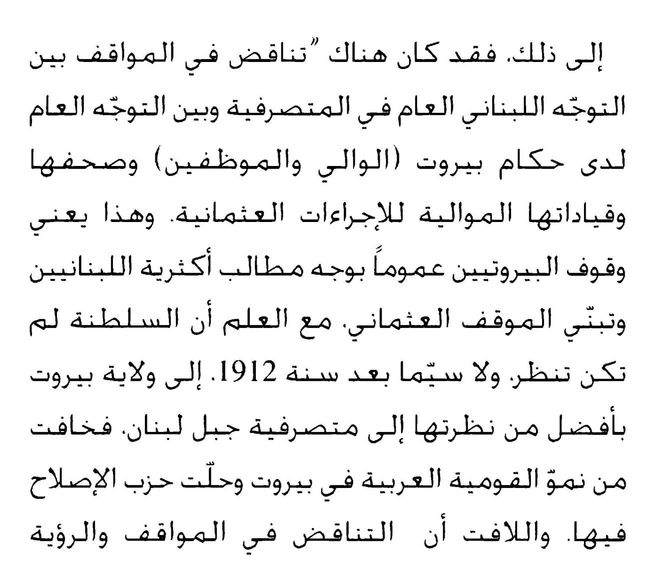


مدينة زحلة




جانب من جزين

وأما مجلس الإدارة، الذي كان يمثّل الطوائف اللبنانية، فقد اتخذ "المواقف التي رآها صواباً وفق قناعاته. فلم ينقسم على نفسه على الرغم من تركيبته، ولم ينظر إلى المسائل بعين طائفية، بل دافع عن مصالح لبنان بواقعية ووطنية، حتى إنه تبنّى الكثير من مواقف الشعب اللبناني في غير مسألة، وهذا يدلّ على منحى ديمقراطي جديد في الحياة النيابية في لبنان. وعرف مجلس الإدارة أن ينتقل من مستوى التمثيل الطائفي إلى مستوي التمثيل الوطني"(ص324).


إلى ذلك، فقد كان هناك "تناقض في المواقف بين التوجّه اللبناني العام في المتصرفية وبين التوجّه العام لدى حكام بيروت (الوالي والموظفين) وصحفها وقياداتها الموالية للإجراءات العثمانية. وهذا يعني وقوف البيروتيين عموماً بوجه مطالب أكثرية اللبنانيين وتبنّي الموقف العثماني. مع العلم أن السلطنة لم تكن تنظر، ولا سيّما بعد سنة 1912، إلى ولاية بيروت بأفضل من نظرتها إلى متصرفية جبل لبنان. فخافت من نموّ القومية العربية في بيروت وحلّت حزب الإصلاح فيها. واللافت أن التناقض في المواقف والرؤية



بيت الدين مركز الامارة

السياسية بين متصرفية جبل لبنان وبين ولاية بيروت قد استمر بعد سقوط السلطنة العثمانية..." (ص337-338).

أحوال سياسية - طوائفية عامة

1- في المسيحيين

في قضاء كسروان، لم يتمكن آل الخازن من العودة إلى سابق عهدهم من الممارسة حيال العامة. لكن الأجواء بقيت مشحونة بالحساسيات الطبقية التي كان يصاحبها أحياناً بعض الحوادث. وكان أهالي كسروان، كباقي المناطق المسيحية الشمالية، ينظرون بامتعاض إلى نظام المتصرفية لأنه قضى بأن يكون المتصرف من غير اللبنانيين وإن كان مسيحياً، ولأنه قضى بتصغير لبنان. وبرز بين الكسروانيين زعماء جدد (مثلوا "الجبهة الشعبية" في وجه آل الخازن). في طليعتهم حبيب بك البيطار وجورج بك زوين والدكتور الحقوقي بولس نجيم والمحامي نعوم باخوس. وفي بلاد جبيل، وكانت تؤلف قسماً من قضاء كسروان، اضطرّ زعماؤها، وجلّهم مقيم في عمشيت، من آل لحود وكرم ووهبه وكلّاب وزخيا، لتأليف جبهة مستقلة تأميناً لمصلحة ناحيتهم وتوصلاً للنيابة عنها. وقد برزوا (أخصّهم الوجيه أسعد بك لحود) فيما عهد إليهم من وظائف إدارية وقضائية (يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، دار النهار للنشر، ط1، 1964، ص52-53).

بين هذه الأسماء، برز بولس نجيم، الذي وضع، في باريس سنة 1908، "كتاباً يشرح فيه القضية اللبنانية: "لكي يتاح للبنان أن يلعب في سورية الدور العظيم الذي أسنده إليه التاريخ والطبيعة، اقتضى القيام بإصلاح عملي جبّار، أوله إعادة النظر في حدوده. فنظاماً 1861 و 1864 شوّها لبنان وسلباه بعضاً من



سليمان بك كنعان

أخصب مناطقه. وفوق ذلك كله، حرماه من مرفأ بيروت الكبير..." (كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص 156).

في إهدن وزغرتا والزاوية، كان زعيمها البارز أسعد بك كرم (ابن شقيق يوسف بك كرم) وشقيقه بطرس. وبعد وفاتهما دون قيام من يخلفهما في الزعامة من أسرتهما، برز نفوذ آل فرنجية، وعيّن زعيمهم قبلان مدبراً للناحية، وكانت شقيقته سلطانة قريبة الوجيه قيصر طربيه تدير دفة الزعامة والسياسة المحلية. وقد ناوأ قبلان بك آل كرم ودويهي ومعوض وبولس، فأجمعت كلمتهم على الالتفاف حول الوجيه ميشال معوض. فظل الزعيمان، قبلان وميشال يختصمان حيناً ويتفقان إذا ألمّت ملمة من الخارج. أما ناحية الزاوية، فكان زعيمها الشيخ كنعان الضاهر (يوسف الحكيم، ص 49-50).



باريس خلال مؤتمر 1860

في بشري وحصرون. تنازع زعامتها نجيب بك حنا الظاهر (ابن خالة حبيب السعد) وابن عمه عزيز بك. ولم تكن الزعامة شديدة الوقع في بشري. وظلت العائلات البارزة، كآل عريضة وكيروز والخوري ورحمة وجعجع على الحياد بين فريقي أبناء العم. وكان زعيم حصرون الحقيقي المطران بولس عواد. ولم يزاحم أحد أخاه الشيخ يوسف عواد في منصب مديرية الناحية (**يوسف الحكيم. ص 50**).

في البترون وقنات ودوما وتنورين وقضاء الكورة. كان مدير ناحيتها ابراهيم بك عقل المعروف بأنه كان "الإبن الروحي" للبطريرك الحويك. وكان سعد اللّه بك الحويك. شقيق البطريرك نائباً عن قضاء البترون في معظم الأدوار. وكان مشايخ أبي صعب في قنات وآل بشير في دوما على الحياد بين الأحزاب. في حين أن وجهاء تنورين من آل طربيه والخوري ويونس تنازعوا

النفوذ في ما بينهم. وبرز في قضاء الكورة الشيخ جرجس العازار من وجهاء أميون. ولما كانت الثقافة منتشرة في هذا القضاء والثروة موزّعة بين سكانه بصورة متقاربة، فلم يكن للزعامة كبير أثر. وأجمعت كسبا على اختيار نقولا بك غصن زعيماً لها ثم نائباً عن قضاء الكورة في مجلس الإدارة... بينما فاخرت بطرام بوجاهة آل مالك وعلى رأسهم الطبيب حبيب مالك (والد الدكتور شارل مالك). وكانت الديمقراطية هي السائدة في القضاء باستثناء مديريته المعروفة بالشمالية وكان نصيبها من الثقافة ضئيلاً، فظلت زعامتها محصورة في الأمراء الأيوبيين. وقد نبغ منهم، بعد الحرب العالمية الأولى، الأمير حسن وأحرز شهادة الحقوق وتقلد مناصب القضاء في سورية (يوسف الحكيم، ص 51-52).

في قضاء المتن وزحلة وجزين، "... لم تخل قرية من قرى المتن من مدرّس وطبيب وصيدلي، ونشأ في بعضها، كالشوير وبكفيا، قضاة ومحامون وأساتذة في الفلسفة واللاهوت ولم يبقَ فيها أمي واحد...". ولم يبقَ في هذا القضاء من أثر للإقطاعية مع بقاء أمراء أبي اللمع محافظين على وجاهتهم. ومثلهم وجهاء الدروز كالمقدمين آل مزهر وصبره وشقير وأبي عز الدين. وقد ظلّوا جميعاً على الحياد بإزاء الاختلافات الحزبية العارمة بين إخوانهم في قضاء الشوف. أما في زحلة فقد، اتحدت أحزاب العائلات المفاخرة بعراقتها، أبو خاطر، البريدي، مسلّم، الحاج شاهين، معلوف، السكاف... في جبهة متحدة عُرفت بـ "جبهة الذوات"، تقابلها "الجبهة الشعبية" ومن أركانها شبل وموسى والراعي (وصاحب جريدة زحلة الفتاة) شكري البخاش وأسعد ونجيب نكد ويوسف لوند. ومن حظ هذه الجبهة أن انحاز إليها عبد الله بك أبو خاطر، شقيق القائمقام، وغيره من ذوي الأفكار الحرة. وفي



بولس نجيم

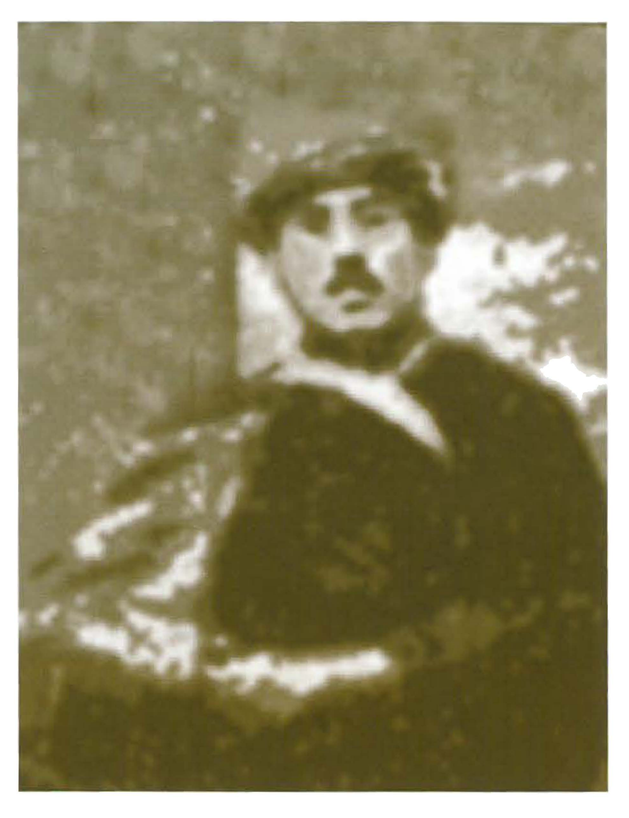
جزين ومنطقتها، حزبان رئيسان تزعّم أحدهما سليمان بك كنعان عضو مجلس الإدارة، وتزعّم الثاني آل عازوري. وكان الفريق الأول مقاوم لحبيب باشا السعد الذي أيّده الفريق الثاني (عازوري). لذلك لم يتوانَ حبيب باشا، فور تسلّمه نيابة رئيس مجلس الإدارة، من إقناع الحاكم بضرورة تعيين نسيبه سليم بك المعوشي، قائمقاماً على جزين بدلاً من انطون بك الخوري الصديق الحميم لآل عمون (يوسف الحكيم، ص53-54).

في دير القمر، التي كانت المركز القديم لحكومة جبل لبنان، برزت زعامة الأخوة الثلاثة سليم واسكندر وداود عمون، ونمر بو شمعون (رئيس ديوان المالية في الحكومة المركزية)، وكلهم خصم قوي لحبيب باشا السعد؛ وكذلك وجاهة أناس من آل أفتيموس وهنود وخير ومشاقة. وانقسمت الحزبية في دير القمر بين

فريق آل الخوري والمعوشي (يتزعّمها حبيب باشا السعد من آل الخوري). وفريق آل عمون وشعمون ورشيد نخلة ومعظم آل البستاني. وكانت دير القمر محرومة من نائب يمثلها في مجلس الإدارة وربّما كان السبب في ذلك قلة عدد سكانها بالنسبة إلى أصغر قضاء في جبل لبنان. ولكن مساعي أهلها المتواصلة اقترنت باتفاق الدول السبع على قبول اقتراح فرنسا بأن تنتخب دير القمر نائباً عنها أسوة بسائر الأقضية. "ومن حسن حظ دير القمر إجماعها على إنابة داود بك عمون المحامي المعروف المقيم في مصر. وهو من أعلام لبنان. قوي الحجة. عالي الثقافة... ومما يجدر ذكره في صدد إخلاص الأخوين داود واسكندر عمون لبلدهما. المفارقة في ميولهما السياسية. فأولهما يفضّل فرنسا على غيرها من الدول الأوروبية. بينما يفاخر الثاني اسكندر بك بعروبته موالياً لسياسة بريطانيا باعتبارها صديقة العرب المفضّلة آنذاك على سواها من الدول. وظل الاخوان على هذه المفارقة حتى الحرب الكبرى وبعدها..." (يوسف الحكيم. ص 48-49. والجدير ذكره أن يوسف الحكيم كان يشغل منصب كبير أمناء حاكم جبل لبنان. أي رئيس القلم التركي. بحسب ما يقول في مقدمة كتابه. المرجع. بيروت ولبنان في عهد آل عثمان. دار النهار للنشر. ط1. 1964).

2- في الدروز

في حين انصبّ موقف المسيحيين. بشكل عام. على معارضة نظام المتصرفية والعثمانيين لسبب رئيسي هو اقتطاع مناطق لبنانية وفرض حاكم أجنبي على الجبل (ووصل بعضهم. في المعارضة. إلى أسباب تتعدى حدود لبنان. إذ كان أكثر "النهضويين" منهم في أساس وضع فكرة القومية العربية والمطالبة باستقلال البلاد العربية عن السلطنة. في حين كانت أكثرية المسلمين العرب ترفض بكشل جازم هذا



الامير شكيب ارسلان

الاستقلال. والحديث عن هذا الموضوع لم تفه بعد المجلدات الضخمة التي وضعت لمعالجته حقه كاملاً. انظر على سبيل المثال: يقظة العرب لجورج أنطونيوس. ونشوء القومية العربية لزين الدين نور الدين). انصرف الدروز "للإفادة ما أمكن من هذا الوضع. بالتعاون الحميم مع المتصرفية" (كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. ص157).

أما على صعيد الحزبية الدرزية الداخلية. فقد كان الخلاف في بداية الأمر بين زعمائهم القيسيين (كان قد قضي على الحزب اليمني. أو اليماني. منذ معركة عين دارا). وهم من آل جنبلاط وعماد وبو نكد وعبد الملك وتلحوق. حول حاكمية الشوف. حتى "نزلوا عند رأي أحدهم التلحوقي. واتفقوا على إسنادها إلى أمير أرسلاني ظلّ دوماً على الحياد. وتعاقب على الحاكمية عدة أمراء أرسلانيين إلى أن دبّ الخلاف ثانية بين


اسواق بيروت

الزعماء القيسيين. وكان أقواهم الحزب الجنبلاطي يقابله الحزب اليزبكي المؤلف من آل عماد وعبد الملك، مع تمّسك الباقين بالحياد (...) أما الأمراء الأرسلانيون... حالف فريق منهم، وعلى رأسه الأمير توفيق مجيد أرسلان، الحزب اليزبكي، وعطف الفريق الآخر ورئيسه الأمير مصطفى أرسلان على الحزب الجنبلاطي... بينما كان الأمير شكيب أرسلان، الأديب والسياسي، يعمل لمصلحة الدولة العثمانية مع أركانها الاتحاديين. كان شيخا العقل حمادة وطليع من خيرة العقال صلاحاً وتقوى حائزين احترام جميع الناس رغم اختلافهما في النزعة الحزبية، فأولهما جنبلاطي والآخر يزبكي. وكان آل حمادة ولا يزالون يفاخرون بسبق حكمهم المتن والشوف قبل حكم الشهابيين. أما الشيخ الورع الفاضل سعيد حمدان قاضي المذهب الدرزي، فكان بحكم وظيفته لجميع أبناء ملته رغم صلة القرابة بينه وبين آل جنبلاط. وكان بين المعروفين برقيّهم ومكانتهم العائلية - كآل تلحوق وعبد الصمد وتقي الدين وزين الدين وعلم الدين - من يميل بعض الميل إلى أحد الحزبين القويين (الجنبلاطي واليزبكي) دون إفراط وتعصّب.

أما القاضي الكبير عباس حميه، رئيس محكمة الشوف، وآله والأستاذ الأديب عارف نكد رئيس ديوان الحقوق الاستئنافية وجميع آل نكد. فكانوا دوماً إلى جانب الأمير مصطفى أرسلان (يوسف الحكيم، ص 45-46).

3- في مسلمي الجبل

"يشغل الجعفريون (الشيعة) - أو المتاولة كما كانوا يسمون - كامل ناحية الهرمل الواسعة الأطراف، وقسماً من أعالي جبال كسروان (أتبعت ناحية الهرمل بجبل لبنان)، وبعض قرى الساحل. وكان زعيمهم الأكبر سعيد بك حمادة مديراً للناحية، ثم استقال طلباً للراحة بعد تقدّمه في السن. فعُين بدلاً منه ابنه سعد الله بك. كانت زعامة آل حمادة مؤيدة من جميع الشيعة في بعلبك وجبل عامل وغيرهما، كما كان نفوذ كبيرهم السعيد مقترناً بحسن الإدارة وكافياً لتقرير الأمن من الناحية ومغنياً الحكومة المركزية عن مده بالدرك والجنود. ولما حلّ ابنه سعد اللّه بك محله اقتفى أثر والده، ولكنه لم يسلم من مناوئين من أبناء عمومته وغيرهم لم ينالوا منه مأرباً. غير أن كبير السادة الحسينيين المقيمين في أعالي كسروان، السيد أحمد الحسيني عضو محكمة الاستئناف، يكشو دوماً إقطاعية آل حمادة وينعتها بالظالمة، خلافاً لآل الحاج في الساحل الذين ظلوا على الحياد. فكانت آثار الحزبية في هذه الطائفة أيضاً تظهر في الانتخابات النيابية وحين تعيين كل موظف من الجعفريين.

"السنيون في جبل لبنان طائفة قليلة العدد تتألف منها ناحية شحيم من أعمال قضاء الشوف وناحيته الشمالية في الكورة (حيث الأمراء الأيوبيون)... أما الأولى شحيم فقد امتازت بنبوغ أفرادها في العلم والأدب وأهمهم آل الخطيب وآل الحجار، من هؤلاء حسين بك الحجار الذي كان عضواً في مجلس إدارة لبنان، ومن آل الخطيب قاضي المذهب السني وعضوان في دائرتي محكمة الاستئناف السيدان أحمد وعبد الجليل. كما نبغ منهم بعد الحرب الكبرى رجال أجلاء كالشاعر الملهم الشيخ فؤاد الخطيب وأخيه بهيج بك (وكلاهما تسلّم مناصب سياسية عالية، الأول في السعودية والثاني في سورية)... ومما تجب الإشارة إليه في هذا البحث، سلامة السنيين في لبنان من الأحزاب فكانت صلاتهم بالحاكم على أحسن ما يرام في مختلف الأدوار، شأن معظم الأقليات في أكثر الأمصار" (يوسف الحكيم، ص 55-56).

هذه كانت صورة عامة عن الوضع السياسي - الطوائفي في جبل لبنان إبان عهد المتصرفية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وعن المناطق المنسلخة عن لبنان نختاربيروت ليكتمل لدينا إطاراً وافياً نوعاً ما عن وضع لبنان في تلك الحقبة.

4- في بيروت

ألحقت، كما رأينا، بولاية سورية أسوة بطرابلس. وفي سنة 1888، جعلت مركز ولاية وألحق بها عدا أقضيتها الثلاثة (صيدا وصور ومرجعيون) متصرفيات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس. واستمرت على هذه الحالة حتى نهاية الحرب الكبرى واحتلال الحلفاء العسكري. وكان والي بيروت، كغيره من الولاة العثمانيين، تابعاً وزارة الداخلية في العاصمة التركية، وكان تركي الجنسية.

"لم يقبل المسيحيون في بيروت وملحقاتها على وظائف الحكومة إلا نادراً، فانصرفوا إلى التجارة والمهن الحرة مكتفين بالمناصب الانتخابية كعضوية المجالس الإدارية والبلدية والقضائية، إذ كان نصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من غير

المسلمين. على أن أعضاء المحاكم أصبحوا بعد الدستور (العثماني، 1908) معينين تعييناً أسوةً برؤساء المحاكم والمدعين العامين ومعاونيهم بفضل وفرة الخريجين من معهد الحقوق في العاصمة (...) (ومن الناحية الأمنية، عرفت بيروت، وبخاصة قبل الدستور المشار إليه، فلتاناً تتحمّل مسؤوليته حكومة الوالي مباشرة). "فإذا قتل مسلم أخاه المسيحي، وجد لنفسه ملجأ في نفس بيروت، لا تصل إليه أيدي قوى الأمن. فيقوم في اليوم التالي من يثأر للقتيل من أبناء طائفته ويقتل آخر قد يكون بريئاً ثم يفر إلى جبل لبنان حيث يتمتع بأمان واطمئنان. ومما لا ريب فيه أن عقلاء الطائفتين لم يكونوا راضين عن هذه الأعمال البربرية لكنهم لم يقوموا بعمل موحّد لقطع دابرها. ولعلّ السبب في ذلك، على ما شاع وملأ الأسماع، ان الحكومة كانت راضية عن هذا التقاتل والتباغض لكي لا يطلب مسلمو بيروت الانضمام إلى جبل لبنان المحيط بها من جهاتها الثلاث" (يوسف الحكيم، ص 27-30).

ومقابل هذا الوضع الأمني المهزوز والمقصود، والذي استعمل المسؤولون الأتراك، من أجل تمريره تحقيقاً لغاياتهم التقسيمية المستمرة، طبقة العامة من سكان بيروت، هناك وجه بيروتي آخر تمثّل بصلات المودة والإخلاص بين العائلات البيروتية من الطائفتين، على وجه الخصوص بين الفئات المثقفة والوطنية فيها، ما أمّن للمجتمع البيروتي بأن يبقى في طليعة المجتمعات في جميع مراكز الولايات العثمانية، وحتى في العاصمة العثمانية نفسها. وما أمّن، من جهة ثانية، خاصة بعد صدور دستور 1908، حركة ثقافية وسياسية كانت بيروت محورها الرئيسي. كما كانت هذه الحركة في أساس قيام الجمعيات والأحزاب المطالبة بالاستقلال.

نيابياً، كان لبيروت وأقضيتها الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون في انتخابات 1908 نائبان عن المسلمين هما الوجيه رضا بك الصلح (والد رياض الصلح) وكامل بك الأسعد (والد أحمد الأسعد) الزعيم العاملي المعروف، ونائب عن المسيحيين هو العلاّمة الشهير سليمان أفندي البستاني. وفي انتخابات 1912 عاد النائبان المسلمان دون النائب المسيحي بحجة عدد المسيحيين المتناقص. لعلّ السبب في ذلك نزوح عدد كبير من الشباب المسيحي من بيروت إلى الجبل، وعزوف عدد آخر عن التسجيل في دوائر النفوس، وفي الحالتين تهرباً من الخدمة العسكرية. لكن في انتخابات 1914، عاد كامل الأسعد وعن بيروت سليم سلام وميشال سرسق. أما عودة النائب المسيحي الأخير (ميشال سرسق) فلأن "ولاية بيروت تلقّت أمراً من وزارة الداخلية مبنياً على قرار مجلس وكلاء الدولة بوجوب انتخاب نائب مسيحي نظراً لأهمية المسيحيين في هذه الولاية علمياً واجتماعياً واقتصادياً" (يوسف الحكيم، ص 116).

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في جبل لبنان في عهد المتصرفية

على الرغم من حرمان المتصرفية من المرافئ البحرية وسلخ مناطق زراعية خصبة عنها كانت جزءاً من الإمارة، فإن جبل لبنان نَعِم بازدهار اقتصادي لفت أنظار كل الذين زاروه في تلك الأيام. وكانت الزراعة النشاط الاقتصادي الأول. فقد تمكّن الفلاّحون من تحويل السفوح الجبلية إلى جلول زُرعت بالحبوب والخضار والأشجار المثمرة، واهتموا أيضاً بتربية الماشية. "...وإن الزراعيين اللبنانيين الذي فُطروا على الجدّ والإقدام يجمعون ما يتيسر من التراب بين الجدران (الجلول) يقيمونها ويأخذون بزراعتها قهراً



خليل الخوري من رواد نهضة المطابع والصحف

وكرهاً...» (أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية). غير أن الإنتاج الزراعي والحيواني لم يكن بكميات كبيرة تسمح بالتصدير، وإنما كان يؤمّن قسماً من الحاجات الاستهلاكية، ما عدا زراعة التبغ وإنتاج الحرير، فكان إنتاجهما يُباع في الخارج. وقد وجدت الزراعة رعاية من قبل المتصرف فرنكو باشا الذي اهتمّ بالتحريج وغرس الأشجار المثمرة، والمتصرف رستم باشا الذي أمر بتأسيس جمعيات للزراعة (هي أولى النقابات) في مختلف مراكز الأقضية.

وفي الصناعة، أجاد اللبنانيون صناعة الزيت والصابون والنسيج والخمور والفخّار، وكلها بطرق تقليدية حرفية. وكانت غاية الصناعة الأساسية تأمين حاجاتهم من الكساء والمؤونة والأثاث. ولكن ظهرت بعض الصناعات المعدّة للتصدير مثل الزيت والصابون والمنسوجات الحريرية. وهناك صناعات اشتهر بها بعض القرى، مثل السكاكين في جزين، والأجراس في بيت شباب "... واستقدم المتصرف رستم باشا في صيف 1875 مُعدِّناً ألمانياً هو الدكتور أوسكار فازر للتفتيش عن المعادن في لبنان ولدرس إمكانية التربة فيه. وكان المسيو هورك دلك وشركاؤه في تلك الأثناء يفتشون عن الفحم الحجري...» (أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية). وقد ورد في هذا العهد إلى لبنان بعض المعامل الآلية لغزل الحرير ونسجه، وبخاصة إلى مدينة بيروت.

وبفضل الأمن والاستقرار وتقدّم وسائل النقل البرّي والبحري، نشطت التجارة الخارجية، ووردت إلى المتصرفية المصنوعات الأوروبية الحديثة التي أثرت في الصناعات الحرفية. وفي المقابل، كان يُصدّر التبغ والزيت والصابون والحرير. ومع اهتمام المتصرفين بفتح الطرق الداخلية، ازدهرت التجارة الداخلية بين قرى جبل لبنان، حتى ان البضائع الأجنبية وصلت إلى أبعد قرية فيه (اهتّم رستم باشا بإقامة أسواق أسبوعية). وقد أدّى نشاط التجارة إلى توسيع المرافئ اللبنانية، وبخاصة مرفأ بيروت. ومما يذكر أيضاً أن بناء السكك الحديدية وسّع مجالات التجارة مع بقية الولايات العثمانية.

ونظراً إلى التغييرات التي حصلت في الأوضاع الاقتصادية في جبل لبنان، ونظراً إلى انتشار المدارس وكثرة الإرساليات الأجنبية، وإلى طبيعة النظام السياسي الذي حدّ كثيراً من سلطة الإقطاعيين، فإن تغييرات جذرية قد حلّت بالمجتمع اللبناني. نذكر


بيروت القديمة

أبرزها:

- تميّز عهد المتصرفية بظهور طبقة جديدة في المجتمع، غير الإقطاعيين والفلاّحين، هي طبقة المثقفين والتّجار الأغنياء، التي أصبح لها نظرة جديدة إلى الحياة، والتي تأثرت بالغرب، وحاولت تغيير العادات والتقاليد. وكان معظم أفراد هذه الطبقة الجديدة يعيشون في المدن. وتمتّع الفرد بقسط أكبر من الحرية خارج نطاق العائلة.

- تحسّن مستوى المعيشة، وازداد اتصال الناس بعضهم ببعض، وشُقّت الطرقات، وأنشئت البلديات (القوميسيون) التي اهتمّت بالمنافع العامة.

- نزوح من الريف إلى المدن الساحلية بسبب تحصيل العلوم والرغبة في رفع مستوى المعيشة (عند مستهل القرن التاسع عشر كان عدد سكان بيروت خمسة آلاف، وعند نهايته - أي في أواسط عهد المتصرفية - أصبح 120 ألفاً (فيليب حتي، تاريخ لبنان).

- حركة هجرة خارجية (ضيق مساحة المتصرفية، تكاثر السكان...)، خاصة نحو مصر بسبب ما توافر فيها من حرية تعبير، ومجالات عمل، خاصة بعد فتح قناة السويس. "... فوجد الخديوي اسماعيل في خريجي الجامعات الأوروبية في بيروت موظفين أكفاء (...) وكذلك لما احتلّ الانكليز مصر عام 1882 وجدوا في خريجي الجامعة الأميركية في بيروت موظفين أنعمت بهم السماء كما يقول كرومر..." (فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 576) قد عمل اللبنانيون هناك في مختلف المجالات: الوظائف الإدارية، الطب، الصيدلة، التجارة، الصحافة... أما قارة أميركا، فالهجرة إليها أتت في الدرجة الثانية بعد مصر، وبدأت إلى أميركا الشمالية، ثم إلى الجنوبية. وأبرز مجالات العمل للمهاجرين اللبنانيين، في تلك الفترة، كانت التجارة. فكان الواحد



السلطان عبد الحميد

منهم يبدأ كبائع متجول.

وكان للهجرة اللبنانية نتائج مهمة، منها أنها حلّت مشكلة البطالة في المتصرفية وفي لبنان عموماً، وان أموال المغتربين المرسلة إلى أهلهم في لبنان ساعدت في رفع مستوى المعيشة وتزايد البناء الحديث في الجبل، وبخاصة البيوت المسقوفة بالقرميد. كما حقّق المغتربون في المهجر نجاحاً هائلاً ووصل بعضهم إلى مراكز مرموقة، وبعضهم جمع ثروات خيالية (في العام 1907، قُدّرت ثروة


من الحرب العالمية الأولى

اللبنانيين في مصر بخمسين مليون ليرة إنكليزية، أي عُشر الثروة القومية المصرية). أما الذين عملوا في الآداب والصحافة في مصر بصورة خاصة، وفي أوروبا (باريس، على وجه الخصوص)، وإلى حد ما أميركا، فقد كان لهم دورهم الرائد في النهضة الفكرية التي حدثت في العالم العربي.

الدور النهضوي للبنانيين في عهد المتصرفية

بدأت الإرساليات الأجنبية تأتي إلى لبنان منذ القرن السابع عشر: الكبّوشيون عام 1626، واليسوعيون عام 1652، ثم تبعهم الكرمليون فالفرنسيسكان. أما نشاطات هذه الإرساليات التعليمية والتربوية، فقد اتّسعت وزادت كثيراً في القرن التاسع عشر، حين راحت


من الحرب العالمية الأولى

هذه الإرساليات تتنافس في إنشاء المدارس في المدن والقرى في جبل لبنان والساحل والداخل. وبخاصة في المناطق التي يسكنها مسيحيون (كانت إرساليات كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية). ولعلّ أهم هذه المعاهد كانت مدرسة عينطورة للعازاريين (تأسست عام 1834)، والجامعة الأميركية في بيروت (1886)، وجامعة القديس يوسف في بيروت (1875)، ومدرسة الشوير للمرسلين الانكليز (1875).

وكان تزايد المدارس الإرسالية حافزاً لأبناء البلاد، من رهبانيات وأفراد، ليؤسسوا المدارس الوطنية التي خرّجت في ما بعد أجيالاً من أعلام الفكر والأدب: المدرسة الداودية في عبيه (أنشأها داود باشا)، ومدرسة الحكمة (أسسها المطران يوسف الدبس، 1874)، ومدرسة الثلاثة أقمار (أنشأتها مطرانية الروم

الأرثوذكس، 1852)، والمدرسة العثمانية (أسسها أحمد عباس الأزهري في بيروت، 1897)، والمدرسة البطريركية الكاثوليكية، والكلية الشرقية في زحلة (1898)، والكلية الإسلامية، والمقاصد الخيرية.

ومع تزايد المدارس، وتزايد المتعلمين والمثقفين، برزت الحاجة إلى الطباعة، التي أدّى انتشارها إلى تنشيط حركة التأليف والترجمة (أقدم مطبعة في لبنان هي مطبعة دير ما أنطونيوس قزحيا التي دخلت عام 1610 على عهد فخر الدين المعني الثاني)، ومطبعة مار جرجس الأرثوذكسية (1847)، والمطبعة اليسوعية (1848)، والمطبعة السورية لخليل الخوري (1857) والمطبعة العمونية ليوسف الشلفون (1861)، والمطبعة المخلصية (1865)، ومطبعة بيروت لمحمد الدنا (1885)، وغيرها. وما لبثت المطابع أن انتشرت في كل مناطق لبنان، ومع تزايدها ظهرت المكتبات التي توزّع الكتب وتبيعها، كما ظهرت المكتبات الخاصة (في البيوت).

وعرفت النهضة (في عهد المتصرفية) ظهور أعداد كبيرة من الصحف والمجلات، ذات الطابع الأدبي أو العلمي أو السياسي، بعضها ظهر في بيروت، وبعضها أسسها اللبنانيون في مصر، وفي باريس. ففي عام 1929، أحصى فيليب دو طرزي الصحف والمجلات العربية، وذكر أنها بلغت 3023، منها 426 ظهرت في لبنان بينها 294 في بيروت وحدها. هذا عدا عما أسسه اللبنانيون من صحف في مصر (على سبيل المثال، "الأهرام" لسليم وبشارة تقلا في 1875، و"مجلة الهلال" لجرجي زيدان في 1892)، وفي فرنسا، حيث "يشير غسان تويني إلى سلسلة طويلة من الصحف والمجلات التي بدأت تصدر منذ منتصف القرن التاسع عشر، باللغة العربية، وهي: مجلة "الحقوق الصادرة عام 1880، لصاحبها ميخائيل عورا: "البصير"1886، لخليل غانم اسماعيل بن يوسف: "صوت الشرق"، 1891، لحبيب فارس: "المرصد" 1893، ليوسف الحاج، "كشف النقاب"، 1894، للأمير أمين أرسلان: "تركيا الفتاة"، 1895، لخليل غانم والأمير أمين أرسلان: "نهضة العرب"، 1906، لنجيب طراد: "الاستقلال العربي"، 1907، لنجيب عازوري: "باريس"، 1908، لجورج مسرّة ونجيب طراد: "الحياة الجديدة"، 1921، لحبوبة حداد: "الشرق الأدبي"، 1925، الياس طنوس الحايك. ويضاف إلى هذه العناوين، مجلة "المرصد" لصاحبيها انطوان فارس وسليم نقّاع، والتي كانت تصدر في مرسيليا اعتباراً من سنة 1897، وكذلك مجلة "الشهرة" لصاحبها حبيب جاماتي، والتي بدأت بالصدور في مدينة أنجير (وسط فرنسا) عام1888. ويعلّق تويني على هذه الظاهرة واصفاً إياها بتحوّل فرنسا إلى قلب نابض للوعي العربي، بكل ما للكلمة من معنى، إذ إن فرنسا لم تكن إذّاك مجرد منبر للأفكار العربية الناشئة، بل كانت أكثر من ذلك، إذ إنها تفاعلت مع هذا الوعي الناشىء بتقديمها له نماذج معرفية مناسبة (الصحافة المطبوعة) وقوالب فكرية جديدة (الحداثة المنبثقة من تجربة الثورة الفرنسية) ومناخاً منفتحاً وسليماً للتعبير عن الأراء بحرية. كل ذلك جعل من تجربة التواصل القائمة بين العرب (وعلى رأسهم اللبنانيون في تلك الفترة) وفرنسا تجربة مثمرة، تخطت بسرعة مرحلة الصدام العنفي الأول – حملة بونابرت – لتبحث سريعاً في ما هو أكثر نفعاً لدنيا العرب الباحثة لنفسها عن أطر معرفية جديدة تسمح لها بالخروج من المستنقعات العثمانية حيث كانت تقبع..." **(فردريك معتوق، "غسان تويني يناقش علاقة العالم العربي بالفرنكوفونية، الصدام الثقافي العنيف نجمت عنه تجربة غنية"، "الحياة"، 3 أيلول 2000، ص12).**

طليعة لبنانية انقسمت إلى طليعتين

في سنوات ما قبل الحرب العالمية (كما في سنوات هذه الحرب وما بعدها) انقسمت الطليعة اللبنانية، مفكرون ومثقفون وجلهم من مؤسسي الجرائد والمجلات وكتّابها، فكراً ودعوةً ونضالاً، إلى قسمين : واحد ذهب بمطاليبه الاستقلالية إلى أبعد من الحدود اللبنانية وطالب بدولة عربية مستقلة عن السلطنة، والثاني حصر دعواته باستقلال لبنان. واتفق الاثنان على مناصبة العثمانيين العداء. القسم الأول من هذه الطليعة كانت بيروت ساحة حركته الأساسية، والقسم الثاني كان جبل لبنان دعامة ارتكازه. والإثنان هاجر منهما العدد الأوفر خاصة إلى مصر وإلى فرنسا.

كاد القسم الأول (العروبي) أن يكون وقفاً على المسيحيين حتى 1908. فالسلطان عبد الحميد الثاني، منذ 1876، أدار ظهره إلى المبادئ العلمانية التي نادى بها من قبل زعماء الإصلاح العثماني المتأثرين بالمبادئ الديمقراطية الأوروبية، وراح يعزّز من جديد العنصر الإسلامي في الدولة، وتزعّم حركة الوحدة الاسلامية، فتحمّس له العرب المسلمون على قدم وساق مع الأتراك العثمانيين. فقوي ولاء العرب المسلمين للدولة التركية، ولم يبقَ هناك ما يغريهم للتعاون مع مواطنيهم المسيحيين. لكن، مع انقلاب 1908 الذي جاء بقادة حزب "الاتحاد والترقي" إلى الحكم في تركيا، وتبنيهم لمبادئ العصرنة والحداثة من جهة، وتطرفهم في تغليب العنصر التركي على ما عداه من جهة ثانية، أخذ مسلمون عرب ينضمون إلى دعوات المسيحيين الاستقلالية.

وسرعان ما غلب عنصر العدد على هذه الحركة الاستقلالية (التي أرسى المسيحيون قاعدتها، منذ الأساس، على مبادئ علمانية) وتداخلتها دعوات إسلامية، ما قوّى من حجة القسم الأول. "القوميون اللبنانيون"، في العمل على استقلال لبنان: إذ تبيّن لهم أن العروبة تخفّت إلى حد التلاشي متى قامت في الآستانة سلطة إسلامية تناصب المبادئ العلمانية كل عداء، وان العروبة والاستقلال يصبحان مقبولين، لكن على قواعد إسلامية، متى قامت في الآستانة سلطة تهتدي بالمبادئ العصرية. فبدأ المسيحيون يتساءلون، وهم أمام هذه الصورة، عما سيكون وضعهم في ظل إمبراطورية عربية، فيما إذا قامت فعلاً على أنقاض السلطنة؟ وهل هذه الامبراطورية ستكون في وارد إعطاء امتيازات وضمانات للبنانيين كانت متوافرة لهم في عهد العثمانيين؟

"وإذ بدأت النزعة القومية العربية، بقيادة المسلمين، تتخذ شكلها الجديد، كان لا بد من أن يتبدل موقف المسيحيين تجاهها. وكان بين هؤلاء مَن آثار الاستمرار في تأييد الحركة، خصوصاً في المناطق التي كان المسيحيون فيها أقلية. أما في لبنان، فسارع المسيحيون، وهم أغلبية السكان، إلى إعلان تحفظهم من حركة أصبحت القيادة فيها للمسلمين. فمع وحدة الهدف التي جمعت في الأساس بين القوميين اللبنانيين المسيحيين والقوميين العرب، وهي مقاومة الحكم العثماني والمطالبة بالاستقلال التام، رأى القوميون اللبنانيون ان الوحدة العربية الشاملة التي هدف القوميون العرب إليها تنذر بحالة يؤثر عليها استمرار الحكم العثماني. ففي ظل السلطنة العثمانية، نعم اللبنانيون بامتيازات حرصوا أشد الحرص على التمّسك بها. فماذا كان يضمن لهم بقاء هذه الامتيازات في ظل امبراطورية عربية"

(**كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ط6، بيروت 1984، ص 202**).

وما لبثت هذه التساؤلات أن انجلت عن موقف مسيحي أكثري (ماروني بشكل خاص) في رفض

الانضمام إلى امبراطورية عربية تضم الجزيرة العربية والولايات السورية والعراق، أُشيع أن بريطانيا وعدت بها الشريف حسين فور إعلان ثورته (الثورة العربية الكبرى) في حزيران 1916. وفيما اعتمد مؤيّدو حركة الشريف على معونة بريطانيا، التفت القوميون اللبنانيون إلى فرنسا، حاميتهم التقليدية، يلتمسون منها مساندتهم لضمان استقلال لبنان. فألّفوا اللجان والجمعيات والأندية، وأصدروا النشرات والجرائد، وشكلوا الوفود من أجل المطالبة باستقلال لبنان. وفي 1917، كانت وحدات من الأسطول الفرنسي قد تمركزت في جزيرة أرواد لمراقبة التطورات في سورية عامة، ولمتابعة الصلة مع دعاة الاستقلال في لبنان. ولما كان البريطانيون ملزمين، بحكم اتفاق سايكس - بيكو، باحترام مصالح الفرنسيين في الولايات السورية، فإنهم لم يحرّكوا ساكناً تجاه هذه المساعي الفرنسية.

نقول "موقف مسيحي أكثري"، والمقصود الأكثرية الشعبية، لأن الطليعة المسيحية، كانت لا تزال، حتى قبيل الحرب وأثناءها، عروبية بأكثريتها، فأسماء مثل شكري غانم، واسكندر عمون، وندرة مطران، وشارل دباس... وسواها من الأسماء المسيحية كانت، إلى جانب أسماء إسلامية مثل سليم علي سلام (والد صائب سلام)، والشيخ أحمد طبارة وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وعوني عبد الهادي... تؤسس الجمعيات العربية (العربية الفتاة، وجمعية بيروت الإصلاحية وسواها) وتقود حركة تحقيق الاستقلال الذاتي للعرب ضمن نظام اللامركزية (وأحياناً بالإضرابات والمظاهرات، كما حدث في بيروت سنة 1913). وقد توّجت حركتها بانعقاد المؤتمر العربي في باريس (13-21 حزيران 1913) الذي كان ندرة مطران وشكري غانم وعبد الغني العريسي وشارل

جمال باشا مع ابنه الوحيد على درج قصر بسترس حيث تقوم وزارة الداخلية

دباس وجميل مردم أبرز منظميه. وتركّز البحث فيه حول نقطتين أساسيتين: حقوق العرب في السلطنة، والإصلاح الإداري على أساس اللامركزية.

وكثير من هذه الطليعة المسيحية عادوا، بعد الحرب وخاصةً بعد إعلان دولة لبنان الكبير (1920)، مثلهم مثل كثير من الطليعة المسلمة، ليعملوا لاستقلال لبنان، إلى أن تبلور فكرهم وعملهم أخيراً في الميثاق الوطني.

في أثناء الحرب

مع دخول السلطنة الحرب (8 تشرين الثاني 1914)، أرسل جمال باشا، على رأس الجيش الرابع، حاكماً عسكرياً على لبنان وسورية، وأوكلت إليه مهمة احتلال قناة السويس وإخراج الانكليز من مصر. فاتخذ من دمشق مقراً له، وصرّح بأنه سيعامل العرب معاملة جيّدة، وسيحافظ على امتيازات اللبنانيين. غير أن أعماله نقضت أقواله، فأساء معاملة الجميع، وخاصة بعد فشل محاولتيه في احتلال قناة السويس: الأولى في شباط 1915، والثانية في آب 1916. فاتخذ سلسلة إجراءات أدّت إلى نقض نظام لبنان الأساسي (المتصرفية)، مع إبقائه إسمياً بتعيينه متصرفين غير مسيحيين (آخرهم كان ممتاز بك الذي عيّنه جمال باشا في تموز 1918)، وحلّ مجلس الإدارة (12 عضواً لمساعدة المتصرف)، وسجن بعضهم ونفى البعض الآخر، واحتلّ بعض المدارس والأديرة، وألغى امتيازات رجال الدين (الموارنة خاصة)، وأنشأ الديوان العرفي في عاليه لمحاكمة الوطنيين التي أدّت إلى قافلتين من الشهداء (آب 1915، وأيار 1916)، وفرض أعمال السخرة، صادر الحيوانات والمواد الغذائية، واضطهد رجال الفكر، وأقفل الصحف وحلّ الجمعيات... فزادت هذه الأعمال من نقمة اللبنانيين على السلطنة، والتحق بعض الشباب اللبناني بقوات الثورة العربية في الحجاز (1916)، ولجأ بعضهم إلى مصر وشكّل مع بعض المغتربين اللبنانيين فرقة عسكرية قاتلت إلى جانب الثورة والحلفاء في سيناء وفلسطين ودخلت معهم إلى لبنان وساهمت في أعمال الإغاثة.

وإضافة إلى ذلك فرض الأتراك حصاراً برياً على الجبل، كما قام الحلفاء (الانكليز والفرنسيون) بفرض حصار بحري، فتوقف التبادل التجاري وسُدّت الطريق أمام أموال المغتربين. وفاقمت من الأزمة موجات كثيفة من الجراد (1915)، فأتت على المزروعات... وأسفرت عن مجاعة ضربت الأهالي (خاصة في شتاء 1916)، وتفشت الأمراض والأوبئة، ومات أكثر من ثلث سكان لبنان (عند نشوب الحرب كان عدد سكان البترون، على سبيل المثال، خمسة آلاف نسمة، فهبط عند انتهائها إلى ألفين)، وتاه الناس على وجوههم، وقصد بعضهم مناطق حوران، وغادر الأيتام قراهم على غير هدى والتجأوا إلى خيام البدو في الصحراء... واستسلم اللبنانيون للقدر منتظرين انبلاج فجر جديد. ورغم هذه المأساة، وصلت إلى لبنان جماعات من الأرمن والآشوريين الهاربين من ظلم الأتراك.

وأثناء هذه الظروف، التي غيّبت كل إرادة سياسية للبنانيين في شطريهم: متصرفية الجبل وولاية بيروت والأقضية، عرفت المنطقة حدثين تاريخيين كبيرين: الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين (1916)، ونقض الحلفاء وعودهم للشريف حسين وأحرار العرب، واتفاقهم على تقاسم أراضي السلطنة في ما بينهم (سايكس - بيكو، 1916).